الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول

الدكتور سهيل إدريس

Propriétanre - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي إدريس

Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا ـ رأس الخندق الغميق ـ بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية أو بريدية

الاعلانات
يتفق بشأنها مع الادارة

أيها الثائران .. هذا اللقاء ، اليوم ، حلم تعهدته الليالي
كان ، أمس ، العراق ـ وهو سجين ـ يتملاه ومضة في خيال
هدهدته منى تطوف عليه وهو يقظان في القيود الثقال
فغفا غفوة ، وفي رمضان كان صوت ، كصوت تموز ، عالي
هب من نومه اللمام عليه في صباح منور متلالي
فاذا الافق قاصف من حديد.. واذا الارض عاصف من رجال
واذا الوكر .. وكر جلاده الاوحد يهوي لصرخة الابطال
واذا بالعراق عادت خطاه وخطى العرب في طريق النضال
واذا الحلم .. حلم بغداد ، يبدو في اطار من روعة وجلال
ثائر الرافدين يعتنق الثائر في مصر .. في لقاء غالي !..

***

ايها الثائران .. هذا اللقاء ،اليوم ، للعرب معقد الامال
باركته على المحيط قلوب .. وقلوب على خليج اللآلي
وقلوب أقصين عن جنة الكرمل يخفقن حول تلك الدوالي
وعيون ترنو لكف بكف أطبقت في حرارة وابتهال

***

لقاء الثائرين

« تحية للثائرين العربيين ناصر وعارف ، مشفوعة بالرجاء في ان يكون لقاؤهما محققا لامال العرب .. كل العرب ... »

***

كانطباق الجفنين يدفع ما تقذي به العين عند سفي الرمال
هكذا .. هكذا لقاؤكما اليوم.. جلاء القذى.. وغيض القالي
وشفاء لانفس من ظنون ، وبلاء لانفس باعتلال
وانطلاق الدعاة بالوحدة الكبرى وكبت السعاة بالانفصال

***

أيها الثائران .. هذا اللقاء ، اليوم ، للعرب عدة في النزال
هزت المسخ حبل جلق تبلوه فقولا ، انا معا .. فتعالى
لاتخالي الخلاف بين الاشقاء سينأى ببعضهم .. لا تخالي
الغمام الذي ترين شتيتا يمطر الموت واحدا في القتال
كل خلف يذوب في جاحم الثأر فلا ترقصي لومضة آل
أنت ادرى بنا ، وقد خضبت امس دمانا وجه الربى والتلال،
كيف كنا معا .. وقادتنا شتى ذئاب تربصت بثعالي
أكلت بعضها .. وزالت .. وعدنا نتحداك للقاء التالي

***

أيها الثائران .. ان لقاء اليوم هذا منارة الاجيال
أنتما .. أنتما لنا فرجة الآمال في زحمة الخطوب الثقال
عارف الثورتين .. في فجر تموز وفجر مضمخ بالجلال
لم تزل حادي الزحوف وهاديها اذا ماسرت بتيه الضلال
ناصر الثائرين .. رجع نداءات (ابن بللا) بالامس و (السلال)
أنت .. أنت النجيد بالدم والمال .. ولست النجيد بالاقوال
لا خلا الجو منك صقر (بني مر) ولا زلت مصعدا في الاعالي ✶

خالد الشواف

✶ **من ديوان « حداء وغناء » الذي يصدر هذا الشهر عن دار الاداب.**

الحُرّية والتحَرّر

بقلم سيمون دو بوفوار

ترجمة جورج طرابيشي

ان احد الاعتراضات الرئيسية (*) التي توجه الى الوجودية هو ان مفهوم « ارادة الحرية » ، ليس الا مفهوما فارغا لا يقترح أي مضمون عيني على العمل . لان كلمة الحرية قد بدأت تفرغ من معناها العيني . ولقد رأينا ان الحرية لا تتحقق الا بانخراطها في العالم : بحيث ان مشروعها نحو الحرية يتجسد بالنسبة للانسان في شروط محددة .

ان ارادة الحرية ، وارادة كشف الكينونة ، انما هما اختيار واحد وحيد . ومن هنا تتعين خطوة ايجابية وبناءة للحرية تحقق الانتقال من الكينونة الى الوجود في حركة متجاوزة باستمرار . ان العلم والتقنية والفن والفلسفة انما هي فتوحات لا محدودة للوجود على الكينونة : وهي لا تأخذ وجهها الاصيل الا بتبنيها نفسها على هذا النحو . وانما على ضوء هذا التبني تجد كلمة التقدم معناها الحقيقي . وليس المقصود هنا الاقتراب من لفظة ثابتة : كالعلم المطلق ، او سعادة الانسان ، او كمال الجمال . اذ سيحكم في مثل هذه الحال بالفشل على كل جهد انساني ، ذلك ان الافق يتراجع مع كل خطوة خطوة . انما المقصود ان يتابع الانسان توسيع وجوده وأن يستعيد ملكية هذا الجهد بالذات استعادة مطلقة .

ان العالم يحكم على نفسه بالفشل حين يدعي ، باستسلامه لدوار الجد ، انه يبلغ الكينونة ، وانه يحتويها ويمتلكها . لكنه يجد حقيقته اذا ما اعتبر نفسه انخراطا حرا للفكر في المعطى ، يهدف عند كل اكتشاف ، لا الى الاتحاد بالشيء ، بل الى امكانية اكتشافات جديدة . وما يرمي اليه الفكر انذاك هو التحقيق العيني لحريته . يزعم الانسان احيانا انه يبحث في التقنية عن تبرير موضوعي للعلم .. لكن عالم الرياضيات يهتم عادة بالرياضيات ، والفيزيائي بالفيزياء ، لا بتطبيقاتهما . والتقنية نفسها بالاصل ليست مبررة موضوعيا . واذا ما كانت تطرح توفير الوقت والشغل الذي تسمح بتحقيقه ، والرفاه والترف اللذين تسمح بالوصول اليهما ، على أنها أهداف مطلقة ، فانها تبدو في مثل هذه الحال لا مجدية ، باطلة : ذلك ان الوقت الذي يوفر لا يمكن ان يجمع في هري من الاهراء . وانه لمن التناقض ارادة توفير الوجود الذي لا يوجد على وجه التحديد الا بتجاوزه نفسه ، وانه لمن قبيل التبجح الادعاء ان الطائرات والآلات والهاتف واللاسلكي لا تجعل بشر اليوم اكثر سعادة من بشر الماضي . لكن ليس المقصود في الحقيقة اعطاء البشر وقتا وسعادة ، وليس المقصود حركة الحياة : انما المقصود انجازها . واذا كانت التقنية تزعم انها تملأ ذلك النقص الذي يحمله الوجود في قلبه ، فانها تفشل جذريا . لكنها تفلت من كل انتقاد اذا ما قبلنا بأن الوجود يلقي بنفسه من خلالها ، ودون ان يتمنى الاخلاد الى الراحة في أمان الكينونة ، الى أمام نفسه كيما يلقي بنفسه الى الامام اكثر ايضا ، واذا ما قبلنا بأنه ينشد كشفا لا محدودا للكينونة عن طريق تحويل الشيء الى اداة ، وبأنه يهدف الى ان يفتح للانسان امكانيات جديدة دوما . أما عن الفن ، فقد سبق أن قلنا أن عليه ألا يدعي انه يشيد أصناما معبودة : انما عليه ان يكشف للبشر عن الوجود باعتباره سببا للكينونة . ولهذا أدان افلاطون ، الذي كان يريد انتزاع البشر من الارض وتوجيههم الى سماء المثل ، الشعراء . ولهذا ايضا يكلل كل مذهب انساني جبينهم بأكاليل الغار ، على العكس من افلاطون . ان الفن يكشف المؤقت وكأنه مطلق . ولما كان الوجود المؤقت يمتد عبر قرون ، فلا بد ايضا من ان يطيل الفن عبر القرون بأمد هذا الكشف الذي لن يكتمل ولن ينتهي ابدا . وعلى هذا فان نشاطات الانسان البناءة لا تأخذ معنى له قيمته الا اذا اخذها على عاتقه كحركة نحو الحرية . وبالمقابل فاننا نرى ان مثل هذه الحركة عينية : فالاكتشافات ، والاختراعات ، والصناعات ، والثقافة ، واللوحات ، والكتب ، تعمر العالم عينيا وتفتح للبشر امكانيات عينية .

ولعله من المسموح به ان نحلم بمستقبل لن يعرف البشر فيه من استعمال لحريتهم غير بذلهم الحر لها : وانذاك سيستطيع كل انسان ان يمارس نشاطا بناء ، وسيستطيع كل فرد ان ينشد ايجابيا من خلال مشاريعه مستقبله الخاص . لكن الواقع ان هناك اليوم بشرا لا يستطيعون تبرير حياتهم الا عن طريق عمل سلبي . ولقد كنا رأينا ان كل انسان يتجاوز نفسه . لكن قد يحدث ان يكون هذا التجاوز محكوما عليه بأن ينكفىء على نفسه بدون جدوى ، لانه فصل عن اهدافه . وهذا ما يحدد الموقف الاضطهادي . ومثل هذا الموقف ليس طبيعيا البتة : فالانسان لا يخضع لاضطهاد الاشياء ، ولهذا فانه لا يتمرد عليها ، اللهم ان لم يكن طفلا ساذجا يضرب الحجارة ، او اميرا ملتاعا هائما يجلد البحر : انه لا يتمرد الا على البشر فقط . ان مقاومة الشيء تدعم عمل الانسان كما يدعم الهواء طيران الحمامة . والانسان اذ يلقي بنفسه من خلال هذه المقاومة ، يقبل بأن يؤسسها كعقبة ، ويتحمل المجازفة بفشل لا يرى فيه تكذيبا لحريته . ان المستكشف يعرف انه قد يرغم على التراجع قبل الوصول الى الهدف ، والعالم يعلم ان تلك الظاهرة يمكن ان تظل مبهمة عليه ، والتكنيكي يعلم ان محاولته قد تجهض : ان هذه التراجعات ، وهذه الاغلاط هي ايضا طريقة في كشف العالم . ويقينا ، ان العقبة المادية تستطيع ان تناهض بوحشية مشروعا ما : فالفيضانات ، والهزات الارضية ، وموجات الجراد ،

(*) فصل من كتاب « نحو اخلاق وجودية » الذي يصدر هذا الشهر عن دار الاداب .

والاوبئة ، والطاعون ، هي كوارث . لكن انما هنا تكمن احدى حقائق المذهب الرواقي : اذ على الانسان ان يتحمل حتى هذه المصائب ، ولما كان عليه ألا يستقل ابدا عن ذاته لمصلحة أي شيء كان ، فان دمار أي شيء كان لن يكون ابدا بالنسبة له دمارا جذريا . بل ان موته بالذات ليس شرا ، باعتبار انه ليس انسانا الا بمقدار ما يكون فانيا : ان عليه أن يتحمل موته باعتباره نهاية طبيعية لحياته ، باعتباره المجازفة التي تشتمل عليها كل خطوة حية . والانسان وحده يستطيع ان يكون عدوا للانسان، ووحده يستطيع ان يواري عنه معنى افعاله وحياته، لانه ليس الا من شأنه هو وحده ايضا ان يعززه في وجوده، وان يعترف به فعليا كحرية . وانما هنا يتبين ان التمييز الرواقي بين « الاشياء التي لا تتعلق بنا » وبين الاشياء « التي تتعلق بنا » هو تمييز ناقص : ذلك ان « نحن » جوقة عظيمة وليست فردا واحدا. ان كل فرد يتعلق بالاخرين ، وما يحدث لي عن طريق الاخرين انما هو معلق بي من حيث معناه . اننا لا نتحمل الحرب او الاحتلال كما نتحمل الهزة الارضية : فلا بد من ان نتخذ موقفا ضدهما او معهما ومن هنا تصبح الحريات الاجنبية حليفة او معادية . وهذه التبعية المتبادلة هي التي تفسر انيكون الاضطهاد ممكنا وان يكون بغيضا مكروها . ولقد رأينا ان حريتي تتطلب كي تحقق نفسها ان تنفتح على مستقبل مفتوح: وانهم البشر الاخرون الذين يفتحون لي المستقبل، وانهم هم الذين يحددون مستقبلي عن طريق بنائهم عالم الغد . لكن اذا ما ارغموني على استهلاك صبوتي بلا جدوى، واذا ما ابقوني دون المستوى الذي وصلوا اليه والذي سيقومون بفتوحات جديدة بدءا منه ، بدلا من انيسمحوا لي بالمساهمة في هذه الحركة البناءة ، فانهم يفصلونني آنذاك عن المستقبل ، ويحولونني الى شيء . ان الحياة تبذل جهدها لاطالة امدها ولتجاوز نفسها في آن واحد معا . واذا لم تفعل شيئا سوى الحفاظ على نفسها ، فأن يحيا الانسان ليس معناه انذاك الا ان لا يموت ولن يتميز الوجود الانساني عن حياة نباتية عبثية . ان الحياة لا تبرر نفسها الا اذا اندمج مجهودها لاطالة أمدها في التجاوز، والا اذا لم يكن لهذا التجاوز من حدود اخرى غير الحدود التي تضعها الذات لنفسها . ان الاضطهاد يقسم العالم الى فئتين : فهناك من يبنون الانسانية بالقذف بها الى امام نفسها ، وهناك من حكم عليهم بالمراوحة في مكانهم دونما أمل كي يصونوا الجماعية فقط . ان حياة هؤلاء الاخيرين تكرار محض لحركات ميكانيكية ، واوقات فراغهم تكفي بالضبط لاستعادة قواهم . والمضطهد يتغذى من صبوتهم، وبرفض ان يطيل في أمدها عن طريق اعتراف حر بها .

ولا يبقى للمضطهَد الا حل واحد : هو ان ينفي انسجام تلك الانسانية التي يزعمون انهم يستبعدونه منها ، هو ان يقيم البرهان على انه انسان وانه حر عن طريق تمرده ضد الطغاة . واحدى حيل الاضطهاد لدرء هذا التمرد ، هو ان يموه نفسه باهاب وضع طبيعي : باعتبار ان الانسان لا يستطيع بالفعل ان يتمرد ضد الطبيعة . وحين يريد المحافظ أن يثبت ان البروليتاريا ليست مضطهدة، يعلن ان التوزيع الراهن للثروات هو واقعة طبيعية وانه ليس ثمة من وسيلة بالتالي لرفضه . وهو يتبجح بلا ريب في ان يثبت انه لا يسرق ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، من العامل نتاج عمله ، باعتبار ان كلمة سرقة تستلزم وتفرض المواضعات الاجتماعية التي تسمح اصلا بهذا النوع من الاستغلال . لكن ما يعنيه الثوري بهذه الكلمة هو انالنظام الراهن القائم واقعة انسانية . وعلى هذا الاساس ينبغي ان يرفض . وهذا الرفض يفصل بدوره ارادة المضطهد عن ذلك المستقبل الذي يزعم انه يلقي بنفسه نحوه وحده: فيجد امامه مستقبلا اخر ، هو مستقبل الثورة . ان الصراع ليس صراع كلمات او عقائد ، بل هو صراع واقعي وعيني : واذا ما انتصر هذا المستقبل لا ذاك، فانه المضطهَد الذي يحقق نفسه كحرية ايجابية منفتحة، وانه المضطهد الذي يصبح عقبة ، شيئا .

اذن فهناك طريقتان لتجاوز المعطى : ثمة فرق كبير بين الاستمرار في رحلة او الهرب من سجن . ففي كلتا الحالتين يكون المعطى ماثلا في تجاوزه . لكنه في الحالة الاولى ماثل باعتباره مقبولا به ، وفي الحالة الثانية باعتباره مرفوضا ، وفي هذا خلاف جذري . ولقد خلط هيغل هاتين الحركتين في لفظة **aufhaben** الملتبسة . وانما على هذا الالتباس تقوم كل بناية مذهب التفاؤل الذي ينفي الفشل والموت . وانما هذا الالتباس هو الذي يسمح باعتبار مستقبل العالم تطورا متصلا منسجما . وهذا الخلط هو المصدر والنتيجة معا ، وهو خلاصة كاملة لتلك الرخاوة المثالية والثرثارة التي يأخذها ماركس على هيغل والتي يعارضها بصلابة واقعية . ان التمرد لا يندمج بتطور العالم المنسجم ، ولا يريد الاندماج به ، بل ان ينفجر في قلب هذا العالم وان يحطم استمراره . وليس من قبيل الصدفه انيكون ماركس قد حدد موقف البروليتاريا سلبيا لا ايجابيا : انه لا يظهرها وكأنها لا تؤكد نفسهابنفسها، ولا كأنها تسعى الى تحقيق مجتمع لا طبقات فيه ، بل يصورها على انها تميل اولا الى ان تحذف نفسها كطبقة. ولان هذا الموقف ليس له على وجه التحديد من مخرج اخر غير المخرج السلبي ، كان لا بد ان يحذف .

وجميع البشر معنيون بهذا الحذف ، من مضطهد ومضطهَد على حد سواء كما يقول ماركس نفسه : ذلك ان كل انسان بحاجة الى ان يكون جميع البشر احرارا. وثمة حالات لا يعرف فيها العبد عبوديته ، ولا بد فيها من ان تحمل اليد بذرة تحرره من الخارج : ذلك ان خنوعه لا يكفي لتبرير الطغيان الذي يمارس ضده . ان العبد يخنع حين ينجح المضطهِد في تضليله الى حد لا يبدو معه موقفه له وكأنه مفروض من قبل البشر ، بل انه معطى مباشرة من قبل الطبيعة ، من قبل الالهة ، من قبل قوى ليس للتمرد عليها من معنى . وآنئذ فانه لا يقبل بشرطه بعامل من استقالة حريته ، بل لانه لا يستطيع حتى ان يحلم بشرط اخر : وهو يستطيع ، داخل هذا العالم الذي يحبسه فيه جهله ، أن يعيش عيشة انسان اخلاقي وحر، في علاقاته مع رفاقه على سبيل المثال . وسيستمد المحافظ من ذلك الحجة كي يزعم انه لا ينبغي لنا انشوش ذلك السلام : فمن الواجب ألا نثقف الشعب، والا نحقق للوطنيين المستعمَرين من رفاهية . وهذا هو معنى قصة قديمة لشارل مورا : ينبغي ألا نوقظ النائم ، لاننا اذا ما أيقظناه فسيستيقظ على التعاسة . يقينا ، ليس المقصود، بحجة التحرير ، ان نلقي بالبشر رغما عنهم في عالم جديد لم يختاروه ، وليس لهم عليه من سيطرة . لقد كان انصار الرق في كاليفورنيا يجدون اللذة حين يرون الشماليين المنتصرين عليهم عبيدا سودا مسنين ضائعين أمام حرية لا يعرفون ما يفعلون بها ويطالبون وهم يبكون بسادتهم القدامى . ان مثل هذا التحرير الزائف — معانه

محتم في بعض الحالات – يرهق من يقعون ضحية له وكأنه خبطة عشواء جديدة من القدر . وما ينبغي عمله هو ان نقدم للعبد الجاهل الوسيلة لتجاوز وضعه عن طريق التمرد ، هو ان نبدد جهله . اننا نعرف ان مشكلة الاشتراكيين في القرن التاسع عشر كانت على وجه التحديد تنمية الوعي الطبقي لدى البروليتاريا . ونحن نتبين من حياة فلورا تريستان على سبيل المثال كم كانت هذه المهمة جاحدة : فما كانت تريده للشغيلة ، كان عليها اولا ان تريده بدونهم . لكن بأي حق نريد شيئا ما للغير ؟ هكذا سيسأل المحافظ الذي ينظر مع ذلك الى العامل او الى الوطني على أنه « طفل كبير » والذي لا يتردد في ان يتصرف كما يحلو له بارادة الطفل . وبالفعل انه لمن التعسف ، كل التعسف ، ان نتدخل تدخلا اجنبيا في مصير ليس هو بمصيرنا : بل ان هذا هو احدى فضائح الاحسان – بالمعنى المدني للكلمة – ذلك الاحسان الذي يمارس من الخارج ، حسب نزوة فاعله المفصول عن موضوعه . بيد ان قضية الحرية ليست قضية الغير اكثر مما هي قضيتي : انها قضية انسانية عالمية . واذا كنت اريد ان يعي الرقيق عبوديته ، فهذا كيلا اكون انا نفسي طاغية – ذلك ان كل استنكاف تواطؤ ، والتواطؤ طغيان هنا – وكيما تنفتح في الوقت نفسه امكانيات جديدة للعبد المتحرر ولجميع البشر من خلاله . ان ارادة الوجود ، وارادة كشف العالم ، وارادة البشر احرارا ، انما هي ارادة واحدة .

وبالاصل فان المضطهِد يكذب اذا زعم ان المضطهَد يريد الاضطهاد بملء ارادته . انه يستنكف فقط عن ألا يريده ، لانه يجهل حتى امكانية الرفض . ان كل ما يستطيع عمل خارجي أن يقترحه على نفسه هو ان يضع المضطهد بحضور حريته : انذاك سيقرر ايجابيا ، وبحرية . والواقع انه يأخذ قراره ضد الاضطهاد وآنئذ تبدأ حركة التحرر فعليا . ذلك انه اذا كان صحيحا ان قضية الحرية هي قضية كل فرد ، فصحيح ايضا ان ضرورة التحرر ليست واحدة بالنسبة للجميع . ويقول ماركس بحق : ان التحرر لا يبدو ضروريا مباشرة الا للمضطهَد وحده . اما نحن فاننا لا نؤمن بضرورة يقتضيها الواقع ، بل بمطاب اخلاقي . ان المضطهد لا يستطيع ان يحقق حريته كانسان الا في التمرد ، باعتبار ان خاصية الموقف الذي يتمرد عليه هي على وجه التحديد ان تحرم عليه كل تطور ايجابي . وانما في النضال الاجتماعي والسياسي تتجاوز صبوته نفسها الى ما لا نهاية . ويقينا ان البروليتاري ليس اكثر اخلاقية من أي انسان اخر من حيث طبيعته . فهو يستطيع ان يهرب من حريته ، وان يبددها ، وان يعيش عيشة الكفاف دونما رغبة ، وأن ينذر نفسه لاسطورة لا انسانية. وحيلة الرأسمالية « المستنيرة » آنذاك هي ان تجعله ينسى اهتمامه بتبرير أصيل ، وان تقترح عليه ، حين خروجه من المصنع الذي يستهلك فيه الشغل الميكانيكي صبوته ، تسليات ينتهي الامر بهذه الصبوة الى ان تضيع فيها تماما : وهذه هي سياسة ارباب العمل الاميركيين التي توقع بالعامل في فخ الرياضة والالعاب والسيارات والثلاجات . ومع ذلك فانه يميل الى الخيانة اقل مما يميل اليها اعضاء الطبقات صاحبة الامتيازات ، لان اشباع اهوائه ، وحب المغامرة ، وترضيات الجدية الاجتماعيه ، محرمة عليه . ومن الممكن بشكل خاص للبورجوازي وللمثقف ، في الوقت نفسه الذي يستطيعان فيه ان يتعاونا في النضال ضد الاضطهاد ، أن يستعملا حريتهما استعمالا ايجابيا : فمستقبلهما ليس مسدودا . وهذا ما يشير اليه بونج على سبيل المثال ، حين يقول انه يكتب ادبا « تاليا للثورة » . فمن المسموح به للكاتب ، كما للعالم وللتكنيكي ، بأن يحقق ، قبل ان تنجز الثورة ، خلق العالم من جديد ، ذلك الخلق الذي ينبغي ان يكون من صنع كل انسان اذا لم تكن الحرية مقيدة بعد في أي مكان. والسياسة الثورية نفسها تتردد حول النقطة التالية: أمن المرغوب فيه تخيل المستقبل مسبقا أم لا ، وهل يتوجب على البشر ان يتخلوا عن الاستعمال الايجابي لحريتهم ما لم يتم تحرر الجميع بعد ، أم أن كل انجاز انساني يخدم، على العكس، قضية الانسان ؟ ان العلاقة بين بناء المستقبل والنضال الراهن ، داخل الاتحاد السوفياتي بالذات ، تبدو وكأنها محددة بأشكال متفاوتة عظيم التفاوت حسب الازمان والظروف . وهذه نقطة ينبغي على كل فرد ايضا ان يبتكر حلها بحرية . وما نستطيع على كل الاحوال ان نؤكده ، هو ان المضطهد ملتزم بكامله بالنضال اكثر من التزام الذين لا يعانون من العبودية التي يعاني منها وان كانوا يرفضونها معه . لكن كل انسان معني ، من جهة اخرى ، بهذا النضال بطريقة اساسية للغاية حتى انه لا يستطيع ان يحقق نفسه اخلاقيا دون ان يساهم فيه . والمشكلة تتعقد عمليا من حيث ان الاضطهاد يأخذ اليوم اكثر من وجه واحد : فالفلاح العربي مضطهد من قبل الشيوخ ومن قبل الادارة الفرنسية او الانكليزية في آن واحد معا ، فأي العدوين عليه ان يحارب ؟ ومصلحة البروليتاريا الفرنسية ليست هي مصلحة الوطني المستعمر نفسها : فأيهما نخدم ؟ لكن المسألة هنا سياسية قبل ان تكون اخلاقية : اذ ينبغي ان ننتهي الى الغاء كل اضطهاد . وعلى كل فرد انيناضل مع الارتباط بنضال الاخرين ، وان يدمج نضاله بالهدف العام . فأي ترتيب نتبع ؟ واي تكتيك نتبنى ؟ ان هذه المسألة هي مسألة مناسبة وفعالية . وهي تتعلق ايضا بالنسبة لكل فرد بوضعه الخاص الفريد . فمن الممكن ان يضطر الى التضحية مؤقتا بقضية يتعلق نجاحها بنجاح قضية اخرى تتطلب دفاعا أعجل واسرع . ومن الممكنعلى العكس ان يرى ان من الضروري الحفاظ على توتر التمرد ضد وضع لا يريد ان يقبل به مهما كان الثمن : وهكذا

– التتمة على الصفحة ٥٨ –

انها ليست بمثابة كتاب مدرسي ، وهي تختلف وفقا لمهارة الكاتب ، وشخصيته الفنية . اما من حيث تطور هذا الاتجاه عموما ، فهو يتمسك بمبدأ « للكلمة معنى » ويرفض أن ينظر الى الكلمة كرمز فقط او كصوت فقط او كشيء فقط . وقال : طبعا لا يعني ذلك ان ليس للكلمة كل هذه الصفات لكن الصفة الرئيسية تظل لها « المعنى ». أما بالنسبة للواقعية الاشتراكية . فان هذا « المعنى » هو انسانية العالم الجديد . ثم تحدث عن الادباء الذين يمثلون وجه هذا الانسان الجديد منذ اربعين سنة ، كتولستوي وشولوخوف ولينوف وفادييف واهرنبورغ ، الذين لا يشبه احدهم الاخر ، ويتميز كل فرد منهم بشخصية فنية خاصة .

ثم أجاب فيدين على السؤال الرئيسي الذي يرافق الفنان ولا يفارقه وهو : « لماذا اكتب » وكيف ، والى اين أسير ، ومع من ؟ » . وقال : ان كل فنان ، يتخذ موقفا، فهو ، من بين جميع ظواهر الفن لا بد له من ان يختار، فيرفض شيئا او يوافق على شيء اخر . ونحن نرفض كل ما لا يتلاءم معنا . وهذا لا يعني اننا نرفض الاطلاع، وانا اثبت ان الاتحاد السوفياتي في طليعة البلدان من حيث كثرة التراجم من اللغات الاجنبية الى لغاته .

وهنا رد عليه احدهم بان المهم اختيار هذه المؤلفات الادبية . فقال : ان الاختيار موجود .

ورد فيدين ايضا على تلك المحاولة التي ترمي الى بعث تقاليد رواية جويس وبروست وكافكا . وقال : اننا لا نوافق على ذلك . كما اننا لا نوافق على ان البحث عن التجدد يقتضي العودة الى الانحطاط في الادب . اما رفضنا ، فمبني على أساس ثابت وسليم . لقد نشرنا مجموعة من مؤلفات بروست ، واذا كانت شهرته لم تنتشر فليس سبب ذلك أي نوع من سياسة انعزالية في الادب. اما جويس ، فليس بسر من الاسرار بالنسبة لنا . واما كافكا ، فهو كاتب دقيق الاسلوب وان له حقيقته الشخصية التي يستطيع ان يعبر عنها ، ولكن هذه الحقيقة لم تصبح يوما من الايام حقيقة لعدد كبير من القراء . فلماذا اذن يصرون علينا ان نوسع نطاق اختيارنا ؟

اهرنبورغ والمخاض الادبي ...

كان الجو الذي دارت فيه المناقشات صاخبا الى حد جعل اهرنبورغ (*) يقول : « يبدو لي كأنني أصم بحيث يجري الحديث بحيوية خارقة لكن لا يستطيع احدنا ان يستمع الى الاخر » . وكانت مواضيع الخلاف كثيرة، والمناقشات فيها حادة ، ومتشعبة . وقد قال اهرنبورغ: « يجب ان نختار بين ان نتركز على اختلافاتنا او على الاشياء التي توحد بيننا . وانا اعترف بان هناك اختلافات كثيرة بيننا سببها اننا نعيش انظمة اجتماعية مختلفة ذات ايديولوجيات مختلفة . لكن مع ذلك لدينا اشياء توحدنا » .

وقال اهرنبورغ معلقا على رأيه في الرواية الجديدة التي شرحت مفهومها نتالي ساروت: « أنا لست من انصار نظريتهم الادبية . وقليلون هم الادباء السوفيات المطلعون على انتاج هذا الفريق ، كما ان كثيرين من ادباء الغرب قلما يعرفون اخر انتاج الادباء السوفيات الذي ظهر في السنوات الاخيرة » . كما اعترض اهرنبورغ على تسمية هذه الدورة بمعالجة « ازمة » الرواية فقال : « اننا لم نوفق في اختيار الكلمة عندما وصفنا هذه المقابلة بانها مناقشة ازمة الرواية الحديثة . ذاك ان كل اديب، تقليديا كان أم مجددا، على يقين بانه يجيد الكتابة. فالازمة اذن ليست بالنسبة للاديب ، واعتقد انها ازمة بالنسبة للقراء . واعتقد ان الازمة من طبيعة الانتاج الفني ولولاها لمات الفن ، فكل اديب عندما يجلس ليكتب رواية او كتابا ما يثق بانه سيقول للناس ما لم يسبق لاحد غيره ان قاله، وانه يقوله باسلوب جديد . فالقضية اذن كانت وما تزال وستظل بالنسبة للاديب قضية المخاض ، وهي صعبة جدا . وتطرق اهرنبورغ الى قضية الشكل في الرواية فقال : « كنت اعارض اولئك الذين يعتقدون ان للشكل اولوية في الانتاج الادبي كما كنت اعارض اولئك الذين ينكرون اهمية الشكل . وانا على يقين من ان الشكل في الفن لا ينفصل عن المضمون كما ان المضمون لا ينفصل عن الشكل » .

ورد اهرنبورغ على هذا السؤال : هل يمكن انكار او رفض جويس او كافكا ؟ فقال : « بالنسبة لي انهما يمثلان الظواهر التاريخية ولا يمكن اهمالهما . وانا لا اعمل منهما راية في الادب ، والفن كما لا استطيع ان اجعل منهما مرمى . ان جويس قد حلل تفاصيل بسيكولوجية دقيقة واجاد المونولوج الداخلي وجويس هو اديب للادباء . اما كافكا فقد ادرك مسبقا كابوس الفاشستية . وكل مؤلفاته ومذكراته تدل على انه كان بمثابة مركز تسجيل لفرط حساسيته واليوم يهاجمه الكثيرون ، وكأنه من المعاصرين وهو ليس في الواقع سوى ظاهرة تاريخية ضخمة .

واشار الى الرواية الجديدة فقال يجب الا نخلط بينها وبين الادب المتطرف الذي يرمي الى احداث ضجة. فانصار الرواية الجديدة اناس مخلصون ، وانا احترم طريقتهم الادبية رغم انني على يقين من انهم مخطئون. ثم ان اكتشافاتهم هي نفس الاكتشافات التي حققناها عام ١٩٢٠ .

واشار الى الخلافات الايديولوجية التي تفرقهم ، ولكنه استدرك فقال ومع ذلك فهناك امور كثيرة نحن متفقون عليها . ومنها واجب الاديب في ان يدافع في روايته عن القيم الانسانية . اما ادب اليأس ، فانا لا ارى فيه عيبا اذا كان الانسان في حالة اليأس التي يعيش فيها كثير من الغربيين ولكني احتقر روح محاربة النزعة الانسانية واحتقار الانسان والسخر منه . ولا ارى بينكم من يدافع عن هذا التيار في الادب . وهناك لقاء اخر بين الادباء يكمن في اننا نعتبر أن مهمة الروائي تصوير الانسان والكشف عن عالمه الداخلي ، وحين نوفق في مهمتنا نخدم قضية توطيد التضامن الانساني والترابط بين الشعوب.

وتطرق الى موضوع الرواية في مختلف البلدان فأشاد بالرواية الاميركية وذكر ما قدمه هذا الادب من قسط كبير في تطوير الرواية على يد كل من همنغواي وفولكنر وشتاينبك وكالدويل ، الذين يصورون الانسان بدلا من ان يكتفوا بمجرد الحديث عنه .

وشدد اهرنبورغ على حق الاديب في التجربة ، وفي احترام تجربته والتمييز بينها وبين التدجيل . ثم احتج على رأي الذين يقولون ان الادباء الملتزمين لا يمكنهم ان يخلقوا روائع فنية حقيقية . وتساءل اليست الملهاة

(*) علقت جريدة الاكسبرس الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ ١٥ اب الجاري بان « ظهور اهرنبورغ وفاسيلي اكسيونوف ـ اللذين انتقدهما خروتشوف بقسوة في اذار الماضي قد اعتبر في كل مكان علامة « ذوبان جليد » ثقافي في الاتحاد السوفياتي » ...

الالهية مرآة صادقة للشغف السياسي في عصرها ، ثم أليس ستندال اديبا ملتزما ايضا ؟ انه رغم تمسكه بوصف الاحداث السياسية التي شهدها عصره . فان روايته « الاحمر والاسود » ما تزال تثير انفعال القارىء بعد مرور ١٣٠ سنة على صدورها . واشار الى التزام الاديب السوفياتي ، وقال أن سبب ما يكتبه الروائيون من روايات سيئة لا يعود الى تمسكهم بالايديولوجية الاشتراكية بل لأن بعضهم غير موهوب ، ولم يسبق لنا ان تعهدنا بانه في عهد الاشتراكية سيزول الكتاب غير الموهوبين ..

وختم اهرنبورغ كلمته مشددا على ضرورة العمل من اجل السلام في العالم ومحاربة روح الحرب والستارات الحديدية والسعي نحو توسيع الاتصالات بين البشر لازدياد التعارف ، وسد الهاوية التي تعمق بين العالم الاشتراكي من جهة والغرب من جهة اخرى . ان الاتصال ضروري، والمناقشات كذلك ، شرط ان نستغني عن الكلام الفارغ بان الواقعية الاشتراكية شيء تافه ، او انكار جملة ما انتجه الادب الغربي . وارى ان افضل وسيلة لهذا اللقاء الاكثار من التراجم ، واحساس الاديب بالمسؤولية الكبرى، خاصة بعد ان زاد عدد القراء وتعمقت ثقافتهم .

* * *

وظلت المناقشات حادة ، ومفهوم الالتزام والمسؤولية والحرية يصطدم باصطدام الايديولوجيات التي ينبعمنها. ومع ذلك ، فالجميع يصرون على ضرورة الاستماع والمناقشة ، وقد علق على ذلك سارتر فقال ان الحوار بين ممثلي مختلف الايديولوجيات ضروري ، وأضاف موضحا أنه يدلي برأيه كاشتراكي يناهض الثقافة البورجوازية . وحين تطرق سارتر الى التنافس الاقتصادي بين البلاد ، قال ان الاشتراكية ستنتصر في هذا الصراع (١) .

وحين سئل الكاتب السوفياتي سوركوف عن رأيه في المناقشات أيد موقف سارتر وقال ان مناقشات لينينغراد قد اظهرت ان الصراع الايديولوجي لا يحول دون الحوار. ان الحوار ممكن ومثمر .

ويبدو ذلك واضحا من التعليق الذي قدمه الكاتب السوفياتي سيمونوف حين قال : « اود ان اتحدث عن الاتجاه الذي يخالف فيه اصحابه مسؤولية الكاتب امام المجتمع بحجة انه يجب ان يظل امينا لنفسه . وقال ان مسألة الاخلاص للنفس تعني بالنسبة لي شعور الفنان بمسؤوليته امام الناس الذين يعيش بينهم ويكتب من اجلهم . واذا فقد الفنان هذا الشعور ، فقد نفسه ، او على الاقل فقد الشيء الرئيسي في نفسه . وأضاف : وفي رأيي ان الادباء يتميزون بشعور أكثر بالمسؤولية ، وهذا الشعور هو من طبيعة رسالتنا كأناس يخاطبون طول حياتهم ملايين من الناس ويعبرون عن رأيهم بهم . كما يبدو لي ان اخلاص الكاتب لنفسه يعني قبل كل شيء شعوره بانه من هؤلاء الناس ، يشعر بقرابته اليهم لا بما يتميز به عنهم الا بتلك الميزة التي تنجم عن طبيعة تلك المهنة الانسانية النادرة . لذلك فمن واجب الاديب الذي ينظر الى البشر نظرة كبرياء ، ان يكون منطقيا للنهاية ولا يعرض انتاجه الى محكمة الشعب الذي يحتقره . ان مناقضة شعور مسؤولية الكاتب امام الناس لرغبته في ان يكون مخلصا لنفسه تعني في الواقع مناقضة نفسه الناس. ان المسؤولية عبء ، وليس هذا العبء بقليل . ولكني كاديب لم اشعر يوما برغبة ماحة في التخلص من هذا العبء ، كما لم اشعر برغبة في آن أكون لا مسؤولا اسرح في العالم الادبي ككرة فارغة . صحيح ان عبء المسؤولية يسبب التعب الروحي ، لكن عبء عدم المسؤولية يعني للاديب الموت الروحي » . ثم تطرق الى مبدأ الالتزام فقال: من واجب الاديب ان يسير على الارض بخطوات ثابتة ثقيلة يشعر بكل ما في جاذبية الارض من قوة وبهجة ، ومن واجبه ان يشعر انه جزء من الشعب لا يتجزأ . واذا كان يحلو للبعض ان يسموا ذلك التزاما فانا لا اجد سببا لاخجل من هذه الكلمة . اني ارفض الادب الخالي من المسؤولية، ومن انصار الادب الملتزم لمقتضيات الشعب الحيوية ولمقتضيات البشر . وانا لا اجد أي تناقض بين الشعور بالمسؤولية وكرامة الاديب .

* * *

هذا ما نشرته الصحف السوفياتية عن اعمال مؤتمر لنينغراد . وقد حدثت مناقشات وتبودلت اراء كثيرة في هذا المؤتمر بين الادباء امثال نتالي ساروت وسارتر من فرنسا وانغوس ولسن وجون ليمان من انكلترا وهنس رهيتر من المانيا الغربية وسواهم ممن لم تورد الصحافة السوفياتية كلماتهم .

تعليق غربي ...

هذا وقد وقع اعضاء المؤتمر على ميثاق وقف التجارب النووية ، ولكن وقف تلك التجارب لن يؤدي الى وقف التجارب الروائية، على حد قول برنارد بنغو (١) الذي حضر المؤتمر .. والذي علق على انعقاده بقوله :

« كانت السلطات السوفياتية قد قررت ، بدافع من الحكمة ، على ان تجري المناقشات بطريقة سرية، ولكن بينما كانت جريدة « البرافدا » تنشر النصوص الكاملة لخطب أشهر الروائيين الروس (فيدين ، شولوخوف، ليونوف ، سيمونوف) كانت تكتفي بالاشارة الى أسماء الخطباء الغربيين ، بحيث أخذنا الشعور اولا باننا وقعنا في شرك .. لقد كان بوسع فيدين ، السكرتير الاول لاتحاد الكتاب السوفيات ، ان يؤكد بهدوء احتقاره لبروست وجويس وكافكا ويقول : « لقد سمعت باسم كافكا عام ١٩٢٤ ، ولكني لم أشعر قط بالحاجة الى قراءته، وكان بروست قد ترجم في الاتحاد السوفياتي ، فنحن اذن متحررون ، ولكنه لم يلق أي نجاح ، فهو اذن كاتب رديء .. » وكان بوسع ليونوف ان يلقي الحرم على الروايات الغربية ويصفها بانها مجموعات داعرة فاسقة ويقول : « ان حريات الغرب لا تجدي الا للاستهزاء بالمستقبل .. وان الغرب هو سدوم » — كان بوسعهما ان يقولا ذلك ، لانه لم يكن ثمة من يسمع أجوبتنا ... فما الذي كان يجديه، في تلك الظروف، حضور غيدو بيوفاني، وانغوس ويلسون وناتالي ساروت وسيمون دو بوفوار وجان بول سارتر والان روب غرييه وروجيه كايوا وهانس

— البقية على الصفحة ٦٦ —

(١) عقد سارتر مؤتمرا صحفيا اثنى في خلاله على اثار الجيل الجديد من الكتاب السوفيات ولا سيما على قصة « بيت ماتريونا » لالكسندر سولجانتسين ، قصة نشرتها مؤخرا مجلة « ليتان مودرن » في فرنسا واستقبلها النقاد السوفيات الرسميون بكثير من التحفظ.

(١) راجع مجلة « الاكسبريس » الفرنسية عدد ٦٣٦ .

فصل من «مشكلة الحب»

ايروس (أو العشق)

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

لو تصفحنا أي كتاب عادي من كتب الحب، لوجدنا أن كلمة «ايروس» تستعمل عادة للاشارة الى الحب الجسدي ، في حين جرت العادة باستخدام كلمة «أجابيه» Agapé للاشارة الى الحب الروحي (١) . والاصل في هذا الاستعمال أن اليونانيين كانوا يجمعون بين « ايروس » اله الحب ، و « ديونسيوس » اله الخمر ، فكانوا يسرفون في الحب والشراب ، وكانوا يتخذون من الحب مطية الى الاستمتاع بمباهج الحب (٢) . ومن هنا فقد أصبح « الايروس » لفظا جنسيا يشير الى معاني العشق الحسي العنيف ، بدليل أن أصحاب علم النفس أصبحوا يستخدمون مشتقات هذا اللفظ للاشارة الى معان جنسية صرفة . ولما كان العرب قد خصصوا لفظ « العشق » للاشارة الى « مجاوزة الحد في المحبة » ، فقد آثرنا أن نسمي هذا النمط العنيف من الحب (أو الهوى) باسم « العشق » . ولكننا سنرى فيما بعد كيف استطاع أفلاطون أن يخلع على « الايروس » صبغة فلسفية، لكي يجعل منه أداة ناجعة لخدمة الحياة الروحية . وربما كان هذا هو السبب في تسمية الناس للحب السامي باسم « الحب الافلاطوني » ، ولو أن أفلاطون لم يتعرض لمسألة « العفة » في الحب ، بل هو قد انصرف بالاحرى الى تحديد مراحل « الجدل الصاعد » الذي يتنقل عبره الحب حتى يصل الى مثال الجمال أو « الجمال بالذات » .

ونحن نجد أن فدروس — أول المتحدثين في محاورة أفلاطون المسماة ((**بالمأدبة**)) (٣) — يسلم مع هزيود وغيره من الشعراء بأن ايروس اله عظيم من أقدم الالهة ، وأنه لم ينحدر عن أم ولا أب . وعندما ينهض أجاثون للكلام، نراه ينكر قدم هذا الاله ، لكي يؤكد أنه أصغر الالهة وأحدثها ، وان كان أجملها وأقدرها على هدايتنا . ثم يجيء دور سقراط في الحديث ، فنراه ينكر تماما ألوهية ايروس ، لكي يجعل منه مجرد مساعد قدير أو موجه حكيم يستطيع ان يقتادنا الى الجمال الازلي المطلق .

وحجة سقراط في انكار الالوهية على ايروس أن الالهة تمتاز بصفتي السعادة والجمال ، في حين أن ايروس لا يتمتع بأية صفة من هاتين الصفتين. والواقع أن الحب في نظر سقراط انما هو ضرب من الشوق أو الرغبة في شيء يعدمه المرء ، ولما كانت الرغبة انما تعني الحاجة أو الافتقار ، فان الايروس يسعى نحو امتلاك الجميل، دون أن يكون هو نفسه جميلا . وان سقراط ليشرح هذا المعنى في حديثه الطويل ، فيقول انه ما من أحد يشتهي ما هو حاصل له : لان القوي لا يشتهي أن يكون قويا ، والغني لا يشتهي أن يكون غنيا ... الخ. وما دام من العبث أن يطلب المرء ما هو مالك له ، فان الانسان حين يشتهي شيئا يملكه ، انما يشتهي في الحقيقة استمرار حالة الامتلاك . والحب بهذا المعنى انما هو اشتهاء صادر عن الحرمان ، لان المحب يرغب في امتلاك موضوع بعيد عنه أو غير حاصل له . ولا بد للشيء الذي يشتهي شيئا اخر ان يكون مغايرا له ، فالايروس مثلا حين يشتاق الى الجميل ، انما يشتاق الى شيء هو غير مالك له ، والا لما رغب في الحصول عليه . ولهذا ينكر سقراط وصف أجاثون للايروس بأنه جميل ، ويقرر انه ما دام الايروس يطلب الجمال ويسعى نحو امتلاكه، فانه ليس في وسعنا أن نضفي عليه صفة الجمال . هذا الى أن « الخيِّر » — في رأي سقراط — هو في الوقت نفسه « الجميل » ، فاذا كان الايروس يفتقر الى الجمال ، فهو يفتقر بالتالي الى الخير أيضا ، ما دام كل جميل خيِّرا، والعكس بالعكس .

ولكن ، اذا كان سقراط قد أنكر الالوهية على ايروس ، فهل يكون معنى هذا ان «الحب» بائد قد كتب عليه الفناء ؟ هذا ما يجيب عليه سقراط بقوله ان الحب جنّي عظيم أو روح كبير يحتل منزلة وسطى بين الالهة والبشر ، فهو ليس خالدا ولا فانيا ، وهو ليس حكيما ولا جاهلا ، وهو ليس خيرا ولا شريرا ، وهو ليس جميلا ولا قبيحا ، وانما هو في مرتبة وسط بين الخلود والفناء، بين الحكمة والجهل ، بين الخير والشر ، بين الجمال والقبح. وهنا يلجأ سقراط الى اصطناع الاسطورة، فيروي لنا تاريخ ميلاد ايروس ، ويقرر أن ذلك قد تم ليلة مولد أفروديت . وخلاصة هذه الاسطورة أن الالهة قد شاءت أن تحتفل بميلاد أفروديت ، فأقامت وليمة كبرى كان من بين الذين حضروها بوروس Poros (أو الغنى) . وبعد العشاء ، رأت بنيا Penia (أو الحاجة) تلك المأدبة ، فجاءت تستجدي ، ووقفت الى جوار الباب . وكان بوروس قد سكر لفرط ما شرب من الرحيق ، فخرج الى حديقة زيوس ، وغط في نوم عميق ! ولمحته بنيا فشاءت أن ترزق منه ، مدفوعة الى ذلك بما كانت عليه من فقر وعوز . ومن هنا فقد رقدت بنيا الى جوار بوروس ، ونشأ من تزاوجهما ايروس ! ونظرا لان عملية حبل بنيا قد تمت ليلة مولد أفروديت

---

(١) Cf. Morton M. Hunt : « The Natural History of Love » , London , 1962 , p. 19.

(٢) د. أحمد فؤاد الاهواني : «أفلاطون» (مجموعة نوابغ الفكر الغربي) دار المعارف ، ١٩٥٨ ، ص ٥٥ .

(٣) « المأدبة » Le Banquet (كما نعلم) هي احدى المحاورات الهامة التي عالج فيها أفلاطون موضوع الحب والجمال .

نفسها ، فقد نشأ ايروس محبا للجمال ، حتى انه لم يلبث أن أصبح خادما لافروديت ورفيقا لها . ونظرا لان ايروس قد كان ثمرة لتزاوج الغنى والفقر ، أو الثراء والحاجة ، فقد ورث عن أمه بنيا الفقر والجهل والضعة ، كما ورث عن أبيه بوروس الغنى والحكمة والشجاعة (٤).

بيد أن ايروس مع ذلك ليس حكيما، وانما هو فيلسوف أو محب للحكمة ، بمعنى أنه يحتل منزلة وسطا بين الحكمة والجهل . وليس من شك في أن الذي يعلم هو في غير ما حاجة الى البحث ، فان البحث يفترض الجهل مع الرغبة في المعرفة . ولما كان الالهة حكماء، فانهم لا يتفلسفون ، اذ لا حاجة بهم الى البحث عن الحكمة. وكذلك الجاهل ، فانه يحسن الظن بنفسه ، ومن ثم فانه لا يتطلب الحكمة . وانما يتفلسف ذلك الذي يشعر بالحاجة الى الحكمة ، أعني ذلك الذي يحس بجهله، مع ميله في الوقت نفسه الى كل ما هو جميل وخيِّر. ولما كانت طبيعة ايروس تجمع بين الجهل والحكمة، فقد تعين ان يكون الحب فيلسوفا أو محبا للحكمة. وبيت القصيد في كل حديث سقراط هو أن ايروس ليس **بالمحبوب** بل هو **المحب** . والخطأ الذي وقع فيه الواهمون بأن ايروس هو المحبوب ، أنهم قد اعتبروه جميلا غاية الجمال ، في حين أن ايروس ليس سوى « المحب » ، بينما المحبوب في الحقيقة هو الجمال المطلق ، والكمال الاسمى ، والخير الاقصى . وبهذا المعنى تكون طبيعة الحب ثنائية : لان الحب من ناحية حاجة وعوز وافتقار، ثم هو من ناحية اخرى نزوع نحو الخير والجمال والكمال. ومن الناحية الاولى ينتسب الحب الى عالم الظلال ، في حين أنه من الناحية الثانية يندرج في معراج « العالم المعقول » أو الملأ الاعلى . وهنا يظهر الطابع الخاص المميز « للايروس » بوصفه على النقيض تماما من « الاجابيه » : فان الايروس بطبيعته افتقار أو « عدم امتلاك » يحن الى الامتلاء أو الامتلاك . واحساس الايروس بالحاجة انما هو الباعث الذي يهب الديناميكية لرغبته أو اشتياقه. ولعل هذا ما عبر عنه الفيلسوف الالماني زمِّل Simmel حينما كتب يقول : « ان الايروس اليوناني هو ارادة امتلاك ، حتى حين يستخدم الحب للاشارة الى معنى أسمى ، الا وهو الرغبة في امتلاك الشخص المحبوب كموضوع للتعليم المثالي ، والتهذيب الاخلاقي ، والتربية الثقافية . وهذا هو السبب في أن الحب عند اليونان انما هو حالة متوسطة بين الامتلاك وعدم الامتلاك ، وأنه بالتالي لا بد من أن يموت حينما يكون هدفه قد تحقق » (٥).

ويمضي أفلاطون في حديثه عن الحب فيقول أنه لما كان كل من يرغب ، انما يرغب فيما هو محروم منه، أو يشتهي ما هو مفتقر اليه ، فقد ترتب على ذلك الا يكون هناك « حب » بالنسبة الى الالهة ، ما دامت الالهة لا تفتقر الى شيء ، ولا ترغب في شيء ! ومعنى هذا أن الآلهة ليست في حاجة الى حب الناس لها ، ما دامت الالهة غارقة في سعادتها وكمالها . واذا كان لنا أن نستخدم لفظ « ايروس » للاشارة الى الحب الالهي ، فلا بد لنا من أن نتذكر أن هذا الحب هو بأكمله من جانب الانسان، دون ان يكون في وسع الله ان يبادل الانسان حبا بحب! ومن هنا فان « الحب الالهي » حينما يتخذ النمط « الايروسي » انما يصبح بمثابة سبيل يقتاد الى الله ، دون أن يكون هناك بأي حال من الاحوال أي هبوط أو نزول من جانب الله نحو الانسان . وليس بدعا ان يكون الانسان هو المحب دائما ، وان يكون الله هو المحبوب دائما : فان الله (كما قلنا) متمتع منذ البداية بأقصى حد من الكمال والسعادة ، في حين أن الانسان لا يمتلك شيئا منهما ، ومن ثم فان موضوع حبه هو السعادة . والحق أننا لو تساءلنا : « ماذا يحب العاشق في الشيء الجميل الذي يعشقه ؟ » ، لكان الجواب حتما « انه بلا ريب يحب امتلاك هذا الشيء الجميل » . فاذا عاودنا السؤال: « ماذا ينفع امتلاك الاشياء الجميلة ، أو ما الفائدة التي تعود علينا من وراء امتلاك الاشياء الطيبة ؟ » ، كان الرد بلا شك : « أن الانسان يحب امتلاك الجمال أو الخير، لان من يمتلك الخير لا بد من أن يظفر بالسعادة » . وهنا قد يكون من العبث أن نتساءل لماذا يطلب الانسان السعادة، اذ أن الاجابة عن هذا التساؤل متضمنة في صميم السؤال نفسه (٦) .

ولكن ، اذا كان البشر قاطبة يتطلبون السعادة، ويريدون الظفر بالخير أو الحصول على الجمال ، فلماذا لا نقول انهم جميعا « محبون » ، ما دام حب الخير أو الشوق الى الجمال مشتركا بينهم ؟ لماذا نقول عن البعض انهم « يحبون » ، بينما نقول عن البعض الاخر انهم لا يعرفون الحب ؟ هذا ما يجيب عليه أفلاطون بقوله : اننا اعتدنا أن نطلق اسم « الحب » على نوع خاص منه، بينما أصبحنا نسمي غيره من الانواع بأسماء أخرى . والحال بالنسبة الى كلمة « الحب » كالحال بالنسبة الى الكلمة اليونانية « poiesis » التي أصبحنا نستخدمها للاشارة الى فن الشعر ، في حين انها كانت تعني في الاصل أي ضرب من ضروب « الابداع الفني » ، سواء أكان تصويرا أم نحتا أم موسيقى أم غير ذلك .. ومن هنا فاننا لم نعد نسمي جميع الفنانين باسم الشعراء ، بل أصبحنا نقصر لفظ « الشاعر » على من يزاول فن النظم والايقاع الموسيقي. وهكذا الحال أيضا بالنسبة الى « الحب » : فان المعنى العام لهذه الكلمة هو الرغبة المطلقة في الخير أو النزوع نحو السعادة . ولكننا لا نقول عن كل من يلتمس هذه الغاية شتى الوسائل ، سواء أكان رجل أعمال أو لاعبا رياضيا أو محبا للمعرفة ، انه عاشق أو محب، وانما نحن نقصر استعمال هذا اللفظ على طائفة معينة من الناس تسلك طريقا خاصا في الحب ، وتمارسه بجد وانكباب، وتلك هي طائفة « العشاق » أو « المحبين » بالمعنى الخاص لهذه الكلمة .

فهل نقول مع الشاعر اليوناني أرستوفان ان المحبين قوم يبحثون عن نصفهم الاخر ؟ هل نسلم معه بأن كل واحد منا هو نصف ناقص لواحد كامل قد فصل عنه ، وأن غاية كل منا انما هي البحث عن نصفه الاخر من اجل الاتحاد به؟ هذا ما يجيب عليه سقراط بالنفي ، فان الحب في رأيه

(٤) Platon : « Le Banquet » , 203. (وانظر أيضا كتاب ليون روبان عن الحب الافلاطوني :
Léon Robin : « La théorie platonicienne de l'amour » 1908, pp. 48 - 52.

(٥) Cf. M.C.D'Arcy : « The Mind and Heart of Love » . N-Y, 1956, p. 71.

(٦) Platon « Le Banquet », 204.E. وانظر أيضا ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الاهواني لهذا النص في كتابه « أفلاطون » (مجموعة نوابغ الفكر الغربي) ، النصوص المختارة ، ص ١٧٧ .

لا يبحث عن النصف أو الكل ، اللهم الا اذا كان هذا النصف أو الكل طيبا أو خيرا بوجه ما من الوجوه. وآية ذلك ان الناس يرتضون أن تقطع أيديهم أو أرجلهم اذا اعتقدوا أنها أعضاء فاسدة . وهم اذا كانوا يتمسكون بما يملكون ، فليس ذلك لمجرد أنه ملك خاص لهم ، بل لانهم يعتبرون ان الشيء الخير ملتصق بطبيعتهم مملوك لهم، في حين أن الشيء السيء غريب عنهم طارىء عليهم . وتبعا لذلك فان الناس لا يحبون الا الخير ، أو ما يعتقدون هم أن فيه خيرا لهم . وهم يحبون أيضا ان يكون الخير ملكا لهم ، وأن يكون امتلاكهم له على الدوام . واذن فان الحب – على حد تعبير سقراط – هو الرغبة في اقتناء الخير بصفة مستديمة ، أو هو النزوع نحو امتلاك الجميل امتلاكا أبديا خالدا (٧) .

ويعود سقراط فيعرِّف الحب بأنه **« ولادة في الجميل بدنا وروحا »** . وكل انسان منا (في رأيه) قدير على التناسل جسميا وروحيا ، لانه يستطيع أن ينجب نسلا ، كما يستطيع أيضا أن ينجب نسلا ، كما يستطيع أيضا أن يبدع عملا . وحينما يصل المرء الى سن معينة، فان طبيعته تدفعه الى اشباع غريزة التناسل . ولكنه لا يستطيع أن يشبع هذه الغريزة عن طريق الاتصال بالدميم أو القبيح ، بل هو مضطر الى اشباعها عن طريق الاتصال بالجميل أو المليح . وعلى الرغم من ان الحبل فعل انساني صرف يتم بتلاقي الرجل والمرأة ، الا أن عملية التكاثر لدى الانسان تتسم بطابع مقدس أو صبغة الهية . فالحمل والوضع لدى الموجود البشري عملان فانيان ، ولكن التكاثر (على العكس) عمل خالد عليه مسحة من الابدية . وليس هناك أي تناسب بين القبح والالوهية، فلا غرو أن يكون الجمال باعثا على التكاثر (الذي هو عمل الهي مقدس) . ومعنى هذا – بعبارة أخرى – أن الجمال هو الاله الذي يتحكم في مصير الحب، والتناسل، وتخليد النوع البشري . وحينما يدنو الموجود المليء بمادة التلقيح من الموجود الجميل ، فانه يمتلىء سرورا ويفيض لذة ، ومن ثم فانه يشرع في التلقيح ، وينجح في اخصاب شريكه . وأما حين يدنو من الموجود الدميم ، فانه ينقبض حزنا ، ويقبض بالتالي مادة اللقاح عن الموجود القبيح، فلا تتحقق عملية الاخصاب . وأما الشخص المخصب المليء بمادة اللقاح ، فانه يكاد يفيض أو يطفح من شدة الرغبة ، ومن ثم فان اندفاعه نحو الجميل يكون عنيفا عارما، خصوصا وأنه يستشعر ألما شديدا حين يمتنع عن اشباع رغبته في التناسل . وهكذا يصحح سقراط مرة أخرى من تعريفه للحب ، فيقول انه ليس على وجه الدقة مجرد شوق الى الجمال ، بل هو نزوع نحو التكاثر أو رغبة في التناسل تثور في النفس تحت تأثير مشاهدة الجميل.

واذا كان الانسان أحرص ما يكون على التناسل ، فذلك لأن تكاثر النوع هو الذي يكسبنا خلودا أو بقاء في هذه الحياة الدنيا الفانية . ومن هنا فقد يكون في وسعنا أن نقول أن الحب ليس مجرد شوق الى الخير ، أو رغبة في اقتنائه ، بل هو تطلب لاستمرار هذا الخير ، ورغبة في تملكه بصفة مستديمة . وشوقنا الى الدوام او الخلود قد لا يقل عن شوقنا الى الكمال او الخير. واذن فان الحب « شوق الى الخلود » . ولو أننا تساءلنا عن الاصل في هذا الشوق أو العلة في هذه الرغبة ، لوجدنا أن ثمة غريزة تدفع بالكائن الحي عموما الى العمل على استمرار بقائه، والمحافظة على نوعه . فنحن نشاهد مثلا لدى الطيور والحيوانات أنها تحاول اولا ان تشبع غريزتها الجنسية، ولكنها ما تكاد تلد صغارها ، حتى تشرع في العمل على توفير الغذاء لنسلها الجديد بكل صبر وجهاد ومشقة. وقد لا يتردد الحيوان في محاربة غيره – ضعيفا كان أم قويا – من أجل الحصول على القوت الضروري لصغاره ، حتى انه قد يتحمل مرارة الجوع أو الحرمان هو نفسه في سبيل اشباع نسله ، أو قد يؤثر الفناء على ترك صغاره فريسة للجوع. وانما يفعل الحيوان كل هذا تحت تأثير غريزة المحافظة على البقاء : فان الطبيعة الفانية تسعى – بقدر الامكان – نحو الخلود ، وهي تصطنع أساليب متنوعة في سبيل العمل على استمرار بقاء النوع . ولما كان الموجود الفاني يحاول جاهدا بلوغ حالة الخلود، فليس بدعا أن نراه يقبل على التناسل ، لكي يضمن عن طريقه ظهور جيل جديد يحل دائما محل الجيل القديم ! وهذا أيضا ما يفعله السواد الاعظم من الناس ، فانهم يحبون ويتزاوجون وينجبون أطفالا ، حتى يضمنوا لانفسهم ضربا من الاستمرار أو الخلود عن طريق أبنائهم وأحفادهم من بعدهم .

أما اذا قيل ان حب المجد هو الدافع الاكبر الذي يحدو الكثيرين الى القيام بجلائل الاعمال ، كان رد أفلاطون أن الرغبة في الخلود وبقاء الذكر انما تكمن أيضا من وراء شتى أعمال البطولة . فكل أبطال اليونان الذين سجل التاريخ أسماءهم لم يقدموا على أعمالهم الجايلة الا تحت تأثير حبهم للخلود، ورغبتهم في بقاء الذكر . وكما ان العامة من الناس انما ينشدون الخلود عن طريق « التناسل البدني » (اذ ينجبون من الابناء ما يضمن لهم الخلود)، فان المتازين من المواطنين انما ينشدون الخلود عن طريق «التناسل الروحي» – من شعراء وفنانين ومحبي حكمة – يضمنون لانفسهم الخلود عن طريق ما يذيعون بين الناس من حكمة وفضيلة . وربما كانت أسمى صورة من صور الحكمة تلك التي تنتظم بها حياة الاسر ، ويستقيم بها نظام المجتمع ، أعني الاعتدال والعدل . ولا نزاع في ان « التناسل الروحي » أسمى بكثير من «التناسل الجسمي»، فقد بقيت أسماء هوميروس وهزيود وصولون وغيرهم خالدة في سجل التاريخ ، بسبب ما حققوه من اعمال رائعة وفضائل جميلة أملاها عليهم خصبهم الروحي ، فشيدت لهم المعابد ، وأقيمت النصب لنسلهم الروحي ، بينما بقي نسلهم الادمي خامل الذكر . . .

من هذا يتبين لنا أن للحب في نظر أفلاطون اتجاهين مختلفين : اتجاها زمانيا أفقيا تعبر عنه الرغبة في توليد الاجسام لخدمة المجتمع ، واتجاها أبديا رأسيا تعبر عنه الرغبة في توليد الارواح من أجل التسامي بها نحو الله . واذا كانت أفروديت الارضية (أو الشعبية) هي التي تهتم بالتناسل أو تخليد النسل ، فان افروديت السماوية (او الالهية) هي التي تأخذ بيدنا من اجل مساعدتنا على التفلسف . وليست الصلة معدومة تماما بين هذين الاتجاهين المختلفين للحب ، فان الايروس كما رأينا ينزع نحو الخلود في كلتا الحالتين ، سواء أكان غرضه التناسل أم التصاعد . هذا الى أن عمل الفيلسوف الذي

– تتمة المنشور على الصفحة ١٠ –

(٧) Platon : « Le Banquet » , 206. (وانظر أيضا «افلاطون» للدكتور أحمد فؤاد الاهواني ، ص ١٨١ – ١٨٢) .

المسرح العربي والسينما

بقلم الدكتور محمد يوسف نجم

المسرح وفنه مستحضر دخيل عرفناه في نهضتنا الثقافية الحديثة على أثر احتكاكنا بالحضارة الغربية. وظهر في المراكز الرئيسية لهذه النهضة – اعني لبنان وسورية ومصر – في أوقات تكاد تكون متقاربة . عرفه لبنان قبل أي قطر عربي اخر حين شمر احد ابناء الاسر المرموقة فيه ، اعني مارون النقاش ، عن ساعد الجد ، واقتبس اساليبه ووسائله كما خبرها في رحلاته الى الغرب ، وبذر بذورها في لبنان فأزاح الستار عن اول مسرحية عربية ، في تاريخنا الفني سنة ١٨٤٧ . واستمر في نشاطه هذا يصلح من اساليبه ويحسن في وسائله حتى احتضر سنة ١٨٥٥ ، فتوقفت الدفقة الفنية الاولى في لبنان وتسرب منها قطرات الى اخيه وابن اخيه، تحولت بعد عقدين من السنين الى نهر هادر يجري على ارض الكنانة الخصبة المعطاء ، فينثر الورود والازهار على ضفتي الوادي ، فترة تمطت وامتدت وما نزال نتفيأ ظلالها حتى يومنا هذا . وفي أزقة سورية القرن التاسع عشر ، وفي احد خاناتها قام شيخ معمم ، تعشق الموسيقى والغناء منذ الصغر ، وسمع بالتشخيص والمشخصين في بيروت ، على مرمى حجر كما يقولون ، فتقدم سنة ١٨٦٥ ينسف التقاليد ويجتثها من اصولها وينشىء للدمشقيين مسرحا عربيا ناصعا يشاهدون على خشبته قصص الف ليلة وليلة وعنترة وهارون الرشيد وابي زيد، يقصها عليهم احياء من بني جنسهم ، باشاراتهم وحركاتهم وأفعالهم، لا بأقوالهم فقط كما كان يفعل الشاعر الشعبي. وفي مصر ، قام يهودي متمصر هو يعقوب صنوع شملته حركة جمال الدين الافغاني فيمن شملت من المكافحين على اختلاف مللهم ونحلهم ، يعرض على المصريين مخازي اسماعيل ومساوىء الحكم المطلق ومضار العادات الفاسدة والاخلاق الرجعية الضيقة . واستمر صنوع في حمل هذه الرسالة التي اوحى بها جمال الدين ، منذ سنة ١٨٧٠ حتى اغلق اسماعيل مسرحه وشرده سنة ١٨٧٢.

وفي مصر ، التقى فرع من لبنان ، أمها سنة ١٨٧٦ وفرع من دمشق امها سنة ١٨٨٤ ، فكونا ذلك النهر العظيم الذي اخرج لنا اعظم الفرق شهرة ونشاطا كفرقة الخياط والقرداحي واسكندر فرح وسلامة حجازي وسواهم . مضى طور النشأة ، وطور المدرسة اللبنانية السورية المتمصرة ، وتمخض النشاط التمثيلي في القرن التاسع عشر عن شيخ الممثلين واستاذهم الاعظم جورج ابيض . حمل ابيض الرسالة منذ سنة ١٩١٢ وتخرج على يديه كبار ممثلي الجيل السابق وجيلنا هذا . تلمذوا عليه ممثلين في فرقته او مشاهدين لمسرحيته او متأثرين بروحه روح الفنان الاصيل الذي اوتي الموهبة وتعهدها بالصقل والدراسة في فرنسا ، فكان اول ممثل عربي اغترف الفن من منابعه الصافية . ولذا يحق لمؤرخ المسرح العربي ان يعد جورج ابيض راس هذه الحقبة المسرحية التي انتجت عبد الرحمن رشدي ومحمد تيمور ويوسف وهبي وفاطمة رشدي وروز اليوسف والفرقة القومية وفرقة المسرح الحديث ، والمسرح القومي.

كان المسرح في طوره الاول حتى سنة ١٩١٢ وفي طوره الثاني حتى مطالع العقد الرابع من هذا القرن التسلية الوحيدة التي يرتادها طلاب المتعة واللهو في مصر . ولذا كان ناشطا مزدهرا من الناحية المادية ، وقد شجع هذا الازدهار أصحابه وذويه على الانفاق عليه بسخاء . فالشيخ سلامه حجازي يستحضر الفنيين من اوروبة ليشرفوا على اعداد المسرح واخراج المسرحيات ، والطامحون من ذوي اليسار ، كيوسف وهبي ، يسافرون الى اوروبة لتلقي اصول هذا الفن ، كما فعل استاذهم الاكبر جورج ابيض، والفرق الجديدة ، والوجوه الجديدة تظهر في كل يوم . والمؤلف يتقاضى على مسرحيته مائة جنيه او مائتين – هذا قبل ثلث قرن واكثر – والمسارح تشرق بالاضاءة الحديثة، الاضاءة الكهربائية . والصحف والمجلات تنشط في النقد والاعلان والامراء والوزراء يحرصون على حضور حفلات الافتتاح . ذاك عهد مضى ، وتبعه عهد اسود ، زاحمت فيه السينما المسرح بالمناكب ، واجلته عن مكانته الممتازة في النفوس ، مكانة الابن الوحيد في نفوس ذويه. فاستطاعت ان تزعزع اركانه بتلك الاشباح تحركها على الستارة الفضية صامته في أول الامر ، مغنية مازحة ضاحكة عندما اخذ الصوت سبيله الى كواليس السينما. فماذا حدث .

بدأت الازمات والنكسات . يوسف وهبي يرهن مسرحه واثاث مسرحه وفرقة فاطمة رشدي تمثل بستائر ممزقة ، ترى منها نجوم السماء ، قبل ان ترى امامها نجوم المسرح ، والحكومة تهب لانقاذ المسرح ، فتؤلف الفرقة القومية سنة ١٩٣٦ ، فتزيد الطين بلة وتكون ضغثا على ابالة . تضم فلول الفرق القديمة ، وتقنع الفنيين والممثلين بهذه الوظيفة الحكومية التي كانت الاولى من نوعها في مصر . ويهب النقاد لاصلاح المسرح ، ويلفتون النظر الى روائع المسرح العالمي فتترجم بلغة جافة تقرع اذان القوم بمثل الجنادل ، لتنقل اليها احداثا مستهجنة وشخصيات غريبة ، وعواطف مستوردة ، فينفر الجمهور، وان كان مع وجود السينما لا يحتاج الى ما ينفره من المسرح ، وينفض السامر وتطفأ الانوار في كل ليلة على خيبة تتلوها خيبة ، واخفاق يجر وراءه اخفاقا . وتتكرر محاولات الحكومة للاصلاح ويتكرر الاخفاق حتى كانت الثورة .

كانت الثورة ثورة على كل قديم مهترىء في الحياة المصرية ، سياستها واقتصادها واجتماعها وادبها وفنها . وتبذل الجهود للنهوض بالمسرح ، على ان هذا الداء العياء،

والمرض العضال لا يكفي للبرء منه ثماني سنوات ، بل يحتاج الى جيل جديد ، له مثل جديدة ، ومعتقدات جديدة، هو جيل ابناء الثورة . ونحن على الرغم من تفاؤلنا بما وصل اليه المسرح المصري بعد الثورة من تقدم في ادبه وفنه، نرى ان هذه الفترة هي فترة انتقال في الفن المسرحي كما هي في السياسة وما يتبعها . وعندما ننتهي من عقابيل الملكية وننعم في صحة الجمهورية سيكون للمسرح شأن آخر .

اما السينما ، خصم المسرح الذي سلبه المقعد الذي كان يتربع عليه جمهوره هانئا مسرورا ، فقد استطاعت بمقوماتها المادية وبمحتواها المتنوع المسلي ان تثب وثبات سريعة ، على انها ما تزال تعاني من القصص الهزيلة والتمثيل المفتعل المتكلف ومن الغناء والرقص والنكتة التي يزجبها في المشاهد مهما كانت نابية في مكانها قلقة في موضوعها . وقد بلغ معدل النتاج السينمائي في مصر في السنوات الست الاخيرة سبعين فيلما . وهذا عدد ضخم لو استطعنا استغلاله فنيا وقوميا لاتي اطيب الثمار ولكن كيف ؟

تتلخص ازمة المسرح والسينما في العالم العربي اليوم في نواحي الضعف التالية :

١ ـ ضعف القصة بوجه عام واعتماد اكثر المؤلفين على القصص الاجنبي يمسخونه ويشوهونه لكي يرضي ذوق الجمهور . وفي اكثر الاحيان لا يتنازل المؤلف الى ان يدلنا على مصدر سرقته .

٢ ـ ضعف الممثلين بشكل عام ، وتمسكهم بطريقة الاداء الرومنتيكي القائم على الافتعال والتكلف وكثرة الاشارات والصراخ والعويل والمبالغة في العاطفية . أضف الى ذلك قلة الوجوه الجديدة ، وجعل المحك في اختيارها جمال الهيئة والرشاقة وجمال الصوت لا الموهبة والقدرة على التعبير .

٣ ـ عدم التخصص في الفنون الاعدادية . فالممثل قد يصبح مخرجا وكذلك المصور . وهنالك من يقوم بالتأليف والاخراج والتمثيل والتلحين ـ احيانا .

٤ ـ ضعف الاستعدادات في المسارح وفي استديوهات السينما . اكثر المناظر بالية ، تستعمل لاكثر المسرحيات ، مهما اختلف موضوعها وتاريخ حوادثها . وأدوات تسجيل الاصوات والتصوير من النوع القديم الذي لفظته السينما في امريكا وفي الغرب.

٥ ـ نوعية الجمهور : والجمهور هو مصب التهم عند النقاد والفنيين كلما اخفق مؤلف او مخرج او ممثل اتهم الجمهور . وانا على مثل اليقين ان جمهورنا العربي في غالبيته ، لا يتجافى عن العمل الفني الصحيح بل انه يتقبله ويقبل عليه اذا كان صادقا في تصويره للحياة، امينا فيما يكشف عنه من مشاعر ، انسانيا فيما يعالجه من مشكلات ، رائعا فيما يصطنعه من اسلوب للتعبير عن ذلك كله . اما الكذب والتزييف والافتعال والالحاح على الاعصاب والعواطف بالمواعظ الصريحة والحوادث العنيفة ، والالتواء في عرض ذلك كله ، فمن شأنه ان ينفر ذوي الفطر السليمة ، بل اصحاب الاذواق المثقفة الصقيلة. فعلينا اذن ان نتبين حقيقة هذا الفن الذي نقدمه للجمهور وطبيعة الحواجز التي تقف بيننا وبينه كحواجز اللغة والضرب في افاق الرمز والتعمية ورفع اسعار الدخول. وعلينا قبل ان نتهم الجمهور ان نعده للارتفاع والنهوض بتدريب ذوقه ، وان ننشئه تنشئة فنية صحيحة ، تأخذه بالرفق واللين والتدرج حتى تستحصد ملكاته وتهذب غرائزه فيصبح اقدر على تذوق الفن الرفيع وتتبع نهضته صعدا .

هذه هي العلل ، وقد بسطتها الى حد يدعو الى التفاؤل ، فما هو العلاج ؟ العلاج فيما يختص بالقصة المسرحية او السينمائية، هي نزول كبار الكتاب الى الميدان، وقد حدث ذلك في المسرح قبل ان يحدث في السينما، على ان الاتجاه الجديد في السينما المصرية يبشر بالخير فيما يختص بالقصة ، فقد عالجها كبار الكتاب امثال طه حسين ونجيب محفوظ فنجحت نجاحا كبيرا واستبان لنقاد الفن ان القصة القوية ترفع العمل السينمائي كله، فالاثر الجليل يقتضي جهودا جليلة لتنهض به.

وفيما يختص بالممثل ، علينا ان نتعهد المواهب الجديدة بالصقل والتدريب والتثقيف . وان تجري على ممثلي المسرح خاصة مكافآت ضخمة تصرفهم عن التشوق الدائم الى العمل في السينما ، فيتركون المسرح كلما لوح لهم مخرج سينمائي بعقد على تمثيل فيلم .

اما المخرجون ، والفنيون ، فيجب ان نهيىء لهم وسائل الدرس والثقافة ، ونرسلهم في بعثات الى الخارج ونتيح لهم العمل في اكبر المسارح والاستديوهات العالمية، ليطلعوا على احدث الاساليب في الاخراج والتنفيذ.

اما المسارح فيجب ان يزاد عددها وان تعمم في القرى والاقاليم والمدارس . وان تخفض رسوم دخولها، وكذلك الامر في السينما . اذكيف نطمع في اداء رسالة فنية او ثقافية أو قومية الى انسان ، ونطلب منه ان يضحي بثمن قوت يومه في سبيل هذه الثقافة . اما في البلاد التي لا توجد فيها مسارح كلبنان ، فعلى الحكومة ان تبادر الى سد هذه الثغرة الاساسية في النهضة وذلك بانشاء المسارح الرسمية في المدن والقرى .

اما الجمهور ، فعفا الله عما سلف ، ولنبدأ من جديد لنبدأ بالمدارس فنجعل الفن ، بجميع فروعه جزءا اساسيا من التعليم وان نشجع التمثيل المدرسي وندرس الاساليب التي تتبعها المدارس الرسمية والخاصة في امريكا واوروبا في نشر الوعي الفني والتمثيلي بين تلاميذها .

واخيرا على الحكومات ان تعتبر المسرح عملية لا تأتي بربح الى حين حتى نربي اذواق الجمهور على الاستمتاع به وتقديره فيصبح ارتياد المسارح عادة ثانية لهم .

هذه صورة قاتمة ، قد توحي للبعض بان المريض قد اشفى ، ولا امل في شفائه . ولكنني ارى الامر من وجه

ـ البقية على الصفحة ٧٣ ـ

قريحة ، يتخذون الباطل منارا ، والفاسدين المفسدين قدوة وإماما، وتلك عبقريتهم وبراعتهم التي لا يبارون فيها ، والتي تشير بوجودهم في الساعة واليوم لا في الغد والزمن ، لان الخلود ليس من العته بمكان حتى يصافح هؤلاء الحمقى آخذا بالمنهج القرآني الذي يتضمن ان الزبد يذهب جفاء ، وأن الذي ينفع الناس يمكث في الارض .

وهذا المنهج القرآني يثلج صدورنا ، ويشيع الطمأنينة في نفوسنا ازاء ادبائنا ونقادنا ومفكرينا الاصلاء الذين لم يعرفوا بأعمالهم قدر ما عرفوا بالاحن والعداوات والبواعث الشخصية التي أفاضها عليهم منتجو الزبد الذين يتخذونها وسيلتهم الى التسلق والترقي.

ولكننا نقول لهؤلاء : اصنعوا ما شئتم .. اصعدوا الى السماء.. أو انزلوا الى الارض في مهاو سحيقة .. شرقوا أو غربوا .. دوروا حول انفسكم حتى تسابقوا سفن الفضاء .. أفعلوا ذلك كله أو بعضه، فانه لن ينفعكم شيئا ، ولن تملكوا به ضرا ولا نفعا ، لاننا نعرفكم بسماتكم واشخاصكم وبواعثكم .. نعرفكم معرفة صحيحة مؤسسة على المنطق الواعي ببواطن الامور ، ولن تأخذوا ممن عرفكم من المثقفين ـ وما أكثرهم ـ تقديرا تباهون به أطفال الحارات والازقة ، في الوقت الذي يتوجه فيه المثقفون بكل تقديرهم واجلالهم وصلواتهم صوب الاصلاء من المفكرين والادباء والنقاد ، يتوجهون صوب الاستاذ :

علي أدهم

« يعرف الناس بعض فضله ، وان ما يعرفونه مع ذلك لكثير ، موسوعة من العلم والادب ، يقوم عليها حارس امين ، حراسته جد ورصانة وايمان ، يشتغل بالتاريخ اشتغال الفيلسوف ، ويشتغل بالفلسفة اشتغال المؤرخ ، ويمزج التاريخ والفلسفة معا بفطنة الاديب، ومن عيوب الشرق ان يعرف من مثله القليل ، ولا يعرف كل ما ينبغي ان يعرف منه ، وعنه، وهو كثير » .

بهذه الكلمات القصار استطاع العقاد (1) ان يرسم شخصية أستاذنا علي أدهم ، وأن يعبر عن شخصيته واعماله الادبية ـ من وجهة نظره ـ في تعبير موح ولكنه أدل على الاستاذ علي أدهم أوضح دلالة وأتمها ، ولا يقف تقدير العقاد عند هذا الحد ، بل انه لينزل على رأي علي أدهم في بعض الاحيان ، وينشر ذلك على الناس في صحيفة الاخبار، وذلك كما حدث في نسب الناقد الالماني « ليسنج » وادعاء يهوديته بالامس القريب .

ونحن ازاء تقدير العقاد للاستاذ علي أدهم لا يسعنا الا أن نقف عند بواعث تقدير العقاد له ، ليتسنى لنا بعد ذلك أن نعرف مدى آثار القبلية النقدية في غمط فضله عن طريق التجاهل والتناسي حينا وعن طريق التغابي في بعض الاحيان .

فلسفة التاريخ :

يقف الاستاذ أدهم في فلسفة التاريخ وقفة مع أبي العلاء المعري حيث يصطحبه في رحلة داخل احساس المعري وعواطفه وفكره ، فيحنو عليه ، ويربت على كتفه قائلا له : لست بدعا يا أبا العلاء في آرائك وانما لك أمثال ونظراء في الفكر الاوروبي الحديث ، وانك لتقدم على عصرك وجيلك تقدما يهيىء لك مقعدا وثيرا مع الخالدين ، وان الذين حاولوا أن يغمطوا حقك يا أبا العلاء قد جرفهم تيار النسيان فأودى بهم الى قاع سحيق حيث أغلق عليهم صفحة من العقاب على ما اقترفوا في حق أبي العلاء حتى جعلوه متشائما متطيرا من الحياة والاحياء جميعا.

وفي هذه الوقفة يرجع بفكره الى المعري في عصره ليعرف هل استمد المعري تطيره من أحوال عصره المضطربة وتشبع به من جوه القاتم؟ أم استمد تطيره من مصدر اخر ؟؟

وفي الاجابة على ذلك يذهب الاستاذ أدهم الى أن ادعاء أن العصر كان السبب في تطير صاحبنا غير مقنع ولا شاف ، لان عصر المعري عصر شك وانحلال وانحدار في مهابط التدهور ، ولكن تشاؤم المعري كان أبعد أعراقا من أن نعزوه الى حالة عصره ، وعبقرية المعري بطبيعتها عبقرية حزينة ، وقد قوى عصره نزعة التطير في نفسه وشحذ يأسه وأكد حنقه على الايام وتصاريفها ، ولكنه لم يخلق هذه النزعة .

ويمضي علي أدهم في تفسير بواعث التشاؤم عند المعري قائلا: « وقد لاحظ أناتول فرانس ان الفلاسفة المتطيرين قد يظهرون في أوقات ازدهار الحضارة وصفاء الجو ، والمسألة قبل كل شيء مسألة مزاج شخصي وطبيعة نفسية قد يزيدها العصر قوة دون أن يوجدها ، وقد يضعفها ويصد تيارها ولكن دون ان يقضي عليها ، وأهم العوامل المكونة لتطير المعري كامنة في نفسه ضاربة في صميم طباعه ، ومردها الى احساسه الفردي ومشاعره الشديدة اليقظة والتنبه !!

على أنه يرى أن أبا العلاء بهذا المزاج وذاك الطبع من الارواح المستوحشة من زهرة الدنيا الناقمة على الوجود والمؤثرة لظلمة العدم وصمت الفناء ، وهو يكره الحياة في الصميم والجوهر فضلا عن الصور والاعراض ولا يشكو عصرا ليمدح اخر ، وانما كل العصور عنده سواسية والناس جميعهم اشرار خساس الطباع ، ليس لكسرهم جبر ، ولا لدائهم دواء يستطب به ، فلا سبيل للامل ولا معنى للحرص على النسل في مثل هذا الوجود الخاسر ، ويرى شوبنهاور أن الحياة في نفسها جريمة نكفر عنها باحتمال الامها ، وفي الوقت نفسه يرى المعري أنها « جناية »

ـ التتمة على الصفحة ٧٤ ـ

(1) اننا نقف عند رأي العقاد دائما لسببين : أحدهما أن العقاد في تقديره للادباء والمفكرين لا يمالىء أحدهم ، لان منهجه في تقدير الاشخاص ألا يقول كلمة ثناء في انسان لا يستحقها ، لان خلع الضرس عنده أولى منها .

ثانيهما : للرد على الذين يدعون باطلا ان العقاد يقف عقبة كأداء في طريق الادباء الناشئين ، ويظلون يعولون ويصرخون ، ويملأون الدنيا ضجيجا وعجيجا ، وهرجا ومرجا ، في كل زمان ومكان ، فهؤلاء نقول لهم : ان العقاد لا يقف في طريق الاصلاء ذوي العبقريات الخلاقة ، ولا يحارب الا الادعياء مرضى الشهرة ، الذين يتمتعون بالعته العقلي، مشوهي النفس والفكر .

صورة شعرية

نشال...

يجوع فلا يبصر
وشهوته اختلجت اعينا
وفي كل عين فم ينظر

***

وغيبه الجوع في سكرة
فلقمته من فتات
موائد تضحك بالطيبات
وتلك الفلاة شواها الصدى
وعليها السراب يعللها بخيال السحاب

***

وليس العذاب عذاب السعير تنفس
هل من مزيد
فان العذاب عذاب البطون
وما هي كسرته المشتهاة ولكنها غمرة
من جنون

***

ويدفع انفاسه الوانيات جرين مع
الشهوة
وكم موعد
اذا جاءه عاد بالحسرة
وكم مولد
نعاه وشيعه الغد

***

تراه المقاهي بابوابها
يمر بلا دعوة
فما يستجم باكوابها
ولا يستريح الى مقعد

***

وراح الى مسجد
مع الليل يبحث عن مرقد
الى حيث يغفو الالم
لدى جنة من وراء العدم

***

ونام ونوم في جسمه
سهوب الاسى وجبال التعب
وايقظ خلف ظلام الكرى
كنوزا تألق فيها الطعام
ورف الشراب رفيف الذهب
ولقمته من فتات
موائد تضحك بالطيبات
حبات طواه صفاء القدح
وتلك الفلاة عليها السراب

ولم يبق من رسمه
سوى حسرة في ثياب
تغيب وتظهر مثل الشبح

***

سجا الليل الا رفيف النسم
وهمس النجوم خلال الظلم
لقد خرج الثور من نيره
بآخر مقدوره
واطعمه الحقل مما سقى
ويجتر في تعب لذة
نداها باضلاعه اورقا

***

وعاد الى وكره طائر
تنام على الحب اوكاره
ولا يعرف الياس منقاره
يغني به جدول سلسل
وفي ريشه افق ازرق
وفجر بنواره يعبق

***

وعاد الصباح ولا موعد
ولكنه مولد
وعاد الشقي لارابه
يجر التعب
ولما شواه جحيم النهار واشعل في
قدميه اللهب
دعاه المقيل بظل السبيل
تنام لديه بطان الجرار كساها اخضرار
وكيزانها حول اعناقها
فحن الى امه الغابرة وارسل ادمعه
الذاكرة
والفى تمائمه نوما معلقة في سيور
وليس بها من صديق وليس بها من
نصير
ولم يبق غير انتظار ولا من فرار

***

ومر زمان
فمال على قلبه ينظر هناك الى صبره
فالفى وليا لدى قبره
وزواره علقوا بالضريح
ترف النذور على ستره ..
.. غراسا يطول ولا يثمر

سوى حسرات على اهله
وجرح ينام عليه الجريح

***

ويستنسر
فلقمته قارعة
تمور لديها الجموع خلال الجموع
تفتش عن لقمة ضائعه
فما يلقطون سوى فاجعه

***

وأدهشه ان رأى كفه تطول اصابعها
الناحله
وفي صدره زأرت غابة تفح ثعابينها
الخاتله

***

وفي ضجة السوق والزحمه
رمى كفه الناحله
تحط على موجة جافلة
وعادت اليه على خلسه
بشيء ولكنه لم يره
وابصره احد السابله

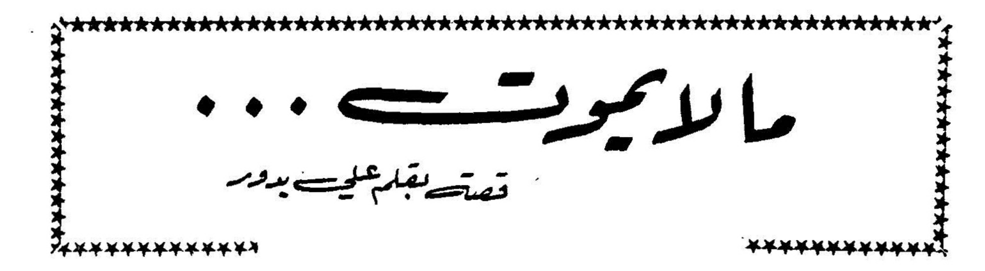
***

نبات علا قفص المحكمه
يقلب سحنته المجرمه
وليس له من جذور
تهافت في قفص المحكمه
يلف بقضبانه ساعديه وينظر في هوة
مبهمة

***

وقد أشرف العدل من شرفة
عليه السلام !
نظيف الثياب خفيض الكلام
بطينا يقلب اوراقه
ويعلك اشداقه
ويصقل من كل حرف حسام
وكلب تحرق فيه الجرب
وكاثر منه الشعر
وكشر ينهش منه العصب
فعاقر خمر السعر
فداواه سيده بالحجر

الخرطوم — **محمد المهدي مجذوب**



الموت في الشتاء يقترن بالاشجار العارية والارض الموحلة والعواصف الهائجة .. فكأنه لايتحرك الا ببطء ، وهو يغيب اعزاءنا عنا لتظل قلوبنا تعيش مأساة انتقالهم الى اللحد البارد ماداموا على الطرق الى قبورهم.

لقد صور لي نبأ الموت الذي وصلني الان ، ذلك الطريق الموحل وسط العواصف والاشجار العاريه وهو يشهد نقل جثة تلك الانسانة التي احببتها الى اللحد البارد .

جلست افكر وسط الغرفة الدافئة في هذه العلاقة التي كانت بيني وبينها وظلت قرابة عام ثم انقطعت بالمرة .. واتسع افق الغرفة بحيث اشرف على افق اوسع .. واخذت افكر بالعلاقات الانسانية بين الناس .

ان العلاقات الانسانية شغلت ذهني كثيرا .. اتعبتني في كثير من الاحيان .. ولكن دون الوصول الى نتيجة .. كانت تزداد غموضا كلما حسبت انني ازددت بها معرفة . لقد حسبت في بعض المرات انني وصلت الى حقيقة الشعور الخفي الذي يتحكم في هذه العلاقات المفرطة في الحساسية ولكن الواقع الجامد كان يردني الى حقيقتي دون ان يسمح لي ولو بالشعور مرة واحدة بانني وضعت يدي على سر من تلك الاسرار التي تأخذ بمجامع تفكيري واهتمامي .

لقيت بعض الناس لمرات كثيرة .. وكان تأثيرهم في ظاهرا ..ولكنني كنت افقدهم بعض الوقت فلا يعود لهم في حياتي ماكان لهم من التأثير فيها ... ولكن ذلك كله يبدوبسيطا اول الامر لانني عندما ادقق في نفسي اجدني وقد اضيف الي طبقة جديدة تشبه طبقات الارض التي تتكون بعضها فوق بعض ، بحيث لايمكن التخلص من هذه الطبقة الجديدة التي اضحت تؤلف جزءا لاينفصل من وجودي .

لقد عرفت تلك الانسانة وامضيت في صحبتها قرابة عام .. ثم افترق كل منا عن الاخر .. بعد ان تركت الايام في كل منا طبقة جديدة لايمكن التخلي عنها .. وهي وان تكن قد سترت بطبقة او طبقات جديدة بفعل علاقات انسانية جديدة ، لكنها لاتزال تؤلف حيزا لايمكن التساهل في عدم الشعور به .. ذلك انني اقمت الكثير من العلاقات الانسانية الجديدة بعد ان انفرط عقد تلك العلاقة العميقة مع تلك الانسانة . ولكنني كنت استطيع – وبسهولة مفرطة – ان استعيد كل ماحدث خلال ذلك العام كله ، ومنذ اول دقيقة حتى اخر دقيقة فيه ... اذ لازال اذكر الى اليوم كيف تلاقينا لاول مرة وتحدثنا معا ولم يستطع كل منا ان يقاوم ذلك السحر الهادىء الذي كان يغمر نفس كل منا دون ان يتكلف في تلقيه او اصداره . كما انني اذكر وبمنتهى الدقة اول حديث صريح عن مباهج القلب الذي وحد من نظرتنا المشتركة الى الحياة .. وكيف مضينا في طريق لانود ان نعرف نهايته .. كما اذكر الى الان اخر حديث هاتفي معها .. كان له طعم الجرح ، الحار عندما تغور فيه سكين حادة .. والى اليوم لايزال الجرح حارا ولا تزال السكين تحاول اجتياز اللحم الحي الى نهايته ..

قلت انني استطيع تذكر الكثير مما حدث لي رغم ان هذه العلاقة الانسانية قد احاطتها الايام باطار خاص ووضعت لها بداية ونهاية ، وعشت خلالها ساعات حافلة بالسعادة وعرفت حقيقة العاطفة عندما تملأ القلب الانساني وكيف تشغله عن كل شيء .. بل كيف تطلعه من خلال صفائها ونبلها على كل شيء .

وها هي السنون تمر على هذه العلاقة وتقدم بعدها علاقات جديدة حتى اذا حفرت في نفسي حفرة عميقة وجدت ألوانا متباينة من الارض قد طبق بعضها فوق بعض ، ترمز كل طبقة الى نوع معين من العلاقات التي تربط بيني وبين من عرفت واحببت برباط قوي لا فكاك منه الا بالموت .

ولاول مرة في حياتي اتعرض لامتحان قاس فقد كانت العلاقة الانسانية التي تربطني بالاخرين تعبر لي ولو من خلال الرفض عن بقائها متوازنة بوجودي ووجود شريكتي في العلاقة على الطرف المقابل فهلا يختل ذلك التوازن العاطفي سواء اكان سلبيا ام ايجابيا ..

واليوم اتعرض لامتحان جديد .. فقد كان الموت الذي عرفته يطال اقاربي أو اصدقائي فيحزنني موتهم ساعات او اياما ويترك في نفسي الاما لوفاة من اعرف .. ولكنني لم اجرب الموت عندما يخطف احدى من عرفت معرفة انسانية شاملة وقامت بيني وبينها علاقة انسانية صميمية. ان العلاقات التي هي من هذا النوع حساسة جدا ورقيقة جدا ، فهي تعبر عن تشوف الانسان الى حياة نقية صافية كلها طهر ونبل ولا شيء يجعلها طاهرة ونبيلة مثل القلب الحي الذي امتلأ بالعواطف الصادقة والمشاعر النبيلة ..

ان الموت الذي تخطف بسرعة ، من عرفتها ذات يوم قد اوقعني في ارتباك عظيم ، فقد ازال ا ول ماازال وجود من احببتها المادي من امامي فلم يعد لها وجود ،بحيث اختل التوازن الذي كان قائما ، ولم اعد استطيع الشعور عندما اراها ولو لم اكلمها ، ان اقول فيما بيني وبين نفسي : « لقد كنت اعرفها وكنت احب معرفتها » ولم يعد بمقدوري ان اراها من جديد ولو بحكم الصدفة ، لان موتها قد امات الصدفة ايضا من حياتي ، واضحت رؤيتها مستحيلة ولو اجتمعت كل الصدف معا . وعدت احقق فيما بيني وبين نفسي وادقق على وجود هذه العاطفة المستقلة في اعماقي ، تلك العاطفة التي تؤلف حيزا مستقلا لايمكن ان انكره .. واصبحت ذكرياتي عندما تريد ان تسترجع لحظات تلك العلاقة التي كانت قائمة بيني وبين تلك الانسانة ، لا تستطيع ان تسترجع الا اطيافا ، بل قد لاتستطيع ذلك ، لانني سوف انكر نفسي اذا اردت ان اتمثل كل ماكان يجري بيننا .. وكأنه يجري بيني وبين انسانة ميتة ، اذ لم يعد ذلك الجسد الحي النابض بالفتنة والاغراء الا جثة ، وتوارت تلك الروح الرقيقة وذلك الذهن المتفتح الذكي كما تتوارى سبحات العبير التي تفوح عن وردة متفتحة .

ولكن موت من احببت معرفتها لم ينه وجودها المادي فحسب ، بقدر ماشككني في وجودي ايضا . ان هذا التوازن القائم لم يعد جسرا تعبره قوافل الذكريات وهي محملة بأطيب المتع والمسرات .. بل اضحى عبئا ثقيلا .. واشعرني انني بدأت انتهي انا الاخر ايضا .. لان حياتي هي عبارة عن مجموع العلاقات الانسانية التي اقمتها مع من احببت .. وزوال واحدة منهن معناه بدايتي في الزوال ايضا .. لاعتقادي ان الحياة ليست اياما ولا شهورا جامدة ، ولكنها عبارة عن رصيد نفسي وذكريات وعواطف وعلاقات قديمة واخرى جديدة .. وان كل تهديد يمس جزءا من هذا الرصيد معناه نقص في حياتي بالذات ، والقلب البشري عندما لا يحس او لا يردد ذكرياته الحية .. يبدو قلبا ميتا رغم انتظام دقاته.

التتمة على الصفحة ٦٠

عشرون صباحا

عشرون صباحـا
لم يتفتح يومـا ورد
لم يخفق في ايدى أم مهـد
تحت جليد النهر ، الزهر ينام
وتدب على الشاطىء أقدام
كل صبـاح دقتهـا
تطرق ابواب الحب
تورق أعشابا صفراء
فوق رمـاد القلب

* – *

محبوبى سار وحيدا فوق الشوك
والدرب تجللـه الاشواك
ولى من غير وداع
أسرج مصباحي من عينيـه
ووسادى من نسج يديـه
ومع الفجر مضى فوق الشوك
ياويلي ، غام صباحي
النهر جليد ، والزهر حطام

* – *

عشرون صباحا
مرت لم يتفتح يومـا ورد
لم يخفق في أيدى أم مهد
لم يسرج لى مصباح
لم يخطر ثوب المحبوب
ترقب عيناه ميعادي
ويسوى بالحب وسادي

* – *

ياعينى .
مرت عشرون صباحا
لكن قد يأتي المحبـوب
في ساعة صفو موعود
يسرج مصباحى
يأسـو فى الليل جراحى
فلقد دقت يمناه باب الحب
وسمعت اليوم خطاه تطرق قلبى

القـاهـرة — **حسن فتح الباب**

القصة التربوية بين الفن والغاية

بقلم محمد عيد

يتناول الدارسون والنقاد بالدراسة والتحليل أنواع الفنون الادبية المختلفه من شعر أو مقالةأو خطابة او قصه. ولكنهم اذا تحدثوا عن القصة قصروا اهتمامهم في الغالب على القصة في مجالها الفني الرفيع، أو بتعبير اخر: على القصة كما يكتبها المتخصصون في هذا الفن. وكما يتذوقها دارسو الادب الذين أوتوا نصيبا عظيما أو ضئيلا من الوعي والتذوق، وقلما يشير الدارسون الى نوع اخر من القصص له من الخطورة وعظيم الاثر ما هو بهما حقيق باهتمام الدارسين والمنتجين والمربين وهو « القصص التربوي » ، فهذا النوع من القصص ذو أثر خطير في تكوين الجيل الناشىء من أبناء الوطن العربي، سواء في ذلك موضوعاته، وما لها من صلة بالقضايا الانسانية أو القومية، أو غاياته ومراميه، وما تغرسه في النشء من معاني الخير والجمال أو الاسلوب الذي تؤدى به وما له من صله حساسة في تكوين اللسان القومي الذي هو وعاء الثقافة العربية، ووسيلة الصلة الشعورية بين أبناء الوطن العربي.

من حق هذا الموضوع اذن أن ينال نصيبه من العناية، فالتخصص فيه فن كبير لا يقل بحال عن التخصص في أدب الكبار انتاجا ودراسة، فقد بقيت المدارس عندنا وقتا طويلا تهتم بكتب القراءة التي تعالج موضوعات فكرية مجردة ومن واجب المدرسة الحديثة ان تفسح صدرها ووقتها لتجد القصة التربوية طريقها الى عقول التلاميذ وألسنتهم، يقول بتزنر: « فقد جاء العصر الحاضر باتجاه جديد: اذ نرى جميع المنظمات التي تعتني بالتلاميذ ... لا بد أن تعرض الادب في صورة من صوره في الساعات المخصصة لالقاء القصص (١) »، ولكن أقرر بأسف أن هذا الفن الادبي عندنا لا يزال متخلفا الى حد كبير، فهو مهمل في قاعات الدرس كما هو مهمل في المكتبات العامة والخاصة، وهو مهمل من القصاصين نتيجة اهمال الدارسين والنقاد للاشادة به والدعوة اليه.

وفي هذا المقال محاولة مجتهدة أرسم بها خطوطا عامة عن هذا الفن الادبي — في القصة التربوية — في أهدافها — أدبية أو قومية — وموضوعاتها واطارها الفني ولغتها واخيرا أقدم نموذجا لقصة تربوية اتخذت منها ومن مثيلاتها تجربة أمدتني بأفكار هذا المقال.

***

من الاهداف المهمة للقصص التربوية بث المثل العليا والروح النظيفة في الجيل الجديد ليتحقق من ذلك روح المقاومة لما يطلق عليه « اللاأخلاقية في الادب » فقد شاع في حياتنا الادبية — وبخاصة عن طريق القصة — ألوان رخيصة من الادب السوقي المبتذل — أدب الجنس والجريمة والشذوذ — وقد كانت هذه الالوان الرخيصة احد العوامل المسؤولة عن اشاعة التخنث والطراوة في وقت ما بين أبنائنا وبناتنا، ومقاومة هذا العامل لا يمكن ان يتحقق بالارشاد والقاء المواعظ. وانما تتحقق مقاومته بتيار مضاد يشع منه الجمال والخير ويرسم المثل الطيبة أمام الجيل الجديد، لان مقاومة التيارات المدمرة لا يتحقق بالنهي عنها، والصراخ في وجهها بالبعد عنها، وانما يكون ذلك عن طريق مثل ايجابية اخرى تحملها القصة التربوية، وتوحي بالفضيلة والنظافة، مثل الثقة بالنفس وتحمل المسؤولية، وتقدير الواجب، والتضحية في سبيل الخير وفي سبيل الحق، والاخلاص للمبدأ والعقيدة والانفة للكرامة الانسانية، وفهم الجوانب المضيئة من حياتنا الانسانية والقومية. « وما لم يرسم المجتمع مثله العليا مثلا دافعة، باعثة على العمل، حاضة على الخير، هادفة لخير المجموع، فلا يعقل أن يقوم مجتمع صالح يؤدي رسالة، وينشىء حضارة (٢) »، ولا شك أن القصة التربوية تدخل هنا من أوسع الابواب، لانها بما تحمله من مضمون بناء هادف قادرة على التأثير النظيف في نفوس النشء. يقول احد المربين: « وان ما يشعر به القراء من المتعة واللذة أثناء المطالعة في الكتب الجيدة لمن خير ما يعالج به ما في الذوق السقيم من ميل نحو الكتب الرديئة، واذا أمكن أن نبدأ بتربية الناشئين بأن نغرس فيهم عادة الاستمتاع بالادب الراقي، ضعفت جاذبية الادب الرخيص لديهم (٣) ». والقصة بما تحويه من حركة وصور ومناظر وشخصيات، كل ذلك ينتج عنه احساس بالمتعة يصعب على القراء من التلاميذ أن يقاوموا الاغراء الناشىء عنه، بل يصعب عليهم ان ينسوا مضمونها المثالي الذي لا يقدم لهم عن طريق وعظي مباشر، وانما عن طريق عمل أدبي ممتع.

والقصة التربوية بما فيها من عنصر التشويق، ورحيق المتعة تدفع الناشىء دفعا للقراءة، واجادة القراءة أمر هام يسعى اليه المربون، فالشخص القارىء شخص متجدد، يتمتع طول حياته بما يكتشفه من عقول الاخرين وأفكارهم، وهو بتجدده واطلاعه يضم بين قلبه ووجدانه حياته وحياة وطنه، وبذلك يحتمل مسؤوليته القومية في وعي وفهم، وربما كان له من قراءاته — فوق متعته — ما يكون به قائدا لتوجيه الوعي في أمته، يقول احد المربين اذ اكتشف لاول مرة متعته بالقراءة: « قد يكون هذا أخطر حادث في حياتي كلها، ولو أخبرتك بالاثر العميق الذي تركه هذا الامر في لبدت كلماتي مضطربة من شدة التأثر، أو بالاحرى محمومة، كان تأثير هذا الحادث على نفسي هائلا، فقد أدركت أني اقتحمت عالما هائلا، كله عجائب

(١) الطفل ودراسة الادب ص: ٢١.

(٢) معالم الحياة العربية الجديدة ص: ٢٥٨.

(٣) اللغة والفكر عند الطفل ص: ٤٦.

يقتضي منا دائما درسا وعناية (٩) » وهذا الدرس وتلك العناية يضيفان مسؤوليات جديدة لكاتبي هذا النوع من القصص .

* * *

أقدم هنا نموذجا لقصة تربوية . وهي قصة من مجموعة قدمتها في بطاقات دراسية في مدرسة اعدادية تجريبية بالقاهرة (١٠) سنة ١٩٦٠ . وقد قمت بتدريس كل فروع اللغة العربية عن طريق هذه القصص ، ولمست مدى أهمية هذا اللون من الادب في تكوين الناشئين فكريا وذوقيا ولغويا ، وأكرر ما سبق أن قدمته من أن هذه التجربة في القصة التربوية قد أوحت الي ببعض الخطوط العامة لاجتهادي في هذا المقال.

والقصة هي :

« وديعة الله »

ـ من المتحدث ؟ من على الطرف الاخر من الخط ؟

ـ أنا ... أنا يا شوكت .. تحدث .. ما لك مضطربا هكذا ؟ ما الاخبار ؟

ـ ماذا تظن ؟ لقد ظهرت النتيجة اليوم ؟ وشاهدتها بنفسي.

ـ بالله تحدث يا شوكت ، ولا تحطم اعصابي ! ماذا شاهدت؟ قل .. اني مصغ اليك .

ـ لا تضطرب يا صديقي ، اطمئن ، اطمئن .. انك لم تنجح ... فقط ، بل نجحت بتفوقعظيم !! فمبروك ، ألف مبروك .

كان الوقت ليلا ، والسكون يملأ الغرفة التي جلس في أحد اركانها شاب وسيم على مكتبه في وجهه صفاء ورزانة ، وامامه بضعة كتب مرصوصة ، وفوق رأسه مصباح صغير ، وساعة حائط انيقة ، وقد تناثرت على المكتب اوراق ومذكرات ، وفي أحد أركان الحجرة بناء عظمي لانسان وبعض الحيوانات المحنطة .

وحين انتهى هذا الشاب من محادثة صديقه شوكت ، وضع السماعة، وتهلل وجهه فرحا ، وانطلق صوت الخادمة في الردهة يعلن النبأ السعيد، ومن الحجرة المقابلة ناداه صوت خافت .. فريد .. دكتور فريد .. تعال .. تعال هنا لاهنئك .

ونهض الشاب من مكانه ، وقطع الردهة بخطوات سريعة ، ودخل حجرة جده ، ومال على جسده الهامدفاحتضنه وحينئذ طبع قبلتين عميقتين على جبين حفيده وهو يقول : هذه قبلتي وتلك قبلة أبيك ، انه لسعيد في قبره الان اذ نلت اجازة الطب ، كانت أمنيته ان يعيش ويراك في هذه الساعة ، ولكن القدر لم يبقه.. فذهب .. وليرحمه الله.

واغرورقت عينا الكهل بالدموع ، واختلط حديثه وهو يقول: نعم لقد حان الوقت وحل الميعاد كي أسلمك الوديعة ، وأقص عليك الخبر !!

ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يتحدث فيها جد فريد عن هذه الامور ، لقد سمعه كثيرا ـ وبخاصة في الاوقات التي كان المرض يهجم عليه فيها بقوة ـ يتحدث عن الوديعة .. والناس .. والموت .. واجازة الطب وساءل «فريد» نفسه ـ وجده يعتدل فوق فراشه استعدادا للحديث ـ ترى ماذا وراء هذا الكهل الوقور ؟ وما هي تلك الامانة التي سأحملها عنه ، والسر الذي سيفضي الي به ؟ لكم أنا مشوق لمعرفة كل شيء الان .

قال الجد : منذ زمان هبط تاجر شاب الى هذا الحي الفقير الذي نسكن فيه في القاهرة ، وافتتح محلا صغيرا لبيع المنسوجات ، وشهد الناس قصة كفاح مجيدة لهذا التاجر الشاب ، وقد اجتهد من ناحيته ان يكسب حب الناس واحترامهم وصداقتهم ، فاشتهر بينهم بالصدق والامانة والشرف ، فأقبلوا على محله يتعاملون معه ويشترون منه.

وابتسمت له الحياة ، وأسعده الحظ !! وبعد أعوام اصبح من كبار التجار ، وتجاوزت شهرته هذا الحي الى كثير من الاحياء الاخرى،فكثرت بضاعته ، وراجت تجارته بفضل هؤلاء الناس الطيبين الذين حملوا أخبار أمانته وشرفه الى كل مكان ذهبوا اليه ، وتحدثوا عنه في كل منتدى جلسوا فيه فقد امتلأت عيناي بدموع الفرح حين سمعت بعضهم يوماً يتحدثون عن ابيك « الحاج عبد الرحمن » فيقول :

ـ ان الحاج عبد الرحمن التاجر رجل فاضل ، انه يشكر الله في امواله ، وكلما زاده من نعمته ازداد احسانا وامانة .

ـ صدق الله العظيم .. لئن شكرتم لازيدنكم.

ـ انه يعاون المحتاجين في الحي ، ويفتح محلات صغيرة لبعض الناس ، وييسر العمل لكثير منهم كي يكسبوا رزقهم ..

ـ يا له من رجل ذي مروءة !! هكذا يكون الرجال ؟؟ اللهم زده من نعمتك ، وأكثر من أمثاله .

وقد زاده الله من نعمته أكثر وأكثر ، فنال أعظم ما يتمناه تاجر ناجح : الثراء .. وثقة الناس. وانقاد له كل شيء ، وأحبه كل شيء.. المال .. والناس .. والعمل ، ولكن والدك لم يكن سعيدا على الرغم من ذلك !!.. كان له عدو عنيد أجهده وقهره ، وصرعه في النهاية !! كانت بينهما وقائع دامية خرج منها والدك دائما كسير القلب !!

ـ ومن هذا العدو يا جدي ؟؟ ان والدي لم يحدثني عنه أبدا.

ـ انه عدو جبار لا يرحم، وانك ستقف حياتك كلها في ميدان واحد معه ، كانت هذه أمنية أبيك ، وقد تحققت.

ـ اني مندهش مما تقول ، لطالما حدثتني وأنا صغير عن اساطير الجان ، وكنوز سليمان ، ولكن ما تقوله الان اعجب من كل ما سمعت.

ـ لا تتعجل وعما قليل ستفهم كل شيء.

حين كنت طفلا صغيرا ألا تذكر انه كان لك اخت في ذلك الوقت؟

ـ نعم اذكر .. أختي سميرة ، ثم قال فريد كأنما يناجي نفسه : لقد كانت ناضرة كالزهرة المتفتحة .

ـ لقد دخل ابوك البيت ذات ليلة فوجدها شاحبة الوجه ترتعش، كانت محمومة وحين حملها بين يديه تعلقت برقبته ، ثم قالت له بصوت متحشرج :

ـ لماذا لم تحضر لي لعبة كما تعودت يا ابي ؟؟ ألن ألعب غدا ؟

ـ كلا يا بنيتي ، ستلعبين وتمرحين ، ولكن عليك ان تنامي الان.

ـ سأنام..ولكن بعد ان تقص علي قصة.. «ست الحسن والجمال»

وقص عليها والدك ، حتى هدأت ، ونامت ، نامت الى الابد ، ولم تلعب في الغد ولا بعد الغد !!، ويومها رأيت والدك يجري نحوك ، ثم يأخذك في احضانه ، وينظر اليك نظرة طويلة لم أفهم معناها الا بعد ذلك عندما قال لي أدع الله يا ابي ان يوفق «فريدا» ويدخل كلية الطب.. ولقد رأيته يأخذك في أحضانه مرة اخرى ، وينظر لك نفس النظرة الطويلة ويتحدث الي بنفس الحديث: ويطلب مني الدعاء لك عندما اجتاح وباء « الكوليرا » مصر سنة ١٩٤٦ ، وتخطف اصدقاءه في الحي واحدا بعد الاخر ؟؟ وقد كنت فتي يتفتح صباك للسنوات النهائية في

(٩) الطفل ودراسة الادب ص ٩٩ .

(١٠) مدرسة النقراشي النموذجية الاعدادية .

المرحلة الثانوية ، هل فهمت الآن ؟؟ أعرفت عدوك الذي لا يرحم ؟؟

وكاد الدكتور فريد يصرخ ، فقد بدأ يعرف .. غير أن الجد ناوله مفتاحا صغيرا ، وطلب منه ان يفتح به الخزانة الحديدية ويتناول منها وديعة والده التي اوصى بأنتقدم له يوم نجاحه الاخير ، ومنها سيعرف كل شيء ، وقد فتح الصندوق في لهفة ، وتناول الهدية ، لوحتـــان رائعتان مغلفتان بالحرير .. فجأة تقلصت عضلات وجهه وهو يحـدق بقوة في احداهما .. كانت صورة لابيه وهو على فراش مرضه الاخيـر بوجهه الشاحب ، وابتسامته الهادئة ، ونظراته الحازمة الصارمة، وقـد كتب تحت الصورة بخط يده « هديتي اليك - يا فريد - يوم تصبح طبيبا ، علق هذه الصورة امام عينيك دائما لتذكر بها هذا العدو القاهر .. المرض .. لقد صرعني كما صرع أختك من قبل ، وله ضحايا كثيرون بين مواطنيك الطيبين الذين أحببتهم دائما ، وقدمت لهم معونتي وأموالي ثم وجهتك انت لكلية الطب من اجلهم ايضا ، فاجتهد - يا بني - ان تحقق أملي فيك ووديعة الله عندك بأن تكون خبرتك وعلمك من اجـل الناس .. مواطنيك الطيبين » . ورفع بيده صورة ابيه لينظر اللوحة الاخرى ، انها هدية من احد اصدقاء الاسرة الرسامين ، وعاد اليـه صفاؤه وهو يتأمل فيها صورة ابيه الذي احتضنه في حنان وهو صغير، وتتابعت عليه احداث حياته دفعة واحدة . واستغرقته نوبة حادة من التأثر .. ثم احتضن اللوحتين ، واستدار ليخرج ، فتلاقت ابتسامته مع ابتسامة جده بعد ان عرف كل شيء .

وحين جلس في حجرة مكتبه في الصباح كان معلقا امامه عـلى الحائط لوحتان فيهما حياته كلها ، احداهما تسجل ماضيه ، والاخـرى ترسم مستقبله ، وتوافد عليه المهنئون : الخدم.. والبواب.. وبائع الصحف .. والاقارب .. وزملاؤه .. وسكان العمارة .. وأهل الحي.. وأصدقاء والده من التجار والاعيان ، وحينما كان يمد يده ليصـــافح أحدهم شاكرا كان يخيل اليه أن أباه يصافحه ايضا ويهتف به، هـؤلاء هم الناس الطيبون الذين أعنيهم .. وتدور عيناه بسرعة في اللوحتين امامه وتتسمران عند عبارة ابيه حقق - يا بني - أملي فيك وديعة الله عندك بأن تكون خبرتك وعلمك من اجل الناس.. من اجل الاخرين !!

* * *

فهذه قصة تربوية من النوع القصير ، وقد الفتها لطلبة متقدمين في أعمارهم نوعا ولذلك كان موضوعها الذي جسدته فكرة انسانية راقية. وهي الاجابة عن سؤال : كيف تتحقق قيمة العلم والثقافة ؟؟ كما ان هدفها يرتبط بنفس الموضوع ، وقد قدمت القصة موضوعها وهـدفها من خلال الاحداث والاشخاص دون صراخ او وعظ مباشر ، وقد راعيت في لغتها وعباراتها ما قدمته من سمات.

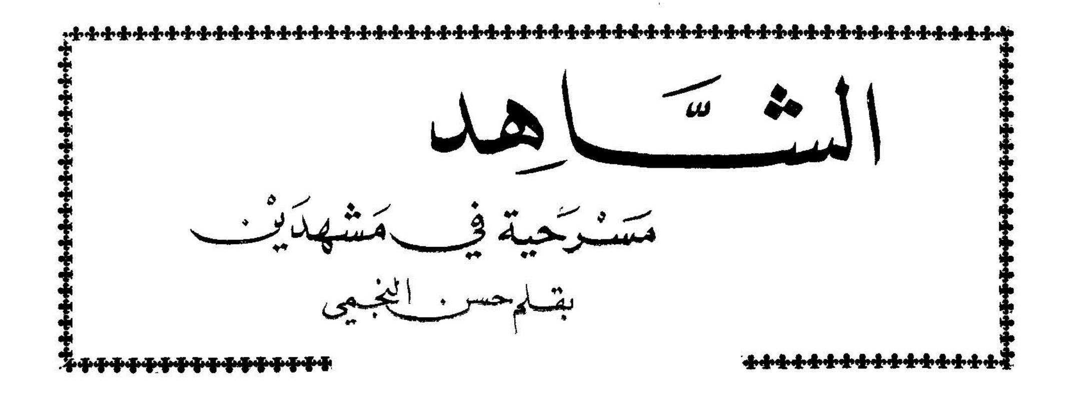
وبعـــد :

فلعل مقالي هذا يكون بداية لدراسات أعمق منه في هذا الموضوع من المتخصصين فيه توجه الادباء والكتاب الى قيمة هذا الفن الادبي في صنع الجيل الجديد فكريا ولغويا ، وهما أحـق ما ننميه من حياتنـا القومية .

القـــاهرة — **محمد عيد**

المراجع التي ورد ذكرها في هذا الموضوع :

١ - الطفل ودراسة الادب ، تأليف : بتزنر ، ترجمة : دكتور ماهر كامل.
٢ - معالم الحياة العربية الجديدة ، تأليف : دكتور منيف الرزاز .
٣ - اللغة والفكر عند الطفل ، تأليف : جان بياجيه ، ترجمة : أحمد عزت راجح .
٤ - الطفل والقراءة الجيدة ، تأليف : بول ويتي ، ترجمة : ساميناشد.
٥ - من أسرار اللغة ، تأليف : دكتور ابراهيم أنيس .
٦ - اللغة والمجتمع «رأي ومنهج» ، تأليف : دكتور محمود السعران .
٧ - اللغة بين الفرد والمجتمع ، تأليف : أوتو جسبرسن ، ترجمة : دكتور عبد الرحمن أيوب .



الاشخاص : ١) عائد
٢) الاب
٣) السكرتير

(المشهد الاول)

المنظر : (قاعة استقبال كبيرة انيقة الاثاث يتوسطها مكتب فخم جلس وراءه السكرتير ، ويبدو في طرفها بعض الشيوخ من الملونين .. يرى ـ خلف كرسي السكرتير مباشرة ـ باب كبير تلتمع فوقه السلاسل المزدانة بعدد من الاقفال) .

السكرتير : .. ولكن سيادة الرئيس مشغول جدا في هذه الايام ولا استطيع ان اسمح لاحد بالدخول عليه ..

عائد : ولكن القضية التي جئت من اجلها لا تحتمل التأجيل..انها قضية حياة او موت ..

السكرتير : كل القضايا التي تنتظر حكم سيادته قضايا حياةاو موت .. انك لا تشكل استثناء وعليك ان تنتظر ..

عائد : لقد انتظرت .. انتظرت طويلا واكثر مما ينبغي ..

السكرتير : دعنا من هذا التهويل .. واطرح عنك هذا التطرف بالاحساس بسرعة الزمن .. أترى ذلك الرجل الاشيب ؟ لقد كان شابا عندما جاءني اول مرة طالبا مقابلة سيادته ..

عائد : ولكن هذا غير معقول ..

السكرتير : انه معقول اكثر مما تظن .. لقد نسيت ان اقول لك انه كان خلفا لكهل اخر عندما جاءني في طلب المقابلة !

عائد : وذلك الكهل الاخر .. هل كان خلفا لشاب ادركته الكهولة وهو ينتظر المقابلة السامية ؟!

السكرتير : تماما ..

عائد : قضيته اذن ليست قضية حياة أو موت كقضيتي ..

السكرتير : انه يزعم كأسلافه ان قضيته اكثر من قضية حياة او موت .. انه يدعوها قضية حق وكرامة الانسان أيضا ..

عائد : ان قضيته لا تهمني في كثير او قليل .. انني يائس تماما وقد ارتكب عملا جنونيا ..

السكرتير : هذا تهديد لا يجب ان يلوح بمثله رجل جاء في طلب العدالة !

عائد : ان العدالة التي تمشي بخطى السلحفاة لاشد ايلاما من الظلم ..وأؤكد لك ان امورا سيئة جدا ستحصل اذا لم ار الرئيس فياقرب فرصة.

السكرتير : هذا انتقال سريع من التهديد مداورة الى التهديد مباشرة .. أنسيت ان سيادته يملك من القوة ما يكفي لسحق أيةمحاولة يقوم بها انسان ، وخصوصا اذا كان ذلك الانسان مظلوما مثلك ؟!

عائد : وذلك الكهل الاخر .. هل كان خلفا لشاب أدركته الكهولة للحظة .. اريد ان اظفر منه بموعد قريب او نظرة عطف او كلمة تأييد تمنحني القوة على الصبر والانتظار ..

السكرتير : لا استطيع ان اساعده .. انني آسف جدا ..سيادته مشغول في هذه الاونة بقضية ملحة تشغل تفكيره وهو الان بانتظار قدوم الشهود ..

عائد : بانتظار الشهود ؟

السكرتير : تماما .. ولو كنت شاهدا لادخلتك عليه بدون تردد.. يجب ان تدرك ان سيادته لا يطيق ولا يستطيع اصلا ان يفكر بحلمشكلتين في وقت واحد .. واذا حصل هذا له فانه يتألم كثيرا !

عائد : الناس حيث كنت .. يفكرون بألف مشكلة فيوقت واحد..

السكرتير : لعل هذا هو سبب وقوفك امامي !

عائد : اخالك مصيبا ..

السكرتير : يجب ان تشعر معه وتحس بآلامه ومسؤولياته الضخام .. انه مرهق الاعصاب دائما .. فهناك مشاكله البيتية ، ، الزوجة، الاولاد ، الام والاب والحماة والجيران .. وهناك تتبعه للاخبار العالمية ولانباء الانقلابات من عسكرية ومدنية ، بالاضافة الى المجلات التي يجبان يطالعها والروايات البوليسية والافلام التي يتحتم عليه ان يشاهدها .. وزد على ذلك التلفزيون وفضائح الموسات والمثلات ونجوم المجتمع ونجماته .. كل هذا يجب ان يتم في ثماني ساعات راحته التي تسبق ساعات نومه المضطرب .. انه ، باختصار ، انسان يحتاج الى قسط وافر من العدالة التي يوزعها على الناس .. انه مسكين .. الا ترى انه مسكين ؟!

عائد : اوافقك على انه مسكين .. ولكن لا بد لي من مقابلته ولو للحظة .. اني اصر على هذا ولن اتزحزح او انتقل من هذه القاعة، واذا ذهب من باب خلفي فسأتبعه الى بيته ، اتسلل الى عمله ، الى الجريدة التي يقرأها والكتاب الادبي والبوليسي والجنسي والديني حتى .. وسأطل عليه من التلفزيون ومن الشاشة البيضاء ومن الراديولاشعره بوجودي اذا لم تفتح لي هذا الباب الذي يقف بيني وبينه ..

السكرتير : ((باسما)) يلذ لي ان ارى الناس وهم ينساقون في تيار العاطفية الجارف ، انك متوسطي ولا تعرف الكثير عن الحياةهنا .. لقد سبقك الكثيرون الى ما تنوي عمله ، ومنهم من تدعي انهم ظلموك وهم اناس يعرفهم منذ زمن طويل ويراهم كل يوم !.

عائد : سأكرس حياتي لهذا الغرض واحبط مزاعمهم ..

السكرتير : سيكلفك هذا الكثير من الجهد والمال .. اسمع .. لقد خطرت لي فكرة .. ما رأيك في ان تدخل عليه كشاهد في قضية ؟

عائد : شاهد في قضية ؟!

السكرتير : نعم .. في القضية التي يدرس ملفها الان ويحصر اهتمامه بها .. قضية البيضاء التي اعتدى عليها الزنجي وشنقه اهالي البلدة هو وعائلته على شجرة واحدة ..

عائد : أأدخل عليه لاشهد في مثل هذه القضية ؟ اني لا اكاد اعرف شيئا عن ملابساتها ..

السكرتير : اذا كانت هذه القضية لا تعجبك فسأدخلك عليه بصفتك شاهد اثبات في قضية الزنجي الذي اصر على الاكل في مطعم البيض وقتل .. ان الرئيس سيستقبلك بحرارة في هذه الحال وقد تتمكن من كسب وده او عقد شبه صداقة بينك وبينه اذا شهدت بأنك تعرف

الزنجي وانه كان مجنونا ..

عائد : ولكني لم اسمع بهذه القضية .. ثم انها قضية فرد .. مجرد حادثة حدثت في مكان لا اعرفه ولا تستحق التفات سيادته ..

السكرتير : انها تحتل قائمة الصدارة في تفكير سيادته وهو يتابعها باهتمام ، بل انه يود لو انه لم يكن رئيسا ليشهد في القضية بنفسه ويشنق الزنجي بيده الكريمة ..

عائد : غريب اهتمام سيادته بهذه القضية الى هذا الحد .. ليته اهتم بقضيتي التي هي قضية جماعة مثل اهتمامه بهذه الحادثة التافهة..

السكرتير : قضايا الجماعة لا تهز الوجدان .. المآسي الفردية هي التي تعصر القلب ، وسيادته من ذوي القلوب الكبيرة ..

عائد : هذا منطق جديد علي !

السكرتير : انك تظل بعيدا عن قلب الفرد وتفكيره حين تحدثه عن جماعته ، مجرد ذكر الجماعة يوحي له بالثقة بانهم لن ينقرضوا بين عشية وضحاها ، يوحي له بأن قضيتهم تحتمل التأجيل .. أما في حالة الفرد الاخر ، فانه يضع نفسه في مكانه فورا ويتصور ان الوجود سيتعطل ، اذا لم يتم الانقاذ فورا .. أفهمت ؟

عائد : لم اقتنع ..

السكرتير : أقنعك .. ألم تسمع بالبنت الصماء العمياء التي جمعت الملايين لمؤسسات العميان عندنا ؟

عائد : سمعت طرفا من قصتها ..

السكرتير : لقد كانت المؤسسات الخيرية ومؤسسات العميان خاصة ذات موارد محدودة دائما ، لانها تهتم بجماعات ، وكان الرئيس يرسل لها بين الحين والاخر ما يتيسر معه من فائض مصروفاته دون ان يشعر بالضرورة الملحة لعمله .. اما في حالة البنت المذكورة التي تحدثت عنها الجرائد والاذاعات وسلطت عليها الاضواء فقد اختلف الامر.. لقد دفع لها الرئيس الملايين وهو كسير الخاطر دامع العين لانه لا يستطيع ان يعطيها اكثر مما اعطى ! هل وضح الامر الان ؟

عائد .. نعم .. فهمت تقريبا ..

السكرتير : حادثة اخرى .. الصبي الاعرج الذي يملك ابتسامة نادرة الشحوب ، لقد خلب لب سيادته زمنا واقض مضجعه .. وكذلك حادثة الرجل الذي قفز من سطح احدى العمارات .. والفتاة التي شنقت نفسها بالجورب النايلون وامامها صورة حبيبها الهاجر ورسمه الملون الجميل .. أليست هذه الحوادث ، اقصد هذه القضايا مما يثير الاشجان ويسحق القلب ؟

عائد : هي كما تقول اذا كان سيادته مهتما بها !

السكرتير : تصور تلك المسكينة مدلاة من سقف غرفتها بالجورب الاسود وامامها رسم الغادر ، الرسم الملون المشع بفعل الفسفور .. حاول ان تتخيل كم كانت تعيسة .. انها ماساة ((يتهدج صوته)) ماساة تدمي القلب حقا ، تستدر الدموع ((يتناول منديلا من جيبه ويجفف دمعة حارة)) .

عائد : هوّن عليك يا صاحبي .. انها اشياء تحدث يوميا في العالم ولا جدوى من ملاحقتها ..

السكرتير : انه عالم كئيب غريب عالم القرن العشرين هذا .. تصور الجحيم الذي كانت تعيشه تلك المسكينة .. تصور !

عائد : انه جحيم حقا !! وليست قضية الجماعة الذين جئت من اجلهم بقضية مهمة على هذا القياس .. المهم حقا هو الا نترك فتاة اخرى تشنق نفسها بجوربها النايلون او رجلا ينتحر قفزا في البركان .. المهم هو قضية الزنجية التي دخلت الى المزرعة واطلقت رصاصها على الحضور بدون رحمة او تمييز .. اليست هذه هي قضية الساعة ؟

السكرتير : احدث مثل هذا حقا ؟! لقد قلت مرارا ان علينا لكي نرتاح نهائيا من هؤلاء الزنوج ان نقضي عليهم دفعة واحدة .. ((بشوق)) قل لي كيف حصل الحادث ؟

عائد : ((بتردد)) لم اشاهده بعيني .. ولكن ..

السكرتير : ((مقاطعا)) شاهد عيان من اصدقائك حدثك بالتفاصيل .. هذا لا يهم .. تستطيع ان تكون شاهد اثبات وتقسم اليمين.. وستؤخذ اقوالك بعين الاعتبار . كيف حصل الحادث ؟

عائد : ((بحيرة)) لا ادري بالضبط لان هنالك اكثر من مسؤول عن الحادث .. ولكنه كما علمت يتلخص في مجيء تلك الزنجية من مكان لا يعرفه احد .. انها – كما قيل لي – مشردة بلا موطن معين .. كالغجر..

السكرتير : كلهم هكذا هؤلاء الزنوج الملاعين .. اكمل ارجوك..

عائد : ولكنها وبعكس الغجر غنية ولها اقارب في كل مكان تقريبا .. اقارب من الصناعيين والماليين الكبار .. هذا بالاضافة الى انها صارخة الجمال وتتقن كافة فنون الاغراء والاستهواء ..

السكرتير : كلهن هكذا .. هل تعلم ان الزنجيات اكثر اثارة من الشقراوات ؟ اذكر حادثا لي مع احداهن ايام الشباب.. سأحدثك بهذا في وقت اخر .. اكمل القصة من فضلك .. يلوح لي انها مثيرة..

عائد : انها كذلك حقا .. لقد تسللت تلك الزنجية من ثغرة في السياج ، هرّبها للاسف الشديد رجل ابيض ، رجل كان يتشدق كثيرا بالشرف والعهود واحترام المواثيق وما الى هذا .. لقد فتح لها الثغرة بيده ..

السكرتير : انها – كما يبدو لي – قصة مثيرة للخيال.. مثل قصص القرصان . هل قرأت قصة كابتن بلود ؟

عائد : لا ..

السكرتير : وكابتن كيد او كابتن مورغان ؟

عائد : لم اسمع بهما حتى ..

السكرتير : يجب ان تقرأ هذه القصص في فراغك .. انها مسلية جدا .. اين وصلنا في القصة ؟.. لقد فتح دراكيولا ثغرة في السياج ودعا الزنجية للدخول ..

عائد : دراكيولا ؟ لم أقل ان هذا هو اسم الرجل الابيض !

السكرتير : لقد منحته الاسم من عندي .. ثم انه ينطبق عليه تماما .. ألا تعرف من هو دراكيولا ؟

عائد : لم اسمع باسمه قبل اليوم .

السكرتير : لقد كان دراكيولا وحشا يمتص الدماء .. انه ابشع من فرانكشتين بمراحل .. ألم تسمع بهذا الاخر ايضا ؟

عائد : الواقع اني لم اسمع به .. اني اقر بجهلي الفاضح ونقص ثقافي ..

السكرتير : عجيب .. لقد طبعت قصة فرانكشتين في اكثر من مئة لغة حية وكذلك قصة دراكيولا مصاص الدماء ..

عائد : واذن فقد كان دراكيولا مصاص دماء !

السكرتير : نعم .. كان له اكثر من ضحية واحدة في الليلة .. كان يمتص دماء ضحاياه من العنق .. من هذه الشرايين بالذات .

عائد : شخصية مرعبة دراكيولا هذا .. وأكاد اجزم بانه يشبه الى حد ما ذلك الرجل الابيض ..

السكرتير : ماذا تقصد بقولك الى حد ما ؟. أهو مرعب اكثر من دراكيولا أم اقل ؟

عائد : عندما اشرح لك دوره في الجريمة سترى انه كان ابشع من دراكيولا الاصلي بكثير ..

السكرتير : انك انسان نادر الوجود .. أين كنت قبل اليوم ؟ اني كتلة اعصاب ثائرة تطلب بالحاح بقية القصة ..

عائد : لقد فتح الرجل الابيض تلك الثغرة في السياج وهرّب الزنجية الى المزرعة .. فعل هذا بعد ان كم افواه اصحابها وربط ايديهم بحبال من نوع غريب ..

السكرتير : انه ابشع من دراكيولا بكثير اذا اخذنا بعين الاعتبار انه فعل هذا كله لتسهيل ارتكاب جريمة حقيرة ..

عائد : لقد فعل اكثر من هذا .. كان قد وعد الزنجية بالاستيلاء على المزرعة بعد ذبح اصحابها في نفس الوقت الذي وعد فيه اصحاب المزرعة بالحماية .. لقد كان وصيا عليهم كما يدعي ..

السكرتير : هل فعل هذا! حقا ؟.. انه مجنون شرعا .. ان هذه

الفعلة منافية لابسط مبادىء الشرف .. لا اتصور ان يقوم رجل ابيض بها ، اللهم الا اذا كان مجنونا ..

عائد : لا تتهمه بالجنون .. انه شخصية معروفة في المجتمع لها نفوذها الكبير .. الحق اقول لك .. ان القانون قد لا يطاله حتى ولو ثبتت عليه تهمة تسهيل الجريمة والاشتراك في تنفيذها .

السكرتير : اعتذر .. لقد تسرعت حقا .. لا بد انه عصبي ، او ضعيف الذاكرة يصاب بنوبات ذهول تجعله غير مسؤول عما يقوم بـه من اعمـال ..

عائد : هذا بالضبط ما يقوله عنه اصدقاؤه في معـرض تبريرهم لجريمته البشعة .. اقصد فعلته غير اللطيفة !

السكرتير : انتعبيراتك هذه تعجبني واحب ان اقول لك ان سيادته مغرم بامثالها غراما خاصا .. واذا تحدثت اليه بمثل ما تتحدث الـى الان فانك ستكسب قلبه بالتأكيد وتستميله بالتالي لوجهة نظرك في القضايا التي تهمك .. انه عاطفي الى اقصى حد .. ألم اقل لك هـذا من قبل ؟

عائد : لم تقله بالضبط ولكني فهمته من حديثك .. أين وصلنـا في القصة ؟ لقد تورط صاحبنا الابيض باعطاء وعدين متناقضين لطرفين متنازعين .. انه مسكين .. اجبرته الظروف .. أليس كذلك ؟

السكرتير : تماما ..

عائد : ان سيادته مثلك لم يعرف شيئا عن هذه الوعود .. ثم انه بريء من الجريمة التي ارتكبتها الزنجية بالسلاح الذي قدمه لها ودربها على استعماله صديقنا الابيض ..

السكرتير : هل فعل هذا ايضا ؟

عائد : نعم فعله وعلى دفعات .. ولكن سيادته لا يعرف شيئا عن هذا ايضا لان احدا لم يقله له.. ولان الناس هنا لا يعرفون هذا..

السكرتير : هذا افضل بكثير .. انت تعلم انه يجب علينا انن نحمي سمعة الرجل الابيض وكرامته دائما .. انه العنصر الاقوى كما هو واضح ومعلوم ، والقوة تطمح دائما الى الظهور في ثوب جميل ناصع البياض..

عائد : افهم هذا واقدره .. رغم اني لست ابيض اللون تماما ..

السكرتير : انك فاتح السمرة .. أي انك رجل ابيض لوحته الشمس قليلا ، ولكنك لست زنجيا .. انك الى البيض اقرب وواجبك ..

عائد : يقضي بالتعاون مع الابيض وبالتساهل الى اقصى حد... أليس هذا ما قصدت ان تقول ؟

السكرتير : انك تقرأ ما في نفسي.. قل لي الان .. أهؤلاء الذين صرعتهم الزنجية برصاصها بيض ام .. ممن لوحتهم الشمس قليلا ؟

عائد : الحق انهم ممن لوحتهم الشمس قليلا .. مثلي ..

السكرتير : هذا – ارجو المغفرة لسوء تعبيري – مبرر كاف لمـا فعله الرجل الابيض .. ان مثل هذه الفعلة امر قد تمليه المصالح العليـا من وقت لاخر .. ولا اكتمك ان القصة لم تعد مثيرة كما كنت اتصور قبل لحظات .. انها تبدو عادية..

عائد : ان الاثارة كامنة في طريقة تنفيذ الجريمة بشكلها الوحشي البشع .. لقد قتلت الزنجية عددا من الاطفال وبقرت بطون بعض الحبالى من الحاضرات في المزرعة والقت بالجميع في بئر غزيرة المياه .. بئـر المزرعة التي لم يكن يحلم احد انها ستتحول الى مقبرة تضم ذلك العدد من الضحايا !

السكرتير : انها جريمة مثيرة حقا وبشعة .. قل لي ماذا حـدث بعدها ؟

عائد : ماذا تتوقع ؟! لقد احتلت الزنجية المزرعة ودعت اليها عددا ضخما من اقاربها المشردين في اطراف الارض واعلنت ملكيتها التامة لكل ما وجدت امامها .. فعلت هذا بعد ان طردت قسما كبيرا من اصحاب المزرعة الاحياء واستبقت قسما ضئيلا لمسح الاحذية ونقل القـاذورات ولتهدد بافنائهم بعض اقاربهم من اصحاب المزارع المجاورة الذين يهددونها بالثأر مرتين في السنة ويرفعون الاعلام السود ثلاث مرات او اربـع احتجاجا على الوضع او لمآرب اخرى ..

السكرتير : هل قلت انها قضية الساعة ، انها حادثة جديدة كـل الجـدة ؟!

عائد : قد تكون قديمة كل القدم بالنسبة لسيادته وللاخرين ممـن يملكون نفوذ سيادته في بلدان اخرى ولكنها بالنسبة للاحياء من اصحاب المزرعة السابقين وابنائهم جديدة كأنها حدثت في هذه اللحظة بالذات.

السكرتير : هل اصدر سيادته حكما في القضية ضد اصحـاب المزرعة وقت حدوث الجريمة ؟

عائد : نعم .. للاسف الشديد ..

السكرتير : وتريد ان تقابله الان لتقنعه بتعديل حكمه كما اظن !

عائد : هذا ما ارجوه ..

السكرتير : ستتعب كثيرا .. لان ذاكرة سيادته ضعيفة من جهـة ولانه يعنى بالحادث اليومي اكثر مما يعنى بالحادث القديم من جهـة اخرى .. هذا بالاضافة الى انه قلما يعدل او يرجع عن حكم أصدره.. الرجوع عن حكمه السابق يعني انه كان مخطئا وهو – كما يعتقد – منزه كل التنزيه عن الخطأ .. ثم ان القضية قضية زنوج واناس لوحتهـم الشمس قليلا .. وسيادته لا يحب هؤلاء .. حزازات قديمة كما تعـلم .. ثم انهم سببوا له مشاكل كثيرة لا تحصى في اطراف الارض كلها..

عائد : انت تعتقد اذن انه لن يعطف على اصحاب المزرعة المشردين في مزارع اقاربهم ؟!

السكرتير : ان اقاربهم من ذوي الثروة والجاه العريض كما يعـلم كل الناس وسيادته لا يحب الاغنياء وبالتالي لا يحب اقاربهم المشردين ولن يتعاطف معهم بحال من الاحوال ... ثم انه يحب الزنجيات اذا كن يتقن فنون الاثارة كزنجيتك القاتلة .. قل لي أهي جميلة جدا وساحرة كما يقولون ؟

عائد : هي كذلك..

السكرتير : قل لي أدقيقة الخصر هي نافرة النهدين طويلة الساقين والشعر سوداء العينين ومتمدنة ؟

عائد : هي كما تقول ..

السكرتير : وقريباتها اللواتي قدمن لمزرعتها من اطراف الارض أهن مثلهـا ؟

عائد : هن مثلها ..

السكرتير : وكلهن طليات الحديث سهلات المنال ؟

عائد : اظن ذلك ..

السكرتير : اذن فقضية اصحاب المزرعة خاسرة تماما .. هل قلت انها غنية ايضا ؟

عائد : لقد قلت ذلك ..

السكرتير : لا امل اذن .. ومن الافضل لك الا تكون شاهدا في مثل هذه القضية .. اقول لك هذا عن تجربة .. انني اعرف سيادته جيدا.. أعرف كيف يفكر ويزن الامور ..

عائد : ماذا تقترح كحل ؟

السكرتير : حل لماذا ؟

عائد : لاصحاب المزرعة المطرودين ..

السكرتير : الحل عندهم وليس عندي .. انا لست صاحب مزرعة مطرودا !

عائد : ماذا كنت تفعل لو كنت صاحب مزرعة مطرودا ؟

السكرتير : ماذا كنت افعل ؟ سأقول لك .. ابدأ بالمنطقي والمعقول دون ان التمس الحل عند احد من اقاربي او عند سيادته ..

عائد : وما هو المنطقي والمعقول في نظرك ؟

السكرتير : هل سبق ان شاهدت سيادته في اسبانيا .. في حلبات مصارعة الثيران ؟

عائد : لا ..

السكرتير : ولم تره في حلقات المصارعة الحرة والملاكمة او فـي ملاعب الكرة ؟

عائد : لا ..

السكرتير : ولم تلاحظ شغفه الشديد بافلام الرعب وافلام الفروسية والحرب والمغامرات والاجرام ؟
عائد : لم الاحظ هذا..
السكرتير : ولم يتسع وقتك لقراءة اخبار الجرائم في الصحف كما اظن !
عائد : الامر كما تقول .
السكرتير : هذا ما ابقاك بعيدا عن الحل كما ابعدك في نفس الوقت عن الوصول الى كسب عواطف سيادته .. لقد شرحت قضيتك في كراس كما اظن وبلغة غالية مهذبة خالية من الاخطاء النحوية والاملائية .. أليس كذلك ؟
عائد : فعلت هذا ..
السكرتير : دون ان تعلم ان سيادته لا يحب التفكير العميق والتحليل وانه سريع التصديق لما يقال اذا قيل بطريقة تلائمه وتناسب ذوقه..
عائد : فعلت هذا دون ان اعلم انه لا يحب التفكير العميق.. لم يقل لي احد شيئا عن عقليته ..
السكرتير : التعقيد ضد عقليته الا في بعض الحالات التي يكون البيض فيها طرفا في النزاع..
عائد : انك لم تذكر لي شيئا عن الحل .. لم تقل بعد ما هو المنطقي والمعقول في نظرك..
السكرتير: العجلة غير مجدية حين تقترح حلا لمشكلة ملونين، العفو، اقصد مشكلة اناس لوحتهم الشمس .. ولو كنت رجلا ابيض لشرعت لك الباب ، بل لما احتجت الى باب للدخول لقلب سيادته .. أتذكر أولئك السمر الذين فتك البيض بهم لمدة تزيد على السبع سنوات ؟
عائد : اذكرهم طبعا .. انهم من اقارب اصحاب المزرعة ..
السكرتير : ان سيادته لم يحفل بهم الا حين علم ان الفتك كان متبادلا بينهم وبين البيض وانهم على استعداد لقتال البيض حتى اخر رجل ..
عائد : اعرف هذا كله ..انك لم تذكر الحل بعد !
السكرتير : لقد حل السمر مشكلتهم مع البيض منذ مدة وجيزة! الم تفهم ما ارمي اليه بعد؟
عائد : ان لمشكلة اصحاب المزرعة ملابسات تختلف كل الاختلاف عن ظروف وملابسات اقاربهم .. ثم انهم عزل من السلاح ويسكنون الخيام..
السكرتير : يعتقد سيادته ان اولئك الذين يرتضون بسكنى الخيام اليوم هم اما اناس الفوها منذ الصغر او اناس لا يهمهم كيف يعيشون بالمرة، اضف الى هذا انهم يعيشون عيشة الكفاف وانهم عالة على الجميع.
عائد : انهم ليسوا عالة على احد.. واستطيع ان اذكر لك من الارقام ...
السكرتير : ((مقاطعا)) قلت لك ان الارقام لا تهم سيادته الا اذا كانت متعلقة بالضرائب التي يدفعها .
عائد : ان ارقامي ستصحح خطأ فاحشا وقع فيه سيادته وتقرب اليه فهم قضية اصحاب المزرعة، تقربه من الحقيقة..
السكرتير : الحقيقة هي ما يعتقده سيادته لا اكثر ولا اقل ..
عائد : العنف اذن قد يهديه ويبصره بحقيقتي..
السكرتير : لقد بصره من قبل وهداه الى حقائق وفرض عليه امورا كثيرة .. ان العنف مرادف للرجولة ، وهو معجب بالرجولة !
عائد : ولكني واثق من انه سيهتم بقضية اصحاب المزرعة اذا عرفته بجرائم الزنجية ونواياها العدوانية ..
السكرتير : ان قضية الزنجية قد صارت مملة ورتيبة لكثرة ما قيل فيها . أليس عندك قصة مشوقة اكثر ، قصة تلفت نظره لقضيتك ؟
عائد : عندي قصة العذراء التي ظهرت في الحلم لعجوز من بلادنا؟
السكرتير : هذه غير مهمة او مشوقة .
عائد : اذن قصة الذي رأى السيد المسيح ولمس جراحه ..
السكرتير : ان سيادته ليس متدينا في اعماقه .. يحسن بك ان تعلم هذا .. ثم انه مغرم بالجديد ..
عائد : الجديد ! اذن قصة الشيخ احمد ..
السكرتير : الشيخ احمد ؟ من هذا الرجل ؟ ان اسمه مثير!
عائد : هو الذي يبشر بظهور غيم مثل البيض في السماء ويرى مختلف الانبياء بين الحين والحين ويحادثهم ويحدثونه عن اقتراب الساعة ويخبرونه بقدوم المسيح الدجال ومن ثم القيامة والحشر والحساب والعقاب .. الا يثير هذا سيادته ؟
السكرتير : قصة التي شنقت نفسها في الحمام افضل الف مرة وتحرك اوتار قلبه اكثر بكثير من هذا اللغو .. ألم تسمع بـ ((م.م)) ؟ لقد ذرف من اجل جسدها الهامد الجميل سيولا من الدمع تكفي لو تجمعت في مكان واحد لتعويم الاسطول السادس بأكمله ولمدة طويلة.. اما الورد الذي شيع به جنازتها فيكفي ثمنه لاطعام مدينة كبيرة اسبوعا كاملا ..
عائد : لا اعرف من هي ((م.م)) هذه ولعلها شخصية بارزة فعلا .. اما الاسطول السادس فأعرفه تماما ..
السكرتير : انك لست فقيرا جدا في المعلومات كما تدعي .. ان ما ينقصك هو التوجيه السليم والنصح الصادق ومن ثم العمل على ضوئهما ..
عائد : لعل هذا هو ما بدد طاقاتي كلها .. ولكن نصيحة اخرى من رجل له مثل مركزك قد لا تضرني ..
السكرتير : نصيحتي لك ولاصحاب المزرعة واقاربهم هي في كلمة واحدة : الزحف ، ليزحفوا على الزنجية ويذبحوها وقريباتها بوحشية منقطعة النظير اذا امكن .. سيثير هذا سيادته ويسليه جدا وينزعه من دوامة الرتابة التي يحاول جاهدا الخلاص منها ..
عائد : ان اقارب اصحاب المزرعة لم يقتنعوا بهذه النصيحة التي قالها ابي من قبلك .. انهم يزعمون ان لديهم طرقا افضل ..
السكرتير : لقد قلت لك ما عندي بصراحة ..
عائد : اشكرك جدا على معاملتك الحسنة لي..

السكرتير : لا شكر على واجب .. والان .. سأدون اسمك في السجل واحدد لك موعدا لمقابلة سيادته .. الاسم من فضلك ..

عائد : اسمي ... لاجىء ..

السكرتير : الاسم الكامل من فضلك !

عائد : ابن صاحب مزرعة مطرود ..

السكرتير : « وهو يكتب » مزرعة مطرود .. الاصل ؟

عائد : الاصل ؟!

السكرتير : نعم.. الاصل .. ألم تسمع بهذه الكلمة ؟

عائد : اني صغير السن كما ترى ولم اعرف بعد .. اقصد.. لم لا ادري ماذا اقول لك بالضبط ..

السكرتير : هذا غريب .. ألا تعرف ما هو اصلك ؟!

عائد : اني صغير السن كما ترك ولم اعرف بعد .. اقصد .. لم استقر على رأي ..

السكرتير : ماذا تعني بقولك هذا ؟

عائد : اعني ان ابي يصر على ارجاع نسبي الى اولئك الفامقي السمرة الذين لا يحبهم الناس هنا ، بينما يصر بعض معارفي واصدقائي على اني من اصل اخر بدليل وجود بعض الاحجار الضخمة قرب بيوتهم هذا بالاضافة الى عدد من العواميد وبعض النقوش على الصخور والاضرحة.

السكرتير : هذه فوضى لا يهضمها سيادته .. لن أذكر شيئا في خانة الاصل بالمرة .. هذا افضل . العمر من فضلك .. تاريخ الميلاد !

عائد : ١٩٤٨ .. لقد ولدت في تلك السنة ..

السكرتير : اتهزأ بي ؟ انك تبدو اكبر من هذا بكثير..

عائد : الم تسمع او يسمع سيادته بقول شاعر اسمر عن الهم الذي يخزم الجسيم نحافته والذي يشيب ناصية الصبي ويهرمه ؟!

السكرتير : ان سيادته لا يحفظ غير اسماء الشعراء البيض فقط لا شعرهم ، وعناوين المهم من كتبهم لا مقاطع منها .. على كل حال.سأكتب خمسة وعشرين عاما في خانة العمر ..

عائد : ولكنك زدت عشرة اعوام على عمري ..

السكرتير : لم ازد شيئا .. ستبلغ الخامسة والعشرين من العمر عندما تتاح لك مقابلة سيادته .. انه مشغول جدا كما قلت لك..العنوان ومكان الاقامة الدائم ..

عائد : ان لي اكثر من عنوان ..

السكرتير : يستحسن ذكر عنوانين فقط ..

عائد : العنوان الاول هو : الشرق الاوسط .. شركة المزارع والمطاعم المختلفة .

السكرتير : « يكتب » .. المختلفة ليمتد ..

عائد : انني اتجول بينها .. اعمل في كل منها قليلا لاتمكن من العيش ..

السكرتير : « وهو ينظر الى ساعته » العنوان الثاني من فضلك ..

عائد : انه عنوان ابي .. المزرعة القديمة .. لا تكتب هذا ..انتظر قليلا من فضلك قد لا تصل الرسالة على هذا العنوان ، فقد حذف من سجلات البريد في العالم كما حذف من الخرائط الحديثة .. ما هو عنوان ابي .. ما هو عنوان ابي !

السكرتير : يجب ان تستقر على رأي .. الا تعرف عنوان ابيك ام انك ترمي الى شيء لا اعرفه ..

عائد : انني لا ارمي الى شيء بالمرة .. انني حائر فقط .. ان الرسالة لو بعثت بها الي على عنوان ابي القديم لن تصل الى يدي بل سيستلمها احد اقارب الزنجية ويمزقها واذا صدف ووجدت طريقها الى ابي فانها ستصادر لوجود اسم المزرعة القديم عليها .. هل ادركت ما في المسألة من تعقيد ؟

السكرتير : اوضح من فضلك ..

عائد : الحقيقة انه تبقى جزء من مزرعة ابي القديمة .. الجزء الغربي على وجه الدقة .. ولكن احد اقاربي استولى عليه والحقه بمزرعته وهو يظن ان ذكر اسم الجزء الذي اغتصبه خيانة له هو بالذات لان ذلك الجزء كما يدعي قد صار ملكا له او شبه غنيمة !

السكرتير : هذه مسألة عائلية يحسن بكم ان تفضوها بينكم ... سأكتب هنا عنوان قريبك منعا للخلافات والمشاكل .. مع السلامة..الى اللقاء بعد عشرة اعوام بالضبط .. في مثل هذا اليوم .. في مثل هذه الساعة !

عائد : بعد عشرة اعوام .. في مثل هذا اليوم وهذه الساعة.. «يستدير خارجا» .

السكرتير : لا تنس ان تذكرني بنفسك بين الحين والاخر .. قد انسى ان ابعث لك رسالة في الوقت المناسب .. قد أؤجل الموعد.. قد يضيع السجل وذاكرتي كما تعلم ..

عائد : لن انسى ابدا .. لا تزعج نفسك بهذه الاحتمالات ..

السكرتير : مع السلامة .. الى اللقاء ..

عائد : الى اللقاء ...

المشهد الثاني

المنظر : خيمة سوداء فوق تل رملي جلس امامها رجل في الخمسين من العمر .. يُرى عائد وهو يمشي ببطء صوب الخيمة ..

الاب : « وهو ينهض من جلسته ويمد ذراعيه بشوق » أهلا بك يا عائد .. لم اتوقع ان تعود بهذه السرعة يا ولدي..

عائد : لم اكن انا نفسي اتوقع هذا ايضا !.

الاب : اراك مكفهر الوجه مقطب الاسارير .. ألم تقابل سيادته وتشرح له القضية ؟

عائد : قابلت سكرتير سيادته فقط وتمكنت من الفوز بموعد..

الاب : هذا تقدم على كل حال .. ومتى ستذهب للقائه ؟

عائد : « بمرارة » بعد عشرة اعوام .. في اليوم العاشر من الشهر الرابع بالضبط !

الاب : لن اعلق على زمن الموعد بشيء فقد تعودت على مواعيد سيادته وتعلمت الا اشعر بالزمن معه .. ولكن لم اختار السكرتير اليوم العاشر من الشهر الرابع بالذات ؟

عائد : لا ادري .. أعندك اعتراض على هذا التاريخ ؟

الاب : انني لا استريح اليه .. انه يذكرني باشياء رهيبة ..

عائد : بماذا يذكرك ؟

الاب : في ذلك التاريخ بالذات ومنذ اعوام قليلة الفت الزنجية بمساعدة الرجل الابيض ببعض اولاد وبنات خالاتك وعماتك في البئر بعد التمثيل بالجثث .. ألم اذكر لك هذا من قبل ؟

عائد : ذكرته مرارا ورويت لي الجريمة بالتفصيل ولكنك لم تذكر لي التاريخ قبل اليوم ..

الاب : هو العاشر من الشهر الرابع اذن .. تذكر هذا ولا تنسه..

عائد : لن انساه .. ولكن يلوح لي ان لكل تاريخ ذكرى مرة لديك

الاب : صدقت يا ولدي .. ان كل يوم يمر يذكرني تاريخه بجريمة ارتكبت او مؤامرة حيكت او صفقة عقدت .. انك لم تولد هناك، ولو ولدت هناك لعرفت ان تاريخنا مليء بهذه الاشياء التي لا يجب ان تموت معي بل يجب ان تحيا فيك وتبقى في ذاكرتك زخما يدفع بك الى الامام وقوة تثيرك وتجدد عزمك في ساعات الضعف وتهيب بك ، تلوح لك دائما بالعودة .. اذ يجب ان تعود .. مهما كان الثمن ..

عائد : امن قبيل الانسجام مع هذا سميتني « عائدا » ؟

الاب : نعم .. من قبيل التكهن بما يجب ان يكون .. بما لا بد ان يحدث.. ولكن قل لي كيف احوال سيادته في هذه الايام ؟

عائد : احواله طيبة جدا .. ولكنه ـ كما فهمت ـ مشغول وغارق الى اذنيه في قضايا ومشاكل تفوق قضيتنا اهمية ..

الاب : اهناك امور تفوق قضيتنا اهمية في نظره ؟ ألم يدرك بعد كل ما قام به ابناء عمنا من دعايات ؟ ان قضيتنا قضية حياة او موت وانها تهدد بانفجار لا تحمد عقباه في المنطقة ؟

عائد : انه ـ كما علمت ـ لا يهتم بالانفجارات الا عندما يرى الفتيل مشتعلا في براميل البارود .. اما قبل هذا فلا .. لان اعصابه حديدية

من جهة ولانه مشغول بقضية المومس البيضاء التي اعتدى عليها الزنجي من جهة اخرى .. بالاضافة الى حزنه على الاخرى التي شنقت نفسها في الحمام امام صورة الحبيب .. ثم انه يعتقد ان تهديدات اقاربنا فارغة لانه يؤمن بان « غدا » تعادل « ابدا » وان « سأفعل » تعني «لن أفعل » .. الا ترى كل هذا غريبا وغير متماسك ؟

الاب : كان عليك ان تقنع بما قلته لك وتوفر الوقت والمال معا.. الى سيادته كان فكرتك انت وليس فكرتي .. لقد سبق ان قلت لك انه لا يهتم بنا لان اخوة الزنجية واخواتها قد حشوا رأسه بالاكاذيب ولم تصدقني .. كنت تؤمن بانه خير وطيب الى اقصى حد وبانه لا بد سيستمع اليك اذا قابلته ..

عائد : لقد كنت مخطئا حقا .. وقد تعلمت الدرس النافع ..

الاب : كان عليك ان تقنع بما قلته لك وتوفر الوقت والمال معا.. ان ما اقوله حصيلة تجارب مرة.. تجارب استنفدت عمري وجهدي كما استنفدت ما هو اهم بكثر مني ومنك - المزرعة.

عائد : لقد تعلمت على كل حال وعرفت شيئا مهما .. ان سيادته يحب الوحشية وسفك الدماء ويعجب بالقوي حتى ولو كان ظالما ما دام يقوم بالجريمة دون ان يترك تعقيدات تشغل الدماغ مثل الحق والباطل والشرعي وغير الشرعي .. انه اكثر من همجي وقد كنت اظنه مصدرا للمدنية ورأسا للحضارة ..

الاب : من حسن حظك ان تتعلم هذه الحقائق مبكرا .. لقد سلخت اكثر من نصف عمري لاتعلم ما ذكرته عنه ..

عائد : لقد تعلمت الدرس .. والان سأبدأ بالعمل على ضوء ما تعلمت .. ابدأ من نقطة الصفر ..

الاب : ماذا تعني نقطة الصفر هذه ؟

عائد : تعني المنطقي والمعقول .. اتصل بأخي الكبير «مجاهد» ومن ثم بأخي الاكبر «ثائر» وبقية شباب العائلة والجيران في المخيم..احدثهم بما رأيت وسمعت الى ان تنتشر الدعوة بينهم ونبدأ العمل بعد تنظيم الصفوف وحشد القوى ..

الاب : هذا هو المنطقي حقا .. ولكن ..

عائد : ولكن ماذا ..؟

الاب : « مجاهد » في السجن .. دخله بعد ذهابك بيوم واحد ..

عائد : بأي ذنب هذه المرة ؟

الاب : بالذنب القديم .. كان يدعو الى ما تدعو اليه الان ..ووشى به احدهم ، وجاء شرطة ابن عمك واعتقلوه ..

عائد : ولكن ابن عمي كان يصرح ، بل لعله يصرح الان ايضا بانه سيسترد حقنا الضائع فيمزرعتنا ، فما باله يناقض نفسه .. الا يريد منا نحن اصحاب العلاقة والشأن ان نساعده على الاقل ؟!

الاب : ان التفافنا حول راية واحدة عمل له اسم غير شريف في قوانينه كما علمت منذ مدة ..

عائد : لم افهم ما تقصد ..

الاب : انه يسمى جمعية سرية وتعكير امن واثارة شغب احيانا او اثارة نعرات وخلق جو غير ملائم لما يقوم به من اعمال مع اناس مهمين ممن تربطه بهم المصالح المشتركة والتجارة .. هذا ما يقوله هو ..

عائد : اتعني ان هناك اشياء غير هذه .. مقاصد مبطنة ..

الاب : يجب عليك الا تسيء الظن بابن عمك هذا .. انه من ذوي الدخول المحدودة كما تعلم ، ثم ان اياديه وافضاله علينا اكثر من ان تعد، لقد اتاح لنا فرصة العمل والتجول في مزرعته .. ان سواه من ابناء عمنا لم يمنحنا هذه الحقوق ..

عائد : ولكن يجب ان اتفاهم مع ابن عمي هذا .. انه مثقف وسيفهم ان عملي بالاضافة الى كونه حقي المشروع هو حماية له في نفس الوقت.. ان الزنجية لن تتركه طويلا وستهاجمه اذا سنحت لها الفرصة وتكرر نفس مأساتنا معه ..

الاب : هنالك من ابنائه من لا يؤمنون بما تقول .. لقد سمعت منهم ما معناه انهم يثقون بأن الرجل الابيض سيتدخل لمصلحتهم اذا حدث ما تتوقع !

عائد : يثقون بتدخل الرجل الابيض الذي خدعنا ؟!

الاب : ليس الابيض الذي خدعنا نفسه .. ابن عمه .. قل شقيقه او توأمه ..

عائد : ولكن الا يفهمون ان البيض كلهم سواء ؟.

الاب : من مشاكلنا العائلية الكبرى اننا لا نتعلم من تجربة واحدة..

عائد : ولكن هناك من ابناء عمنا هذا من يفهمون قضيتنا على الوجه الصحيح وقد شجعني هؤلاء في الماضي وافهموني اننا نشترك في قضية كبرى تشكل قضيتنا الجزء الاهم منها ، ساتصل بهم ..

الاب : اتصل بهم او انضم اليهم اذا احببت .. ولكن اتباع اخي الشيخ « أمان » لن يتركوك تعمل بسلام..

عائد : ولكن ما دخل اتباع الشيخ « امان » في الموضوع .. الا يريدون ان اقوم بواجبي نحو قضيتي ؟

الاب : انهم لا يمانعون البتة في ان تعمل للقضية تحت لواء الشيخ « امان » فقط ، اما ان تعمل مع ابناء عمك فهذا يشكل خيانة عندهم لانهم يؤمنون ايمانا اعمى بان لا حل للقضية الا على يد شيخهم المبجل ..

عائد : ان الشيخ « امان » ليس بقادر على الحل والربط فينظري، لعله كان قادرا على العمل يوما، هذا ما لا اناقشه.. ولكني لا اؤمن به وكذلك اخي « مجاهد » واخي « ثائر » أليس من الافضل له ولجهاده السابق لو جلس في زاوية وتركنا نعمل للقضية على الوجه الذي نريده؟

الاب : من لا يؤمن بالشيخ « امان » وزعامته لا يستطيع ان يقدم او يؤخر شيئا في سير القضية .. هذا هو رأيه كما بلغني من اولاده واتباعه !

عائد : اذن فكل طرق العمل مسدودة هنا .. ماذا يريدون منا؟ ان نجلس في الخيمة ولا نغادرها الا لاستلام فتات موائد العالم .. فتات موائد البيض والسود ؟. اهذا ما يريدون منا ان نفعله ؟

الاب : تستطيع ان تذهب للمقهى لتلعب الورق او النرد اذا شئت دون ان يعترضوا طريقك .. انني افعل هذا كل يوم .. واذا تكلم احدهم فاني استمع اليه واهز رأسي موافقا على صحة ما يقول ..هذه افضل طريقة لاثبات صحة العقل في نظر الجميع .. الايماء بالموافقة ودائما وبدون تردد .. هذا ما يفضله ابناء عمنا ويتوقعونه كل وقت من باب الاعتراف بالجميل وعدم اساءة استعمال حق الضيف ..

عائد : سيسبقني الزمن اذا لم اصنع شيئا الان وانتهي الى ان اصبح كرسيا في مقهى او شيخا حكيما يكتفي بالايماء موافقا .. سأرحل عنك .. ان الحقيبة ما تزال في السيارة .. سأذهب الى الجزء الباقي من مزرعتنا .. اتصل باخي « محروم » انه الوحيد الذي يحس بوجوب سرعة العمل بحكم وجوده قرب الزنجية ، واظنه يوافقني على العمل الفوري ..

الاب : اذا ذهبت وسمح لك ابن عمك بالدخول اصبح ابا لاثنين في السجن او في القبر .. ان اخاك هناك في اتعس حال .. لقد قبضوا عليه منذ شهرين ..

عائد : هل فعلوا هذا حقا ؟!

الاب : لقد فعلوا اكثر من هذا بكثير .. اتهموه بالخيانة وجروه الى معتقل في قلب الصحراء حراسه من البدو الضالعين في تثقيف المعتقلين وتعليمهم !

عائد : ألى هذا الحد من السوء بلغت الحالة هناك ؟!

الاب : كانت الحال اسوأ من هذا بكثير قبل ميلادك بأيام .. لقد كان ابن عمك هناك ممن سهلوا مهمة الرجل الابيض وساعدوا الزنجية في تنفيذ الجريمة .. لقد عرفت هذا متأخرا للاسف ..

عائد : أي ابن عم هذا .. انه يشبه دراكيولا ..

الاب : من هذا الذي تذكره ؟

عائد : انه بطل قصة قرأ منها سيادته ملايين النسخ في السنة الحية .. هذا ما قيل لي ..

الاب : اهو بطل ثأر من زنجية هاجمت بيته كما في حالتنا امزنجي هاجم بيوت الاخرين ؟

عائد : قلت انه يشبه ابن عمنا ولم اقل العكس !

الاب : عفوا يا ولدي .. انذكر كلمة « بطل » شوشت تفكيري .. من هو هذا الذي ذكرته ؟

عائد : انه مثل ابن عمنا من بعض الوجوه .. لقد كان دراكيولا هذا يضم ما في اجساد ضيوفه من دماء الى دمه .. تماما كابن عمنا الـذي ضم ما بقي من مزرعتنا الى مزرعته ..

الاب : في الاسمين تفوح رائحة نتنة !

عائد : لقد لقي دراكيولا مصيرا بشعا بشاعة جرائمه ..

الاب : وكذلك ابن عمنا .. هذا ما اتوقعه على الاقل .. قـل لي ماذا قررت ان تفعل الان ؟

عائد : ما دام مجال العمل غير موجود في الجزء الباقي منمزرعتنا فلا مكان للتدقيق في الاختيار .. سأذهب الى ابني عمي .. «مستقر» «ومطمئن» .. اتصل ببقية افراد عائلتنا في الخيام والمخيمات عـلى السفوح وفي الضواحي .. وقد ..

الاب : لا انصحك بهذا .. ان ابني عمك ـ بعكس ما يفهم مـن اسميهما .. لا يملكانالكثير او القليل من الاستقرار او الاطمئنان..ومعظم افراد عائلتنا هناك من المشبوهين في نظر ابني عمك في هذهالاونة وكـل حركة او سكنة لهم بحساب ..

عائد : لا افهم معنى هذا التحول المفاجيء .. لقد تركت ابني عمي وهما في سبيل الاتفاق مع ابني عمي « مقاتل » .. الم يتفقوا ؟

الاب : اتفاقا اوليا ..اتفقوا على غرس البذور ولكنهم اختلفـوا على طريقة توزيع المحصولات .. هذا ما فهمته انا من الامر رغم محاولاتهم الباس الخلاف اثوابا فلسفية براقة ..

عائد : ولكن هذا يؤخر قضيتنا .. يجعلنا اضحوكة امام سيادته.. ان الزنجية ستستغل الخلاف لتظهرنا بمظهر الاغبياء بل والمجانـين المتوحشين في عينه .

الاب : انها لن تحتاج الى هذا الخلاف بالذات لنشر هذه الافكـار .. البركة في ابناء عمك « جوعان » و «سرحان» و «راغب» و «طالب» وفي لحاهم الطويلة .. لقد فعلوا المستحيل في سبيل هذه الغاية !

عائد : تعني انهم ..

الاب : نعم .. والعن من الماضي ايضا ..

عائد : هذا يفسر لي ابتسام الناس وهمسهم في الاسواق عـند مروري بينهم .. لقد كانوا ينظرون الي كما ينظرون الى حيوان غريب.. يحدقون في وجهي ويهزون رؤوسهم بعجب !!

الاب : انهم معذورون .. لعلهم كانوا يتوقعون رؤيتك في سيـارة ذات اطار من الماس او الذهب ..

عائد : لم يبق لي غير ابن عمي « مقاتل » سأذهب الى اخوتيالذين يعيشون في الجزء الباقي من مزرعتنا قرب بيته ونتفق على خطة..

الاب : لا اظن هذا ضروريا .. ليس الان ..

عائد : ماذا تعني يا والدي .. هذا اخر امل لنا في العمل ..

الاب : كان هنالك مجال للعمل قبل سنوات ! وابن عمك هناك..

عائد : لا تتعرض لسمعته بسوء ، انه الافضل ..

الاب : لم اتعرض له بسوء .. ولن اتعرض لاحد بسوء .. الم اقل لك اني تعلمت الايماء بالموافقة دائما ؟!

عائد : ارجو ان تشرح لي ما تعرفه عن الوضع هناك ..

الاب : انه ممتاز .. ولكن لا مجال للعمل المثمر ..

عائد : لم افهم ..

الاب : بين اخوتك هناك وبين الزنجية رجال واسلاك بعث بهموبها الرجل الابيض لحفظ السلام كما زعم ..

عائد : ولكن مجال العمل كان مفتوحا هناك منذ سنوات ..

الاب : تماما منذ سنوات ..

عائد : ولكن ..

الاب : هذا هو الواقع المؤلم ..

عائد : ولكن علينا ان نعمل شيئا ، أي شيء ، اننا لم نتقدم خلال الاعوام الماضية في شيء سوى السن !

الاب : ان ابناء عمك كلهم يقولون ان ازالة الزنجية ضرورة ملحـة ولكنهم يؤمنون بان لكل شيء اوان ..

عائد : متى يؤون الاوان .. ان للصبر حدودا ..

الاب : بعد ان يتفقوا على البذور والمحصولات والانصبة وبقيـة المشاكل المتفرعة عنها .. هكذا سمعت منذ ايام ..

عائد : سمعتك تقول انهم سيجعلونها تموت جوعا منذ اعوام ..

الاب : هذا ما قالوه لي وما اعتقدوا انه الصواب .. لقد اخطأوا في التقدير تلك المرة ..

عائد : وهذه المرة ما رأيك بقولهم ؟.. ان قضيتنا لم تعد تحتمـل المزيد من الخطأ في التقدير .. لم يعد الزمن في صالحنا ..

الاب : ان رأيي غير مهم ولن يغير شيئا .. ثم ان صوتي غـير مسموع لانني غير ممثل بينهم كما يجب ان يكون ..

عائد : يدعي الشيخ « امان » انه يمثلك !

الاب : انه لا يمثلني ولا يمثلك وكذلك اولئك الذين يزعمون انهم يمثلوننا هنا وهناك .. لقد فرضوا علينا فرضا ..

عائد : يلوح ان وضعنا ليس بافضل من وضع ابناء عمنا فـي هذا المجال !

الاب : الامر ما تقول للاسف الشديد .. فوضى ورواسب لا نهاية لما تبذره من فساد ..

عائد : اتظن انه يحسن بنا ان ننتظر الى ان يتم الاتفاق عـلى البذور والمحصولات ؟

الاب : بدون اتفاقهم لا مجال للعمل المثمر .. يجب ان يتفقـوا اولا ويجربوا بعض التجارب ويفشلوا الى ان يتحقق الاتفاق الاخـوي ويتم التفاهم المنشود ..

عائد : كل هذا هدر للوقت في نظري .. الابيض والزنجيـة والزمن هم اعداؤنا وهم الذين يفيدون من التجارب الفاشلة اكثـر منا .. أليس من الافضل لقضيتنا لو علقنا اجراء التجارب قليلا ..

الاب : لا تستطيع ان تنتصر اذا حاربت بيد واحدة وظهر عار ، لقد حدث هذا مرة وكان سبب البلاء كله .. يجب ان نصبر قليلا ..

عائد : سمعت امس ان الزنجية تصنع آلة ابادة تحصد الملايين.

الاب : سيصنع بعض ابناء عمك آلة ابادة مثلها ..

عائد : ولكننا سنتساوى في هذا مع الزنجية ..

الاب : هذه هي النتيجة للاسف الشديد ..

عائد : ونصبح في هذه الحال في وضـع يشبه وضع الابيض وعدوه .. التكافؤ في الاسلحـة يعني السلام في هـذه الايام ..

والسلام بالنسبة لنا ولقضيتنا يعني الموت البطيء .. الموت ..
الاب : هذا ما قد يحصل .. الا اذا .. حدثت معجزة !
عائد : لقد علمتني منذ سنوات أن المعجزة لا تحدث بل تصنع.. يصنعها العمل المنظم ..
الاب : الظروف تفرض نوعا من التفكير معينا ..
عائد : كنت تقول ان التفكير يفرض الظروف ويعينها ..
الاب : قلت اشياء كثيرة وكذلك ابناء عمك ولم ينفع القول .. علينا ألا نزيد الامور سوءا بالنسبة لهم .. يجب ان ننتظر ..
عائد : وماذا افعل خلال فترة الانتظار .. أأظل واقفا هنا امام النجمة ، مكتوف اليدين مطبق الفم اراقب واشاهد واتحسر ؟!
الاب : تستطيع ان تذهب الى بيت ابن عمك « جوعان » .. سمعت انه بحاجة الى الشباب المدرب .. وهناك تستطيع ان تكسب بعض المال ..
عائد : وما نفع المال .. ان ما نريده هو البيت .. هو المزرعة ، ان الانسان بدونهما يصبح انسانا بلا شرف .. لا بيت لا شرف .. هذا هو وضعنا ..
الاب : لقد عشنا في هذا الوضع طوال السنوات الماضية .. وكذلك ابناء عمك .. انهم يعيشون في بيوت مهددة بالغزو .. او مما هو شر منه ! الافضل ان تعمل وتكسب شرط ألا يلهيك هذا عن الاهم والاعظم الذي هو قضيتنا ..
عائد : وماذا ستفعل في غيابي ؟
الاب : ابقى حيث ارادوا لي البقاء .. هنا في الخيمة ..
عائد : ولكن هذا ظلم ..
الاب : لن يكون الاول ولا الاخير على كل حال ..
عائد : والوقت ؟.. كيف ستقضي الوقت ؟
الاب : في المشاهدة والفرجة .. ان امورا مسلية ومهمة تحدث كل الوقت ويجب ان اراها ..

عائد : ولكن هذا الوضع ليس وضعا طبيعيا بالمرة .. انه كوضع الشاهد في جلسات المحكمة .. لا يقدم او يؤخر ..
الاب : قل انه وضع الشاهد ..
عائد : الشاهد ؟
الاب : نعم .. الشاهد .. شاهد الاثبات الحي على العار ..
عائد : شاهد العار ؟!
الاب : هذا هو وضع المتقدمين في السن .. الشهادة فقط ..
عائد : والمزرعة .. والبيت واخوتي ؟ وانا .. ماذا سيكون مصيري بدون كل هذا ؟!
الاب : لا ادري .. هذا مرهون بالارادة وحدها ..
عائد : الا تنصحني يا ابي قبل ان اسافر .. نصيحة اخيرة ..
الاب : النصيحة ؟! انها كلمات فقط .. سل ابناء عمك كلهم ..
عائد : انها عصارة تجارب عمر .. أتبخل بها علي ؟.. انها كل ما تستطيع ان تورثني اياه بالاضافة الى القضية !..
الاب : لم ينتفع احد بتجاربي ..
عائد : قد انتفع بها انا ..
الاب : مت صغيرا في عمر الورد .. مت امام باب بيتك ، امام سياج مزرعتك .. مت الف مرة ولا تعش يوما واحدا تكون فيه الشاهد على العار ..
عائد : شكرا .. الوداع يا والدي ..
الاب : رافقتك السلامة ..

(يخرج عائد من باب جانبي في المسرح ويبقى الاب الشيخ واقفا يتطلع الى الافق الملبد بالغيوم ، وفجأة يرفع كفه ليمسح دمعة انحدرت على خده المجعد) .

ـ ستار ـ

قطر — **حسن النجمي**

«جين اير» بين مترجمات البعلبكي

بقلم علي زيعور

« جين اير » كلاسيكية خالدة ، ورائعة تتحدى الزمان .

والمؤلفة شارلوت برونتي قمة شامخة وروائية فذة جمعت التحليل الدقيق والتكنيك البديع .

والمترجم منير البعلبكي عملاق في عمله ، وجماعـــة في جهـوده ومدرسة في اخلاصه وامانته ونشاطيته .

* * *

يقال عن التفكيرية العربية انها تتقبل المغالاة بل ان اللغة العربية بالذات لغة نعوت ومترادفات ذات رنين وجلبة ، تحتوش الاكثر من الانفعال والعاطفية التعبيرية . ومهما يكن فان النعوت التي استعملت هنا للقطعة وللمؤلفة موجودة في جميع اللغات التي قرأت أو حوت جين اير ، أمـــا المترجم فان نتاجه الوافر الجني يشهد له ويفرض علينا الاقرار والامتنان.

والمعجب في هذا الكتاب الذي يقدمه المترجم حلقة براقة في سلسلة كنوز القصص العالمي ، هو وجوده بالذات في اللغة العربية التي ما تزال فقيرة الى الكثير من الروائع الادبية العالمية وبحاجة أكثر الى العديد من المترجمات القصصية الانسانية الحديثة لاغناء « الحقـــل » الفكري العربي وتسهيل انفتاحه على الاداب الكبرى الغربية وانتفاعه وتـأثره بها ومنها .. كم هو كبير ولذيذ ذلك الاحساس بالثقة والبركة عندما نرى في لغتنا قطعة أدبية كبيرة رائعة غير معصورة ولا مصهورة، لهـا نفس الروح والنغمة والشذا الادبي الموجود في النص الاصلي . ان جين اير موجودة من مدة في اللغة العربية لكن بشكل مكثـف ومصور فقد الكثير من الدفء الذي يشع من الترجمة الحديثة والامينة والكامـلة التي يقدمها هذه المرة الاستاذ منير البعلبكي. كما ان احدى المجـلات كانت قد قدمت تلخيصا قصيرا للكتاب نفسه بعد بحث جاد ومطـول عن المؤلفة والقصة خاصة من حيث انطباقها على القواعد القصصيـة الكلاسيكية ومدى نجاحها في تقديم الشخصيات وعرض تطور الاحـداث وتهيئة الاجواء واشعاع الروح التحليلية والسير الطبيعي نحو خـاتمة انسانية دافئة ملؤها الايمان بخيرية الكائن الانساني وطيبته الايجـابية البنـاءة .

وللمترجَمة الضخمة التي بين أيدي القارىء العربي شهرة وصدى في نفسه . فقد لاقى هذا العمل الادبي استحسانا بل تعاطفا قويا مـع النفسية العربية ، ولعل السبب الاكبر في ذلك يكمن في تكوين وسرعة انفعال هذه النفسية مع المؤثرات التي تدفع نحو الناحية الحزينة المتألمة من الحياة ، أو ان المشكلة العاطفية والانسانية التي تعالجها شـارلوت برونتي مشكلة تمتدُّ الى روح الشرق وسيكولوجيته اكثر مما تؤوب الى غيره فهي اقرب اليه وألصق به وان تجاوزته أو تعدت حدوده لتبحث في نطاق الفرد بالمعنى الشامل والجامع للكلمة .. للشرق احساسه الكبير بعذابه ومن ثم بحثه عما يعذب نفسه اكثر ، كحالة تلك الطفلة المظـلومة التي حتى في ساعات هنائها تخلق في اطارها النفسي أو تجلب اليه كل ما يوحي ويحدث الالم والعذاب ، وفي قراءة جين اير نوع من التفريـغ الانفعالي والتنفيس العاطفي لابن الشرق الباحث عن الحـب والدفء والشقاء الذاتي للذات . جين اير رائعة انكليزية الا انها عربية شرقيـة اكثر ثم انسانية عامة اكثر واكثر أيضا وأيضا ..

وتختصر المترجمة في ان («جين») تبدو خلال لوحات متعددة ومتنوعة في بيت ليس بيتها وظروف أقوى منها ، وفي هذه تبدو لنا في تعبهـا ومشاكلها النفسية وانعكاساتها وانعكاسات الغير امام نفس الامـور والقضايا . أي ان («الانا») تقدم في « حقول » مختلفة وفي جميعها ينشأ توتر نفسي يسعى للخفض ويهدف الى اعادة الملاءمة او التكيف بين الانا وحقلها الآني.

وحتى المرحلة الجديدة في حياة جين اير ، حتى وصولها الى البيت الجديد في ثورنفيلد عند طالبتها المقبلة « من صفحة ١ - ١٣١ » كـانت كل الحلول المقدمة طرقا غير مباشرة فهي اما نكوصية واما استبـدالية وتعويضية وجزئية .. الا اننا نسير شيئا فشيئا نحـو ايجابيـة تنمو رويدا رويدا وبحذر وحيطة . تماما وبشبه كبير مع ما أظهـرته الدراسات السيكولوجية للطفل الفقير في تفاعله وعراكه مع الغـير والعالم « تجربة العالم النفسي بلانت PLANT مثلا » وفي المـدرسة والحياة العامة .

العملية اذن دراسة ممتازة حسية وواقعية للانفتاح التدريجي علـى الثقة ، أو انها مخاض وتحقيق شاق ووئيد لتجربة كفاح («أنا») وحيـدة ومتوحدة في معركة تتضح دلائل كسبها بصعوبة وجهد ، وكل ذلك في اطار واقعي. فأتى العمل درسا موضوعيا بواسطة اراء الغير - وذاتيـا على الاخص - بواسطة سرد البطلة بالذات - وبهذا فأضواء ذاتية وان تغلبت تعطي أو تدرس « مواقف » و « أوضاعا » لا أنا « مجردة » ولا انسان عام مطلق لا وجود له الا في علم النفس العام .

أما المرحلة الثانية فهي أيضا تتابع لوحات رائعة لحياة جين اير في مجتمع جديد ، انها القسم الثاني لكفاح « الانا » في حقل شاق قطبـه الرئيسي المستر روتشيستر مالك ثورنفيلد الموطن الظريف والجميل الذي تألفه جين .. وهكذا حتى تسمع ضحكة غريبة غير طبيعية وغير بهيجـة وهنا تبدأ مشكلة ان لم تكن عقدة بالمعنى الكلاسيكي ، وهي البحث عن سبب هذه الضحكة ومصدرها وستكون صاحبتها العقبة الرئيسية او الحاجز الذي يمنع حل التوتر والمادة الملائمة للحقل النفسي والاجتماعي. والحواجز الاخرى المعيقة - والضرورية لاظهار دراسة جين كمعلمـة ورفيقة وصديقة وذات شأن - هي ظهور مس اينغرام مثلا ثم التعـرف على المجنونة وظهور دورها كعقبة رئيسية ضد الزواج . وتكـون هذه المجنونة زوجة المستر روتشيستر « امرأة فارعة الطول ضخمة الجسم ذات شعر أثيث قاتم » ص ٣٩٢.

هنا تترك جين حبيبها ونقرأ عواطفها وانفعالاتها تجاه الحب والعشق ثم موقفها في حالة صارت فيها تأكل العصيدة التي قال صاحبها « ان الخنزير غير راغب فيها » ص ٤٥٦ وبعده تلتقي بسان جون ويعـرض عليها الزواج ، الا انها تعود لترى روتشيستر حيث تلاقي « سكون الموت يخيم على القصر » (ص ٥٨٩) فقد التهمته النار بيد المجنونة بيرتـا ويكون روتشيستر قد فقد بصره أو صار في وضع أضعف واكثر حرية.

المرحلة الثالثة اذن هي العودة للعذاب بعد ان تعرف سر الضحكة، والملاحظ ان المؤلفة شارلوت برونتي التي تسرد في جين اير الكثير من وعن حياتها ، تحب عذابها وتسر لتأليم نفسها بنفسها في حـلولها النكوصية والانهزامية لتوترها وكأنها تكفر عن ذنب وحتى ان كان كلما أصاب جين اير قد حدث لها بالفعل .

أما الفصل الاخير - التقسيم لتسهيل الدرس فقط وهو اصطناعي - فهو دعوة جين ولقاؤها مع حبيبها الذي تقول له رغم ما به وما أصابه: « لن أفارقك منذ اليوم يا سيدي ، مدى الحياة » (ص ٦٠٣) . الحب ينتصر ويتغلب على الصعاب، تماما كما في القصص الخيالية واحـلام

المراهقين والعشاق ، والحب يتوجه الى الشخصية بكاملهـا وكليتها لا لوجود هذه او تلك من الصفات ، تماما كما يقول علم النفس عن الحب بأنه لا يتجزأ وظاهرة كلية وطريقة من طرق المعرفة بل والمنطق ايضا.

اذن ينتهي الكتاب او القصة بحل ايجابي يشبع الرغبات والميول الخيرية والانفتاح على العمل والامل ويحقق الايمانية بايجابية الانسان وطيبته ، وحتى الاعمى يستعيد بصره ويعيش الجميع في وئام وهنـاء لا جين وزوجها فقط، فينتهي الخط المتعرج الذي رسمته المؤلفة للاحداث، عند نقطة ترغب بها هي وتجسد أمنيتها بالذات وقد يكون هو ما تم حقيقة وبالفعل ...

ومن رأيي ان دراسة الترجمة بالذات أجدى وأنسب من الحديث عن المؤلفة وكتابها اذ ان هذا امر معروف يشهد الادباء بوجوده الممتاز، ثم ان الحكم على اعمال المترجم بشكل عام أمر ضروري وواجب فأعماله ذات انواع منوعة واصناف مصنفة وكثرة قد لا تستكثر على أديب جاد وئيد الخطى ورزينها كالاستاذ منير البعلبكي.

في البدء ، ان انتاج هذا الاديب الرجل غزير يلفت الانتبـاه ويسترعي الاهتمام الزائد ، لا خليفة يكافىء ولا امير يود جذب الشعراء الى مجلسه . انه ينقل في « دار حكمة » يخصه هو بيته وبعد الانتهاء من عمله اليومي بالطبع الذي قد يهيء له الاجـواء المناسبة والاطر الضرورية الملائمة .

ويلاحظ وجود مخطط عام يتبعه المترجم في عمله ونشاطه فهو لا ينقل كيفما اتفق وبصورة عفوية انعكاسية ، بمعنى اننا نقدر على استكشاف نظرة الاستاذ البعلبكي او مفاهيمه للشؤون الفكرية . وأظن انه لو لم يترجم ما ترجمه حتى الان واراد التاليف لما كتب الا في الميادين التي حرث فيها وفضلها واختارها . ان عمله متعدد الجنبات بالفعل الا انـه قد يندرج تحت الابواب التالية :

١ ـ الناحية العربية والاسلامية :

وهذه هي النظرة الرئيسية عنده أو ان ذاك هو المهاد الفـكري القائم على ايمانه بالحضارة العربية والتراث الاسلامي لها . وفي هذا المجال ترجم او ساهم مساهمة ـ اولى في تقديم « تاريخ الشعـوب الاسلامية » للمستشرق الكبير كارل بروكلمان ، وفي اجزائه الخمسـة بالتمام والامانة . وترجم أيضا « دفاع عن الاسلام » للمستشرقة فاغليري و ... ثم وعلى سبيل المثال فقط « الاسلام والعرب » الكتاب الهام الذي ألفه روم لاندو ، أو كتاب النبي محمد لمولانا محمد علي فترجمة هـذا الاخير اغناء وثروة وسد نقص وفراغ ..

٢ ـ سلسلة قصص انسانية :

وقد ترجم الاستاذ البعلبكي اثنتين وعشرين قصة من الشوامخ العالمية ذات النزعة الانسانية، وامكن بهذا للقارىء العربي ان يطلع على كنـوز من الادب الذي لا يخص الاميركيين ولا الطليان او الفرنسيين والروس بقدر ما هو للانسان بوجه عام ، للانسان بالمعنى الاخلاقي للكلمة ..

ان منير البعلبكي عرّف القارىء العربي وبشكل منظم وامين على الروائع الهامة لكبار الادباء العالميين:

هاورد فاست في المواطن توم بين وديكنز في اوليفرتويست، وعرفنا ايضا على غوركي في : اسرة آرتامونوف ، حكايات من ايطاليا ، ذات ليلة من ليالي الخريف ، همنغواي : الشيخ والبحر ، ثلوج كليمانجارو ، وداع للسلاح .

كالدويل : طريق التبغ ، أرض المآسي ، أرض الله الصغيرة، بيت في المرتفعات .

شتاينبك : أفول القمر ، العاقر .

هذا عدا الترجمات الاخرى لجاك لندن « العقب الحديدية » ، وكفكا « المسخ » وبيرل باك « الارض الطيبة » .

انه ، كما يبدو عمل جم وافر بل هو نافع ومفيد للغة والادب العربي واكثر افادته للذهنية العربية والمجال التفكيري العربي . وتلاحظ تلـك العقلية التنظيمية في أعمال الاستاذ المترجم او الخطة التي يتبعها لاغناء المكتبة العربية بترجمته لبعض الخوالد من التراث الكلاسيكي ، فقد قدم لنا مثلا «قصة مدينتين» ووجود هذه عندنا ثروة واعتزاز . اما ترجمة « البؤساء » فقد قدمها بشكلين : الترجمة الاولى بشكل كامل وفي خمسة مجلدات والترجمة الثانية بشكل ملخص . هنا في نقل « البؤساء » قدم المترجم الكثير من التعليقات والحواشي فجاء عمله انفع وأصح وان كانت تلك الحواشي تشغل بال القارىء وتشتت انتباهه الى نواح متفـرقة تبعده عن روح الكتاب ومقاصده .

سلسلة اخرى يقدمها البعلبكي وتظهر اهتمامه بمشاكل الحاضـر الهامة ورغبته في تقديمها للقارىء باسلوب مبسط ، انها سلسلة قـد تسمى المشاكل الحاضرة ، وهي تعنى بتثقيف سريع للقارىء العـادي وذات منفعة جلي بلا ريب وان اتصفت بالتسرع وتبسيط الامور .

اما السلسلة التي يسميها ب : « علم نفسك » فانها اشبه ما تكون بسلسلة الكتب التي تهدف لاشاعة العلم على اوسع نطاق دون ان يفقد شيئا من رزانته وعمقه ، الا انه من الضروري تقديم حلقات أكثر في هذا الباب وتتعدى الشكل الذي هي فيه اليوم فمن الثابت انها تنجح وتكسب القراء وتفيدهم اذا زاد الاعتناء بها وتنوعت موضوعاتها وكثرت أعدادها.

***

هناك بعض النواحي الصحفية في عمل الاستاذ بعلبكي التـرجمي، في تقديم بعض الكتب او الاسراع احيانا في اختيارها . الا ان الميزة الرئيسية لاعماله هي الرزانة والتمهل وحسن الاختيار ثم الامانة في النقل . ولدراسة مدى أمانته للنص الاجنبي أخذت بعض العينات : عدة اسطر من كل فصل ، وكانت العينة من منتصف الفصل أحيانا لا من أوله ، وبدت بعض الملاحظات الايجابية ، فقد وقف الى جانبه صديق ترجم صفحة بكاملها واتضح ان المترجم البعلبكي لا يقل تضلعا باللغـة الانكليزية عن المؤلفة بالذات ، أو لنقل أنه فهم واستوعب الى اقصى حد ما تريد قوله وما تود الافصاح عنه ، أما النص العربي ، أو مدى قـدرة الاستاذ على صب اللغة الاجنبية وفكرتها واسلوبها في التعبيـرية العربية فلا ريب هنا بالتوفيق او النجاح البعيد الذي قد يعود للتمرس الشديد وكثرة المزاولة لاعمال الترجمة ثم بسبب كفاءة ممتازة وقـدرة رفيعة .

***

قد لا تشعر بترجمة الكتاب ، فقراءة جين أير الذي نأخذه كمثـل على مدى دقة الترجمة ، تجعل الانسان يتألم عند الوصول الى نقـاط مؤثرة ، ويشعر بشفافية الحزن كانفعال كلي يلف المطالع في تعـاطف عفوي لا شعوري ، هذا الى جانب احساس بانبجاس الفرح الداخـلي لايجابية البطلة في هنائها وصفائها . وبكلمة ، لا يعيق الشعور بالحياة مع بطلة الرواية في الاطار النفسي العام ، تعرج جمل ولا حوشية كـلام أو التواءات اسلوبية .

عدا ذلك لا نشعر أن الكلمات تنقصه فهي تتدفق احيانا كثيـرة كأنها طوع بنانه وحتى في الحالات التي تشف فيها اللغة وتتعرج متعرضة لعواطف فردية حية نامية واحاسيس خاصة صميمية وضرامية. وبالفعل فاننا نشعر بالدفء الادبي والحرارة والحياة التي تشع من لغة شارلوت برونتي الشاعرية الانيقة والرقيقة .. الا ان هذا لا يعني انه لم يلجـأ الى خلق الكلمات احيانا والترجمة المنفلتة او الذاتية أحيانا اخرى، مفردات كثيرة حلوة وجميلة يستعملها منها ما مات أو على الطريق ومنها المدفون والمركب والمنسي ككلمات طومار وتيهور والميـسار والشهبلوطة « شجرة » وغير ذلك .. الا ان في عمله هذا ما يلفت الانتباه العميـق ويثلج الصدر لتأديته وقيامه بالمطلوب واللازم.

ترجمة فرد قد تفضل احيانا عديدة ترجمة اثنين او اكثر ، ينقـل واحد من هؤلاء ثم يعيدها أو يراجعها اخر . في الترجمة الفردية تكون المسؤولية اكمل وبكل ثقلها ووزنها ، الا انه في سبيل بلوغ هذه المنزلة يجب ـ عدا الامانة والاخلاص ـ ان يتخصص المترجم الواحد في نقـل اثار متقاربة او تنتسب الى ميدان واحد ، لان هذا أجدى واسهل عـلى المترجم وأضمن لسلامة عمله وجودته ودقته ، واعتقد ان الاستـاذ البعلبكي لم يبعد الى حد ما عن هذه المبادىء الاساسية . واخيرا فهو يستحق الاحترام وعمله يفرض الاعجاب والتقدير ومترجماته توحي بالثناء والشكر ...

علي زيعور

مجرّد إنسان ...

قصة يمانية بقلم
محمد احمد عبد المولى

كان الوقت يقترب من الظهر ، وكنا نسير ، بعد ان فقدنا الامل في ان نجد الصديق الذي ذهبنا لزيارته .

كان ذلك خارج أديس ابابا حيث تمتد غابة صغيرة يخترقها نهر جف لان أمطار الصيف لم تتساقط بعد .

وبجانب الطريق جلس عشرات من الرجال السمر ينحتون في الصخر أحجارا مربعة ومستطيلة بطريقة هندسية بارعة .

الشمس ترسل أشعتها برقة ، ونسيم رطب يهب علينا من خلال اشجار الغابة . وعرق بارد يتصبب من وجوه وأجسام سمراء ، أرهقها الصخر كما أرهقتها سنوات عذاب شاقة لكسب قوت يوم لافواه صغيرة تتطاير انواع ذباب حولها ، وكنت أرى أي حياة وأية مسرة يجدها هؤلاء الرجال ناحتو الصخور . هؤلاء الذين تنحت فيهم الايام بل الساعات ، عيونهم العميقة تحمل معاني ألم دفين لكنها تتشبث بالحياة باصرار وخوف .

ـ بكم الحجرة يا رجال ؟

قالها صاحبي وهو ينظر الى العيون المتعبة .

ـ أيتها ؟

أجاب صوت متعب برنة أمل في كسب قوت ذلك النهار :

ـ هذه ...

وسمعت أصوات تتهامس ، وعيون تحملق في الحجر الاجوف وفي الرجل الذي أثار الامل فيهم .

ـ تلك ... الحجرة بريالين .

وصمت قليلا وراح يرسل نظرات فيها حياء وأمل في صاحبي الواقف بجانبي .

ـ ولكن كم حجرة تريد ؟ ربما استطعنا مساعدتك ؟

كانت كل الايدي السمراء قد توقفت عن العمل وراحت عيونهم ترسل نظراتها الباردة الينا .

ـ أوه ذلك ثمن مرتفع ، ثم ان منزلي بعيد وصعب ايصال هذه الاحجار اليه .

وتركنا العيون السمر . وكانت همساتهم قد فقدت الامل في قوت ذلك النهار . ولكن السواعد عادت باصرار الى نقر الصخرة . وعاد الرجل الذي كان يحادث صاحبي الى مكانه وهو يلعن في اعماقه كل اولئك الذين لا يشترون عرقه .

عبرنا النهر في طريق العودة . كان جافا يلهث من العطش ، واشجار صغيرة تقاوم الموت باصرار ، ولكن المطر اخلف موعده هذا العام .

ونحن نخترق الغابة بحثا عن الطريق الى السيارة ارتفع صوت مرح :

ـ ايه ... ايه ... يا رجال الى اين ؟

من خلف شجرة كافور لمحت شبح رجل قصير ونحيل في ملابس رجل الجيش يشير الينا ولمحت على شفتيه شبه ابتسامة .

ـ السلام عليكم .

وأجبناه بصوت واحد :

ـ وعليكم .. ايه يا خبير ماذا تعمل هنا ؟

وأقبل الرجل القصير نحونا وكان في مشيته يترافص يمينا ويسارا ومرح طفولي يلمع من عينيه .

وبحب فياض أقبل مادا يديه وهو يضحك ، هازا أيدينا بقوة شاب فتي وكأننا اصدقاء عمر طويل التقينا فجأة بعد طول غياب في طريق جانبي من طرق حياتنا .

قال بصوته الضاحك وهو يتحدث بعربية مكسرة مدخلا في كلامه الكثير من الكلمات الحبشية .

ـ يت نبراشو (١) ؟ الجو طيب هنا أليس كذلك ؟

ابتسمنا . ورحنا نبحث عن ظل نجلس عنده وكانت شجرة كافور .

وسألته باسما :

ـ أنت عربي أم أثيوبي ؟

وضحك قائلا :

ـ ألاو قيم (٢) ... فانا في ملابس جندي في الجيش .

ـ وماذا تعمل هنا ؟

ـ أوه ! اعلم الجنود هناك على ضرب « الطبنجه » (٣) و « المتراليوس » (٤) في القرب من ذلك المكان . تحبوا تشوفوا ؟ هيا .

وقفز بنشاط من مكانه ولكننا لم نتحرك ، وعاد الى مجلسه . كانت النسمات تهب والرجل جالس أمامنا وقد بدأ قلق ما يغمر وجهه .

سألته حتى أقطع الصمت الذي هبط فجأة :

ـ من اين انت ؟

ـ من أين ؟.. من هنا !!

ـ لا .. أنت يماني ؟

قهقه بصوت مرتفع وكان ذلك بصورة مفاجئة :

ـ ها .. ها .. ها .. يماني .. كنت زمان ، ذا الحين جندي في الجيش حق النجاشي .. ها .. ها ..

قال صاحبي :

ـ كم لك هنا ؟

ـ والله شبت ولا أعرف كم لي ، من زمن الطليان يمكن .. من قبلهم .. يمكن .

ـ كم راتبك في الجيش ؟

ـ أوه .. الله يلعنهم ، قليل ، من قبل كان ثلاثين « بر » (٥) وذا الحين أربعين .

ـ تكفيك ؟

ـ من فين ؟ شوف مثلا ، لو طلبت منك حق القات الان ، هذا مجرد مثل ، معنى ذلك ان الفلوس ما تكفينا .

وابتسمت وقلت له :

ـ طيب من أي مكان انت من اليمن ؟

ـ من فين ؟

---

(١) أين كنتم ؟

(٢) لا اعرف .

(٣) بندقية .

(٤) رشاش « كلمات حبشية » .

(٥) دولار بالعملة الحبشية .

وحك رأسه ورمى بعينيه بعيدا كأنه في محاولة عنيفة للتذكر وقال فجأة :

– من فين .. من هنا ، ألم أقل انني حبشي ؟

وضحك وراح يحملق فينا ..

– لا أدري ، ربما ولدت هناك في اليمن.. وربما لا .. يمكن هنا، ماذا يهم الان ..

– ولكن ألا تذكر شيئا ؟

ولمحت على جبينه خطوط الزمن العنيفة .. وهز رأسه ولمحت أسنانه المكسرة في محاولة يائسة لصنع الضحك :

– أتذكر .. انا من جبله . تذكرت الان من مدينة السيدة بنت احمد (٦) لقد نسيت معالم البلاد..

واشار الى فمه الذي بدا ككهف مهجور تمرح فيه حيوانات مخيفة وكان هناك ثلاثة اسنان قذرة ارتكزت كقلاع حصن تهدم تحت ضربات جيش منتصر ..

– شوفوا .. مشينا ، ونسينا كل شيء .

وحك رأسه من جديد ، وكان قد نزع من على رأسه قبعته العسكرية فبدت شعرات بيضاء . كان رأسه مسرحا لجرح مخيف بقيت آثاره كتاريخ حي ..

وقال مشيرا اليه :

– كنا « شفته » (٧) .. كان هذا من زمان .. نهبنا كثير ولكن « الشفته » ما معاهم بركة .

– كنت تنهب اذن ؟

وضحك بمرح وأصابع يديه تلعب بالقبعة وقال :

– و « جدلنا » (٨) كمان ناس كثير ، شوفوا ابن الشيخ سالم هذا كل الذي حصله من فلوس كلها كنت انا السبب – وضرب صدره بقبضة يده بقوة – كل هذه الثروة انا السبب فيها ، لكن نصيب ، هو في السماء الناس تبوس يده وتقول سيدنا – جيتوش – (٩) ويذبحوا له الذبائح ويحترموه .. الزمن ملعون ، شوفوا انا الذي كان السبب في كل فلوسه ، اليوم ما يعرفنا يمكن حتى لو شافنا ما يتذكرنا .

وصمت . وراحت عيونه تبحث في الماضي البعيد .

عندما كان يتحدث كنت أرى سرورا عميقا يرتسم على صفحات وجهه ، ربما لانه وجد اناسا ليستمعوا الى حديثه .

تربع فجأة على الارض فوق التراب ، كان قد قرر ان يستمر في ذكرياته .

– شوفوا ، كان هذا زمان ، لكنا تعبنا ، درت الحبش كلها ، رحت « جمه » أجارو و.. و... وراح يعدد اسماء مدن وقرى ومقاطعات لم اسمع بها من قبل .

– في بلاد الولو مثلا .. كان في واحد ذبحاني ... لكن رجل.. كل الاحباش كانوا يحترمونه . كان شجاع يصيح يخاف الاسد من صوته . وكان معه بنت زي القمر .. ذا الحين قدها « تتشرمط » قلنا له اعطينا البنت ، قال اجلس معي هنا في الدكان ، شراكة الشيطان ملعون ، قلت لا يا وليد روح دور في بلاد الله ، أجاء « الشفته » وقتلوا الذبحاني ونهبوا دكانه وبيته . كان غني معه يمكن عشرين الف « بر » اليمنيين كلهم مضيعين ما معاهم حكومة تبحث عنهم هذا ترك اربعة اولاد صغار ، ذا الحين قدهم مع الكريستيان (١٠) الحبل (١١) معلق في رقبتهم واختهم راحت فتحت لها « طج بيت » (١٢) .

كانت الذكريات تعذبه ولكنها كانت عذبة وهو يحكيها لنا لعله لم يجد اناسا يجلس اليهم ويحكي لهم حياته .

– تعرفوا رحت كل مكان شف الحدود حق السودان وحق بلاد ثانيه .. هناك ما يدفنوا الميت ، لما يموت واحد منهم يأكلوه ، ما عندهم مقابر ، لكنهم رجال ما يخافوا زي النمارة ، العيون حقهم حمر و ....

وقاطعه صاحبي :

– طيب ما تشتهي ترجع اليمن ؟

ظهرت سحابة حزن ، وسرعان ما عاد وجهه الى طبيعته :

– وأيش نعمل هناك ، لا اهل ، ولا اولاد ولا احد . الله يعلم ايش حصل لهم .. دخلت اثيوبيا وانا ابن اثني عشرة سنة . خلاص الان قد نحنا « ايمارى » (١٣) نخدم الامبراطور ونحصل ماهية . زمن الطليان تعلمنا الضرب على « المتراليوس » والطبنجه وكل حاجة . تعرفوا انا كنت في الجيش حق الطليان وبعدين هربت ... قوموا با أريكم كيف اعلم الجنود . هنا قريب – واشار بيده – هنا .. عند الشجر .

كانت الشمس حارة والسماء صاحية ووجه الجندي المجعد الذي يدل على ان عمره قد تعدى الستين ولكنه محتفظ بنشاطه وحيويته يرسل عرقا باردا .

وقال فجأة بعد ان صمت بعض الوقت :

– هنا الدنيا حر ، تعرفوا كيف ينام الناس هناك ..

واشار ناحية الغرب ..

– كلهم هناك عرايا حتى الحريم ، بس ورقةواحدة في الوسط . وفي الليل برد كثير كلهم يناموا سوا وفي الوسط يحرقوا الشجرة .. عرفتم يعملوا دائرةوالنار تدفيهم.. كلهم سوا سوا..«الشماجلي» (١٤) و «الليجوش» (١٥) و «السيت» (١٦) يدفئوا بالنار وبيتهم .

وضحك كثيرا وهو يقوم ..

– انا كمان نمت معاهم .. البنات هناك ملاح ، كلهم عرايا ، بس ورقه .. الصدر مثل الرمان كم قطفنا .

وضحك .. كان هذا زمان .. زمان .

كنت انظر اليه وكان مرح طفولي يختلط بنوع غريب من الحزن وكانت الكآبة تحوطني .. يا الهي لقد فقد الرجل حتى لغته .

وسألته :

– والان ايش باتسوي ؟

---

(٦) السيدة اروى بنت احمد الصليحية .
(٧) قطاع طرق .
(٨) قتلنا .
(٩) مولانا .
(١٠) المسيحيين .
(١١) اشارة الى ان المسيحي في الحبشة يربط حبلا صغيرا حول عنقه ليتميز عن المسلم .

(١٢) البيت الذي يبيع الخمر والجسد
(١٣) امهري ، اي مسيحي .
(١٤) العجائز .
(١٥) الاولاد .
(١٦) النساء .

ـ ولا حاجة .. أروح اعلم العسكر ..
والتفت الينا فجأة وقال :
ـ هل عرفتم « جبله » (١٧) ؟
أجابه صاحبي قائلا :
ـ نعم لقد درست فيها زمان .
وراح يخط على الارض شيئا اشبه بالخارطة قائلا :
ـ من العدين تطلع طلع .. وهنا جبل المعاكر وفي الجنوب تعز وجبل صبر وتحت تقع مدينة اب .. و و ..
وقاطعه الجندي قائلا :
ـ زمان .. زمان كل شيء اصبح بعيدا .
واراد ان يستمر الا ان صاحبي نظر الى الساعة ثم وقف فجأة وقال :
ـ ما تروح المركاته ؟
ـ الا .. في هناك ناس اعرفهم ، وهم ما يحبوني لانـي عسكري كريستيان ...
وقبل ان ينهي كان صاحبي يمد له يده مودعا :
ـ لما تأتي المركاته أسأل عنا .. يمكن نقيل (١٨) سواء .
قال الجندي بصوت حزين :
ـ ان شاء الله ...
ثم اضاف بصوت هادىء :
ـ ما تشتو تشوفوا كيف نعلمهم ضرب النار . (واشار) . هنا .. هنا قريب
ـ لا .. مرة اخرى نحن مشغولين
وبحركة نشيطة ادى لنا التحية العسكرية . ورأيت خيبة امل ترتسم بعمق على صفحات وجهه الصغير .
وغادرنا الى محل تدريبه ولمحته من خلف اشجار الكافور في تلك الغابة الصغيرة وهو يؤدي التحية العسكرية لجندي اخر ربما كان أعلى منه رتبة وحمل الريح صوته وهو يعتذر عن التاخر .
كنا نسير، وكنت في المؤخرة . ورحت افكر في مصير احدنا نحن الضائعين في بلاد الاخرين وقال صاحبي
ـ لقد شرب الرجل قبل ان يأتي الينا .
ونظرت اليه وهو يسير امامي : كان هو الاخر يفكر في ذلك الانسان الذي سوف ننساه بعد ساعات .
وقلت .
ـ لم يبق له من امل سوى ان يشرب ويشرب . لقد فقد كل شيء . بلاده . لغته واصله حتى الامل ، دعه يشرب انه مجرد انسان ضايع كمئات اخرين في هذا العالم .. امله الوحيد على الارض كأس من الخمرة الرديئة وربما جسد امرأة
وضحك صاحبي قائلا :
ـ تلك هي نتيجة الجهل
وأضفت :
ـ والهروب الى بلاد الاخرين .
كانت السماء صافية . ورأيت عصافير صغيرة تحلق في الافق ، وكانت تلال صغيرة وجميلة ضائعة في وسط حدائق خضراء ولمحنا السيارة . وعندما انطلقت بنا كانت بيوت صغيرة على ابوابها ستائر من نساء وقفن مرهقات يبحثن عن زبون وربما كانت تلك الفتاة التي حدثنا عنها الرجل واقفة هنا ايضا ..
وراحت السيارة تخترق شوارع العاصمة ..
وانسان ما كنا قد نسيناه يقبع هناك في الغابة يبحث عن شخص ما لينهي له قصته .

صنعاء **احمد عبد المولى**

---

(١٧) مدينة مشهورة في اليمن كانت مقرا للملكة أروى بنت احمد الصليحية .

(١٨) نقيل .. اي نمضغ القات سويا .

اللاجىء و كثبان الرمال

الى الدكتور خليل حـاوي الذي قال : « نهضت تلم غرور نهديها وتنفض عنجدائلهاحكايات الرمـال »

(١)

يا شمس الشرق
في قلبي ومض يحرق حرق
شلال من نور دافق
وأنا وامق
بي لوب الصحرا من ظمئي
ومن الابحار وراء سراب في الصحراء
أحس دوار
غادرنا الامس، ربا بيسان الى الصحرا
يحدونا العار ، بلا اطمار ، بلا ذكرى
يممنا الشام ، رجـاء خيام للفرسان
على « دمر »
لتعيـد الدار ، وتمحـو العـار ،
فلم تقـدر
فربوع الشام غدت صحرا
لا تعطـي الماس ولا السكر
شريان البحر بهـا يصهر
ويذوب الحقل مدى أصفر
لا طين هنـاك ، ولا عنبر
ويموت الفرق
يا قلبي الاسمر ما عدنا في أرض الخلق
أصحو يا قلبي ما عدنا في أرض الخلق
فهنا الصحرا

(٢)

أشرعت خيامي في الصحرا
وأنا بالرمل ، أنا أخبر
الرمل يعب النار اذا
ضاقت بالنار حشا الشمس
والرمل يميت القلب اذا
ضنت بالبـرد حشا النفس
والرمل يثور ، الرمل يغور
وانـا بالرمـل انا أخبـر
ريح الصحرا تطفي الاعين
وأنا الصحرا ، وأنا الاعين
وأنا بالرمـل أنا أدفـن
من جـاء على رملي يسكن
فأنابالرمـل أنا أخبـر
ثوري يا أعمـاق الصحرا
أقبـل يا رمل الاعصار
انني أختـار
اعصار النار
قلـب الصحـرا

(٣)

ويطـل نهار
ويغيب نهار
ويمر على شفة الصحراء لهاث غيوم
مشاه الشوق على الرمضاء فصار سموم
لا يغني الـريف ولا الصحـرا
تلقيـه تخوم نحو تخوم
ويظل جداه مدى اصفر
وأمسى ذكرى
لربـا تسهر
ترجو يوم الوعد الاخضر
بظهور نهار
وغياب نهار

(٤)

ما زال الطرق على بابي
صوت الاجداد واحبابي
« لا تنسى في الصحرا واحه
ابحث لا تركن للراحه »
يا قلبي ألقي أقداحه
والصحرا لا تعطي السكر
شريان البحر بها يصهر
مائي مرمر
« ربي الاسمر » مائي مرمر
هبني ماء يطفي دمي
هبني قطرة
لا أبغي لا أبغي أكثر
ماتت أفواج في الصحرا
أين القدرة ؟
لا أبغي الكفر ، ولا أصبر
أين القدرة ؟
هل صارت ... هل صارت ذكرى ؟
؟ ؟ ؟ ؟ ؟
ويعود الصوت بلا نبره
لا رجع هناك ولا زفره
فأمد يدي الى المزمار أعيد شعار
ثوري يا أعماق الصحرا
أقبل يا رمل الاعصار
ويطـل نهار ويغيب نهار
ونظل شعار

(٥)

يا حبي ... يا حبي الاول
سيجيء اليوم وان طول
ويمـر الركب عـلى دمر
ركب الفرسان بني الصحرا
فيعيـد الدار وتاج الغار
الى الصحرا

(٦)

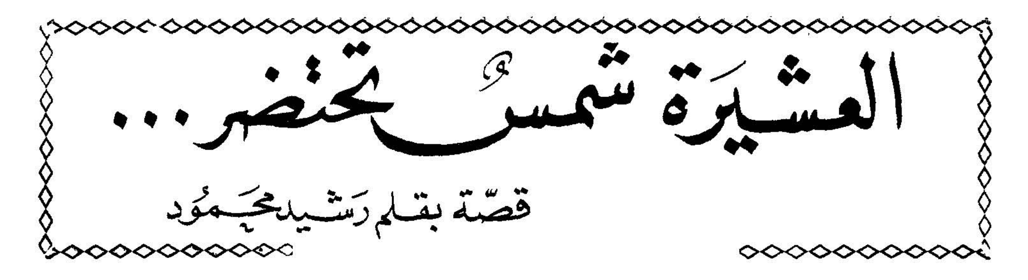
رؤيـا

أشعر .. أشعر
قلبي يكبر
ضم المشـرق
ضم المغـرب
تغفو الدنيا في أجفاني
كفي يعطي الناس القدرة
وأنا الاكبر
جنحي الايسر في أمريكا
جنحي الايمن في اليابان
هذا الانسان
قلب أكبر من أحفاده
يعطي أكثر من نيسان
هذا الانسان
يا شمس الشرق

(٧)

ويطل نهـار ويغيب نهـار
ويظـل الحـلم لهاث شعـار
كعبير بهار
في أقصى الشرق
ويعود يدق فم الصحراء لهاث شعار
ثوري يا اعماق الصحرا
أقبل يا رمل الاعصار
وأنا وامق
بي لوب الصحرا من ظمئي
ومن الابحار وراء سراب في الصحراء
أحس دوار
وأظـل العمـر – برغم النـار –
أعيد شعار
ثوري يا اعماق الصحرا
أقبل يا رمل الاعصار
ثـوري . . . .
. . . .

سوريا — **علي عقله عرسان**



انتا نغرق ..

نرتمي في سراب الوهم دون اختيار منا .. نبحث عن ظـل نركن اليه من هجير الابد لنعبر مرحلة الاحتضار ، ولكنا نرجـع وفي جنباتنا ينتحب الحنين ، والندم ..

القطار يجرر جسده الحزين ..

وأنا أشيع الوجوه الجامدة ، بنظرات يقيـل فيها البوار ..

وقلبي شرع يتلاشى ، يحترق ، ينشر دخانا فضيا له رائحة الشواء ..

القطار يغلل في حشا الظلمة ..

والعربات مقفرة بلا مسافرين .. عواء مخنوق يتفجر في ارصفة المدن الضائعة في هباب المداخن .. طارحا في فناء نفسي نحيب ارتحال ابدي .. وتجتاح العربات موجة خانقة من الاسى .. سدت علي منافذ النجاة وأوصدت دوني ابواب الرجاء .. انها هنا ، هناك ، في كل مكان اهرب منه واتوجه اليه ، انها اللعنة الابدية التي تتعقبني، وتترصد خطوي لتنسف جسر الكراهية المعلق فوق نهر الدم الـذي يجري في جنبات صدري ..

وجوه مستعارة ، تطاردني ، وتحيط بي في أي مكان أحط بـه رحالي .. انها ظلال حية لوجه الجريمة الذي تردى وسط جنـازة من الصمت الحزين ..

صفير القطار الابح يجرح هدأة الليل ..

وغشيت عيناي خلف رداء من الدموع .. شواظ من نار يـدوم في عراء الدهر .. سحابة سوداء تحجب الشمس ، تشوهت الاشكال.. الشارع قفر .. خلو من العابرين ، قيظ الظهيرة يشوي عيني .. غامت المرئيات ، امحت الظـلال ، تلاشت الصور ، غرق كل شيء بالذهـول ..

شددت على المسدس ...

وفي دوامة الصخب القاسي المصمم .. بدأ كل شيء وانتهـى كل شيء .. دوي الرصاص يغسل صمت هـذا النهار الغريب وينداح في لجه المدمى ، قارب نكس رايـة الاسى ، مركب نار راح يمخر عباب يوم من الشقاء ..

ثـلاث طلقـات ...

وتدفقت قرب الكآبة .. وضعت في قرى الضباب .. سيـاط حقدي ما زالت تنبح كقطيع ذئاب جائعة ..

ثـلاث طلقـات ...

قرعت بهن نافذة الفناء ..

سخطي كابوس سيظل يسلط مداه ليغمدها في قلبي حتـى يصيب مني مقتلا ..

سخطي .. وجه اخر مستعار ، صدى ترده أجنحة الوجـل التي تتمطى في ذاتي .. وجه زنجي ، يخلق في صمتنا تسكنـه الدموع .. ثلاث طلقات .. قرعت بهن نافذة الفناء ...

مرجل القطار يهدر .. جنت العجلات وهي تخترق ظلمة الليل.. القطار غراب اسود ، بومة نعقت في الهجير ..

وأندس في سريرة الذكرى ، في قتامة الظل الذي يسترخـي في ساحات نفسي ، يهبط علي كنجم مطفأ ..

المطر يهطل ، الطـريق موحلة ، وحقيبتي تهتز بيدي ، قريتي ميتة ، وفي قلبي يزهر الشتاء ، وجوه تلوح ، يسورها الغموض ، عيونهم قبور تفـع بالديدان .. أحكم الحصـار ، طروادة تمـوت مرة اخـرى ..

نهر الفرح الذي كان يجري حين عودتي ، غاض ينبوعه ، جف ، واصبح ضحلا ، مستنقع آسن ، ينشر الذباب والوباء ..

قريتي ميتة .. وفي قلبي يزهر الشتاء ..

* * *

باب دارنا الكبيرة موارب ، سكون شامل يلف المكان ، كـلاب قريتنا تنبح بحزن ، وورائي كانت تختنق البيوت الرمادية .. وتختفي خلف سياج من الاسرار ، وفي ظلام ما قبل العتبة ، تجشأت تعبي .. سقوط مفاجيء .. انحدار نحو الهوة .. لهب حقد جهنمي يلتمع في عيون ابي واخوتي .. يجيئني على شكـل جمر متوهج ، ينعكس عليه ضوء الفانوس الهزيل .. وانتابني البلبال .. وابتدأت النوبة.. الذراع تسقط .. تسترخي .. الحقيبة فجر محطم .. الرجفـة تجتاحني ، أهتز كنابض آلة بالية .. والدتي تهرول .. ثوبها اسود ، في عينيهـا دمعتان هبطتا قسرا عنها .. ترتمي على صدري ، ثـم تنتحب بحرقة وألم .. تماثيل حقد سمرت على الجـدران .. الجمر المحرق يزداد توهجا .. حمامة وديعة بيضاء أقفرت منها الدار ..

ـ أماه ، هل ماتت (سمره) ؟

وجاءني الجواب كنصل سكين عتيق ، يتألق بالدم ..

ـ ياليتها ماتت ..

كلمات القاها ابي وكأنـه يهشم حشرة شريرة .. كأنه يـلوك مضغة من لحم صبي ميت خنقه بين اصبعيه ..

كف عن هذا يا أبي ، أبتهـل اليك أنقذني من القبر الـذي أوقعتني فيه ..

وأجلت بصري فيهم علني اعثر على جواب يبعد عني هـاجس الشك ، ومرارة الانتظار .. ولكني رأيت شيئا رهيبا انتشلني مـن بئر الحيرة الذي ترديت في قرارته ... « رأس والدي بلا عقـال .. اخوتي كانوا منكسي الرؤوس حـاسريها .. العشيـرة تحتضر .. القرية ميتة .. الشوك ينمو في العيون » .. وأسقط في يـدي ، فهمت كل شيء .. والدتي ثوبها أسود .. سمرة ميتة .. ورجعت ادراجي الى سنين مضت .. كانت كلمات والدتي ترن في اذنـي ، ولا زالت تتناهى الي مليئة بفيض عارم من فتوة ورجولة ..

« العقال يا بني لا يرتديه سوى الرجل ، والرجل الرجل هـو من حافظ عليه ، وظل رافع الرأس وعلى حرامه الابيض مـلاء النقاء عقاله عنوان الرجولة الكاملة ، وشارة شرفه وكبريائه كرجل ..

عقال العشيرة ملوث يا ابي ولا يغسله سوى الدم .. وعشـى بصري ذلك الاحساس الحاقد الذي يفح في اعماق عشيرتي كلفـح سعير سيظل مضرما حتى تجيء الذراع وتملكني هذيان رهيـب .. وعلى وجهي عبر طرقات القرية كنت اهرول بلا عيون .. صوت والدي .. يبدد شقاء يسبح في سمائي ..

ـ لا تطفيء مستقبلك يا بني ، سوف ينتشر اخوتك في كل البلاد حتى تجيء الذراع .. ستجيء الذراع يا ابي .. سماء الـدم .. سافرت ورائي ... ولن اعود الا ومعي الذراع التي ستشنق مـوت قـريتي ..

عشيرتي شمس تحتضر .. وسوف تعبر مرحلة الاحتضـار .. الوجوه ستنزع قناع الغموض .. ونهر الفـرح نهر المخلوقـات البشرية التي حنطتها المأساة .. سوف يجري كما كان في الماضي...

ليلة بلا نجوم .. تلك التي وصلت بها المدينة ..

وتلتها ليال كن اشد ظلمة منها .. وفي هذه الاوقات البطيئة، كانت تنمو في اعماقي ديدان الحقد ، وتكبر .. كنت اعمى .. بلا عيون .. بلا افكار ، غير حثالة حقد حبيس كان يهدر كمرجل هذا القطار . فجأة .. ووجدت نفسي على شفير الهاوية .. ولحقني العويل .. ونبح ذئب الحقد ، وكبرت الصور .. وتجسم المنظر .. الشارع قفر .. واستيقظت سماء الدم .. شددت على المسدس .. ثلاث طلقات وفتحت نافذة الفناء .. المدينة تركض خلفي .. سحب سوداء تلاحقني ..

وجوه مستعارة .. لهيب أسفي .. سخط .. الكابوس .. لم تكن وحدها .. كان بطنها منتفخا .. عيون الطفل ترجمني .. الجرائد تقفى اثري .. تغمد خناجرها في عيني ..

« حقوقي يقتل شقيقته »

« شاب بدرس القانون يذبح اخته الحبلى » .

وانهار كومة من ضجر محطم .. حثالة حقد عبرت بلا قائد .. قناديل حياتي التي أسرجتها بالربيع ، انطفأت وكانت السقطة .. قبري الابدي ...

القطار ينحدر في قلب المدينة .. ويهدأ هدير مرجله ، تنتشلني من وهدة أفكاري جلبة المتفرجين .. وانتابني حس السقوط المفاجيء .. شعرت انهم يشيرون الي صائحين « هذا هو القاتل » .

وأهبط المدينة كفرقة تنتحب .. فقدت قائدها في معركة ضارية .. ويرعى الهرم في دياجر وجهي .. وفي عتمة الليل يحلق غول له آلاف الايدي والارجل ، يلعق الدم ، في شارع قفر . وعيون طفل صغير تتدحرج في توسل أليم ..

هاجس النبذ ، يساورني .. كنت أنفصل بوحشية عن العالم.. يسيل في جسدي قدر هائل من التفاهة وأصلب نفسي على خشب الهجير التائه في مجاهل الازل ..

أردت ان اتدفق امام العالم .. حوالي ذاتي ، ليمتلىء العالم باشكال تشبهني ، ولكني هويت تحت العالم .. كجرذ قذر ، يسير متنكر الوجه .. أسود النفس .. يحمل معه سر ماساته . ويجر وراءه صليب تعاسته الدامي ..

ابراج الحياة التي كنت اعد نفسي لاحلق فوق قممها كسرب من حمام ابيض ، ترنحت .. وانهارت ببطء . منذ ان هوت اجنحة تلك الحمامة الوديعة .. وعفر دمها ارضية الشارع القفر .. حين ابتدأت النوبة ، ونبح ذئب الحقد كنت أنا زائدا عن اللزوم فحجبت عن بصري الاشياء .. وحط على مقلتي ملاء دم .. بومة تعقبت فانتحب الحنين في دمي .. وبكى الندم . وانا الان امرؤ زائد عن اللزوم ، علي ان اتلاشى ، أنزوي لاتخلص من خطأ اللعنة من الوجوه المستعارة التي تتقفى اثري ..

مركبات النار تمخر بحار الشقاء .. عربات الحزن .. ترحل على متن غيمة من الاماني المطفأة .. ومن البعيد لمحت حلقات دخان فضي تتكدس كسحاب اسود يحجب الشمس ، كتلك السحابة فيذلك النهار الغريب . المدينة تهجع امامي في استسلام حزين .. القطار يتدحرج من جبل شاهق ثم ينساب على السفح كحية سوداء . ثمة أنين ما يتناهى الي متقطعا من مكان قصي ناء .. ربما هو ات الي من قريتي .. من نهر المخلوقات البشرية الحزين . وامسكت المسدس بيدي .. اللحظة الحرجة تقترب ..

غسلت عقال العشيرة الملوث بدم سمره وسوف اغسل عقال العالم بالدم ايضا ولكنه سيكون دمي هذه المرة ..

ثـلاث طلقـات ..

ودخلت النافذة المفتوحة ..

العالم ينتهي .. رجة عنيفة ، اعقبها نواح خافت .. وتدحرجت كومة من ضجر محطم ..

الشمس شبه ميتة .. كانت تحتضر تتوارى .. عشيرتي ..يارب شمس تحتضر .. ان لها ان تموت

رشيد محمود

القطر السوري ــ الرقة :



– ٢ –

استعراض المبدأ

مبادىء الفكر :

ولثباتية تلك الافكار (*) ، أي لكونها عنصر الحقيقة الثابت ، أسميت « بمبادىء » أو « قوانين الفكر » ، فهي على الرغم من انتمائها الى عالم النفس الذي هو أبعد ما يكون عن الاطراد على وتيرة واحدة ، الا ان لها مع ذلك، من اتفاق العقول على اقرارها تلقائيا ، ما يجعلها تشبه فعلا القوانين الطبيعية في عموميتها وموضوعيتها ، فليس عقلي أو عقلك فقط هو الوحيد الذي يسير على نهجها في تفكيره، بل وكل عقل سليم راشد ، فلا يمكن لاحد مخالفتها، الا ليصل الى التهافت والعبث ، كما لا يمكن للغير ان يتفهم – في حالة مخالفتها – ما يجدر بالعقل تفهمه .

وهذه الصفة للقوانين ليست صفة كمالية ، (درجة رفيعة من مستويات التفكير) بحيث ان توفرها افضل فقط من عدم توفرها ، كلا بل ان ورود التفكير عليها شرط اساسي لكل تفكير مهما كان « مستواه » من العمق او الضحالة ، فالمرء يشعر أنه ملزم باتباعها كلما خطر بباله مخالفتها ، ومن ثم قيل « ان الحكم المخالف لهذه القوانين هو غياب النفس » (١).

وما دامت لهذه القوانين القوة الملزمة باتباعها فنحن نسير بمقتضاها مباشرة وبكيفية تلقائية ، أي اننا درجنا على التسليم بها دون مناقشة ، بل ان كل برهنة تدور جولها – لغرض اثباتها ولغرض انكارها تستلزم بالضرورة الاعتماد عليها هي بالذات اولا وقبل كل شيء – والا لما امكن ان تكون لهذه البرهنة اية ميزة تميزها من سائر الاصوات التي لم تجعل لتفهم ، بعبارة اخرى ، فانها عندئذ لا تفتقد وحسب مدلول البرهنة بل وحتى مدلول الكلام.

فلهذا سميت تلك الافكار الثابتة ، منذ قرون عديدة، « بالقوانين » ، كما سميت « بضروريات الفكر الاولية » او « بديهيات البرهان الاساسية » وكل ذلك يرمي الى التعبير عن الصفات الانفة الاشارة ، أي « الاطرادية » والعمومية والالزامية .

لكن ما مصدر هذا الالزام ؟ هل هو فطري في العقل سابق على التجربة ام هو بالعكس مكتسب منها أو وارد بعدها ، فهو نتيجة لها ؟

الواقع ان البحث في هذه النقطة يخرجنا عن الميدان المنطقي ويلقي بنا عن غير حاجة في احضان الميتافيزيكا (١) – وقد لا تكون احضانا رحيمة اكثر من المنطق – والواقع ايضا ان المرء لا يمكنه ان يتحدث عن مبادىء الفكر حديثا غير مخل دون ان يتطرق الى هذه النقطة بالذات وامثالها مما يتعلق بالمبادىء من حيث طبيعتها وكيفية تكونها ونحو ذلك ، لهذا سأحاول التوفيق بين كلا الاعتبارين فاتحدث عن ذلك ولكن في الفصل الذي يعقب هذا الفصل الذي أود ان اخص به الجانب المنطقي البحت ما امكن ذلك.

الذاتية ومبدأ الذاتية :

قلت في اخر الجزء الاول من هذه الدراسة ان مبدأ الذاتية هو أهم تلك المبادىء الفكرية عموما . وذلك لامكانية ارجاع جميعها اليه ، فضلا عن اهميته بوصفه طريقة التفكير السليم (٢) وقاعدة الحقيقة الوحيدة.

غير انني قبل محاولة التحدث عن المبدأ – وارجاع الباقي اليه – يجدر لفت النظر الى الاستعمالات اللغوية المختلفة التي ترد فيها لفظة الذاتية ويمكن ان اقسم ابتدائيا ، هذه الاستعمالات على اساس ورود لفظة المبدأ او القانون مضافة الى لفظة الذاتية « او الهوية » او عدم ورود لفظة المبدأ ..

الذاتية في غير المنطق

ففي حالة ورود اللفظة غير مصاحبة لكلمة المبدأ يكون لها معان مختلفة من أهمها :

١ – في الناحية الادارية :

هي عبارة عن المميزات المدنية لفرد من الافراد، تدل عليها بطاقة رسمية تستخرج من الدوائر المختصة من قضاء ، وأمن .. وذلك طبقا للتسلسل العائلي والتحريات على العين والتأييد بالصورة الشخصية وما يمكن تسميته « بالمسح الفسيولوجي » أي قياس الميزات الفارقة والاشكال الملازمة للشخص من نتوء فك مثلا وطول قامة ، ونحو ذلك.

(*) راجع العدد الماضي من الاداب .

(١) المنطق الصوري صفحة ٥٨ .

(١) ولعل هذا هو السبب في ان غالب كتب المنطق الفرنسية – كما لاحظ الدكتور النشار في كتابه « المنطق الصوري » لا تبحث في هذه المبادىء ضمنه لاعتبارها اياها من الميتافيزيكا ، او لاعتبارها اياها اولى بعلم النفس ، والفعل فان كتاب اسس الفلسفة الذي اثبته ضمن المراجع الفرنسية في الترتيب السابع ، قد بحث المبادىء في الجزء الذي خصصه بعلم النفس ، وبالفعل فان كتاب اسس الفلسفة الذي أثبته ضمن المراجع قد اعتبرت العلاقة القائمة بين الجانب المنطقي والميتافيزيكي في المبادىء، انظر المنطق الصوري صفحتي ٥٥ – ٥٦ .

(٢) وكما قال ليبنيز متحدثا عن جملة المبادىء التي ارجعها اخيرا الى مبدأ الذاتية « والسبب الكافي » : « فكما انه لا يمكن السير بدون عضلات واوتار فكذا لا يمكن التفكير بدون هذه المبادىء » .

وفي هذه الحالة غلب في العربية استعمال لفظة « هوية » خاصة ، وندر استعمال اللفظة المرادفة لها «الذاتية » .

٢ ــ في الطب الشرعي :

عندما يحصل الشك في ان الشخص الفلاني هو صاحب الجثة الفلانية ــ ميتة غالبا ، وحية احيانا ــ فيتوصل الطبيب المختص الى اثبات او نفي التطابق بينهما ــ الشخص والجثة ــ وذلك باستخدام طرق تستند الى علم الحياة (البيولوجيا) فضلا عن «المسح الفسيولوجي»، فهذا التطابق تطلق عليه لفظة الذاتية او الهوية.

٣ ــ في الرياضة :

« هي التساوي المعهود بين عددين كل منهما يبلغ في مجموعه مقدار ما يبلغ الثاني ، مثل ٢ يساوي ٢ أو ١ زائد ٢ يساوي ٣ .

وتطلق كذلك على التساوي بين عددين لهما نفس القيمة العددية مهما كان بينهما من اختلاف في القيمة الحرفية ، مثل السطح المعتبر :
(أ زائد ب)٢ = أ٢ زائد ٢ أب زائد ب٢ ، ويرمز لهذا التساوي كما هو معروف بالعلامة = » (١) .

ثانيــا :

١) في علم النفس :

اذا كان التقسيم الذي عرضت آنفا جزءه الاول مبنيا على اساس عدم اضافة لفظة المبدأ او القانون الى « الذاتية » او « الهوية » وما سأعرضه الان مبنيا على عكس ذلك ، فيجب ان يكون ذلك منظورا اليه من حيث الاصل او الغالب فقط ، وليس من حيث التجوز والندرة، فمثلا رغم نفور ندرة ورود عبارة كـ « الهويــة » عند الحديث عن حق المواطن في التمكن من الحصول على بطاقة التعريف به الشخصية ، الا ان ذلك غير خطأ ومغتفر خصوصا لدى عامة المستعملين .

كذلك قد لا تكون « الذاتية » او «الهوية» مسبوقة بلفظ المبدأ او القانون ومع ذلك يكون لها معنى من غير المعاني الآنف شرحها في الفقرة السابقة .

وهذه الحالة الاخيرة تنطبق في علم النفس عند الكلام عن واحد من مميزات الشخصية ، وهذا المميز المقصود ليس سوى مبدأ الذاتية « مطبقا في المجال النفسي تحت عنوان اخر مثلا الشعور بالاستمرار » Sentiment de Continuite او الديمومة «Duration» (٢) . ومع ذلك فكثيرا ما تطلق لفظة الذاتية اطلاقا، فلا يضاف اليها لفظ المبدأ او القانون، حتى لتصبح ــ كلمة الذاتية ــ او الهوية ــ مرادفة في هذا المجال النفسي لكلمة الشخصية «Personnalité» في حين انها ليست اكثر من مميز لها ومقوم من مقوماتها ، على ما سبقت الاشارة .

غير انني ما دمت لم اتحدث بعد عن الذاتية بوصفها مبدأ ، فينبغي ان اكتفي الان بمجرد القول بان معناها في علم النفس قريب من : « تطابق الشخصية مع نفسها » وليس قريبا من « التطابق بين الشخصية وجثتها » خلافا لما هو الشأن في الميدانين الاداري والشرعي السابقي الذكر . غير ان ذلك لا يحول دون الملاحظة بأن هذا المعنى نفسه المستعمل في سياق الحديث عن مميزات الشخصية لكونه تطبيقا للمبدأ في المجال النفسي ، صالح لان يكون تمهيدا لمعنى الذاتية في المنطق ، هذا المعنى الذي هو بالدرجة الاولى محور البحث.

والسببين معا ، أي لتوضيح معنى الذاتية في علم النفس ولتمهيدية مثل هذا التوضيح لمعناها في المنطق، أقدم الترجمة التالية التي اخترتها من احدى الموسوعات الاجنبية :

« الذاتية في علم النفس عبارة عن تلك العاطفة التي تحمل الفرد منا على الشعور بانه عين الشخص الذي كان في الماضي ، في الامس القريب والامس البعيد ، بل والذي يرتفي الى ما وراء ذكرياتنا نفسها ، ويكون ذلك من الوضوح والقوة بحيث لا يسع الواحد منها ، بمجرد ان يبتدىء التفكير في ذلك ، الا ان يتعرف في نفسه ، على ذاك المسمى الباطني الذي يدعى « انا » ، والمرء اذ يتعرف على هذه « الانا » ليدرك فورئذ انها قد ظلت هي هي فلم يعترها تباين فيما بينها ، وذلك رغم التغيرات والاحداث التي لا تفتأ تطرأ عليها ، فسواء اكنت في حالة أكل أم شرب، وسواء أكنت أترشف من رحيق اللذة أم اكابد من مرارة الالم ، بل وسواء اغادرتني حالة اليقظة الى النوم نفسه ، فانني دائما اظل انا الذي اكلت وشربت ، وانا الذي خبر اللذة والالم، وانا الذي انتابني ايقاع النوم والاستيقاظ ، كنت رضيعا ويافعا ، وكنت في ربيع العمر وصيفه ، وها اني الان في خريفه ارتقي ذروة حياتي وانا على نفس الشعور بتلك « الانا » المستمرة ، وباني واحد خلال جميع هذه الاطوار، وخلال جميع ما جرى فيها من اختلاف بين مشاربي واذواقي وتبدل بين ظروفي واحوالي.

وهكذا فان انيتي وشخصيتي ووجودي ، الاكثر باطنية ، لتبدو لي ، رغم كل ذلك التغير ، انها لم تنقطع اقل لحظة عن استمرارها وبقائها هي هي » .

الذاتية في المنطق

هذا هو القسم المقصود من الذاتية ، وهو القسم الوحيد من بين جميع الاقسام السابقة ، الذي ينضاف فيه لفظ المبدأ الى لفظ « الذاتية » بدون ذلك التجوز او المخالفة للاصل ، كما ان لفظة الذاتية في هذا الميدان تظل بمعنى مطابق للمعنى الحاصل من التضايف ــ حتى ولو لم يذكر لفظ المبدأ .

بعد هذا نتساءل عما هو المقصود بخصوص هذه اللفظة المركبة أي « مبدأ الذاتية » بعد ان القينا فيما مضى لمحة على مجمل مبادىء الفكر بصفة موجزة عامة .

اما المبدأ نفسه او القانون فقد سبق ان اشرت الى ما يكفي في توضيح معناه ؛ واما الذاتية فهي ، لغويا ، مشتقة كما هو واضح من « ذات الشيء » . ويمكننا ان نظل ننقب في القواميس العربية المحيطة دون ان نخرج في النهاية باكثر من ان ذات الشيء هي « عينه وحقيقته » ،

---

(١) من دائرة « لا روس القرن العشرين » Mot identité

(٢) كان يمكن ان يقال « دوام » بدل « ديمومة » غير اني اخترت الثانية لانها اقرب الى معنى المصدر والفعل من الاولى (الاولى اسم مصدر ، والثانية مصدر) ولهذا السبب نفسه اخترت مقابلة «الديمومة» باللفظة «Duration» بدلا من اللفظة «Durée» التي يجب ان تبقى على هذا الاعتبار ، مقابلة لـ « دوام » ، ومعروف ان هاتين الصيغتين الاجنبيتين تختلفان الواحدة عن الاخرى من حيث الاعتبار نفسه ، اذ ان الصيغة المنتهية بـ «tion» هي غالبا تدل على الحدث ، وليس الامر كذلك في «Durée»

وذلك ــ اعني حصر نتيجة التفتيش اللغوي في المعنى المذكور ــ حسب محاولة قمت بها شخصيا في اكثر من قاموس « وجاسوس على القاموس » ونحوهما من الكتب التي تطيل ولا تنيل ، وتضيع ولا تعيض .

« والهوية » هي المرادف الاكثر فلسفية والاكثر ابتعادا عن نطاق الاستعمالات الادبية ، وذلك لانها ، اولا ، كلمة لم تتولد الا في احضان الفلسفة والمنطق ولانها، ثانيا، مأخوذة من صيغة لا يعرف امثالها كثيرا من الاشتقاق في العربية قبل ــ المعاصرة ، واعني بها « الضمير » اذ انها مشتقة من « هو » وذلك من نحو قولهم ــ ان (ما هو ، هو) او ان لكل شيء حقيقة لا تتغير ونحو ذلك من التعاريف التي تدور حول ثباتية «الجوهر»او «الماهية»او الحقيقة(1) .

والملاحظ ان التعريف المنطقي للمبدأ يكاد لا يختلف عن هذا التعريف اللغوي للفظة الهوية . فهو اذن اهم من لفظة «الذاتية» ، غير ان الاقتصار عليها تعريفا يظل اقل من القليل ، ولذلك فيجب الا نعتبره اكثر من نقطة انطلاق الى مزيد البسط والتوضيح .

وقبل ان نغادر مجال التعريف اللغوي قد يحسن ان نلاحظ ان المصطلح الفرنسي المقابل لمعنى الذاتية او الهوية هو « Identité » وهذا لا يستدعي اي تنبيه لاي ملم باللغة ، غير ان الامر ليس في مثل هذه البساطة في حالة تعدد الاستعمالات من الميدان الاداري الى الشرعي الى النفسي والمنطقي ــ ففي الفرنسية تستعمل اللفظة الآنفة في اي من هذه الميادين ، اما في العربية فقد جرى العرف على تخصيص لفظ الذاتية بغير الميدان الاداري واطلاق لفظة « الهوية » في اغلب الميادين وخصوصا في الميدان الاداري ، وهذا خلاف ما يتبادر للذهن حيث كان « الاولى » بالهوية ان تبتعد ، لاصلها الفلسفي ، عن الميدان الاداري ... وقد تقدمت الاشارة الى شيء من هذا الاستعمال .

فاذا كنا انتهينا من ذلك فعلينا الان ان نشرع في الاجابة على السؤال ــ ما هو بالضبط والتفصيل معنى الذاتية ــ او الهوية ــ في المنطق ؟

والواقع ان المبدأ في شكله العام جد مشهور ويعرفه كل طالب في الثانوي ، ولكن نظرا الى ان الغاية من عرضه هي مناقشته وبالتالي بيان حقيقة طبيعته ، فلا بد قبل ذلك من التذكير بنماذج مختلفة من تعريفات المناطقة له .

مبدأ الذاتية

قانون الذاتية هو حكم العقل السليم بان لكل شيء حقيقة ثابتة ما دام في عالمه ، وانه ما دام من الصحيح انه متصف بالحقيقة الفلانية فانه يكون من غير الصحيح اتصافه بحقيقة مضادة ، او مناقضة ، وان بين حقيقته التي نسبت اليه ــ نسبة صادقة ــ وبين نقيض او ضد هذه الحقيقة ، تباينا تاما فلا واسطة بينهما .

وللاشياء صفات جوهرية هي حقائقها المشار اليها ولكن لها ايضا صفات خاصة بكل منها ، فبين النوعين من الصفات ما يشمل جميعها وهو موضوع مبدأ الذاتية لكن الذي يشمل بعضها على حدة هو الذي يفرق ويميز نوعا من آخر ــ داخل الجنس .

مثال ذلك ان للماء صفة السيلان وللحجر الصلابة فكلاهما نوع متميز من الاخر ، غير ان كلا من الماء والحجر لا يعدو ان يندرج تحت خاصية مشتركة بينهما معا هي الجمادية المتميزة بعدم الحس وعدم النمو .

ولشرح باقي القانون يقال ــ لنفرض ان امامي صندوقا لا اعرف ماذا بداخله لانغلاقه . فانا لا استطيع ان اطلق على الخبء اي حكيم معين ، فهو يجوز ان يكون جمادا او حيوانا او نباتا ، وفي كل يجوز ان يكون هذا او ذاك من انواع كل منها المختلفة المتباينة في خصائصها النوعية والمشتركة في حقائقها الجنسية .

فاذا ما انفتح الصندوق وتبين لي ان ما بداخله انما هو وردة ذات عبير طيب وكنت في مشاهدتي هذه صادقا ، عندئذ يصح ان احكم بما يلي :

١ ــ انه ما دام هناك في الصندوق شيء فقد انتفى بالضرورة نقيض الوجود ، اي انتفى الا يكون بالصندوق شيء .

(1) ان هذه الكلمات « الجوهر » ، « الماهية » « الحقيقة » لمن أغمض الالفاظ واكثرها اثارة للجدل ومدعاة لعدم الاتفاق وذلك فيما يبدو، يعم غالب اللغات ، وفي خصوص الكلمة الاخيرة « الحقيقة » ــ كنت قد قدمت فياخر الجزء الاول (من هذا البحث) بعض التحليل لها فأرجعتها الى مقومين اثنين هما المبدأ الثابت الذي يدور عليه البحث والمتغيرات ــ من احكام وقوانين ــ التي هي خارجة بطبيعة الموضوع عن نطاقه، غير ان هذا التحليل لم يكن في الواقع سوى تحليل من وجهة نظر معينة تتفق مع روح البحث واتجاهه ولذلك يجب ان اؤكد الا تنافي حتميا بين هذا وبين أي تحليل اخر سليم يبنى على وجهة نظر اخرى .

أما في خصوص اللفظتين الباقيتين أعني « الماهية » و « الجوهر » فلم أقرأ شخصيا في تحليلهما أطرف ولا اعمق في الوقت نفسه مما كتبه بصددها « راسل » في كتابه (تاريخ الفلسفة العربية) الذي ترجمه الدكتور ز.ن. محمود ــ والى القارىء بعض المقتطفات منه : « يظهر ان ماهية الشيء قد اريد بها ذلك الجانب من صفاته التي يستحيل ان تتغير دون ان يفقد الشيء هويته ، فقد يكون سقراط سعيدا آنا حزينا آنا اخر ، قد يكون صحيحا حينا مريضا حينا اخر ، فما دام يستطيع ان يغير من هذه الصفات دون ان يبطل كونه سقراط فلا تكون هذه الصفات جزءا من ماهيته لكننا نقول ان ماهية سقراط انه انسان (ولو ان المعتنق للمذهب الفيثاغوري الآخذ بمبدأ التناسخ لا يسلم بهذا) وحقيقة الامر هي ان مسألة « الماهية » مسألة طريقة استخدام الالفاظ، فنحن انما نطلق اسما بعينه في ظروف مختلفة على حوادث يختلف بعضها عن بعض نوعا ما لكننا نعدها ظواهر « شيء » معين او « شخص »معين. فذلك في واقع الامر لا يعدو ان يكون وسيلة لغوية سهلة اصطنعناها اصطناعا ، وعلى ذلك فماهية « سقراط » قوامها تلك الصفات التي ان غابت بطل استعمالنا لاسم « سقراط » فالمسألة لغوية خالصة فقد يكون للفظة ماهية لكن الشيء مستحيل ان تكون له ماهية .

وفكرة « الجوهر » مثل فكرة « الماهية » ان هي الا ثقل لما هو في الحقيقة وسيلة لغاية لائقة لا اكثر ــ الى عالم الميتافيزيكا .

« والجوهر لا يخلو من مشكلات فالمفروض فيه انه شيء متميز من صفاته كلها لكننا اذا ابعدنا الصفات وحاولنا ان نتصوره قائما بذاته لم نجد شيئا قائما » .

أنظر صفحتي ٣٢٠ ــ ٣٢١ .

(1) وفي عبارة تلخص بعض اوجه الذاتية يقول ليبنيز ــ انالذاتية هي التي تكون الهوية الواقعية الفيزيائية ، وليس المظهر الذي تتخذه حينما بصاحبها الحقيقة سوى لاحق ينضاف الى الهوية الشخصية .

Le soi fait l'identité réelle et physique, et l'apparence du soi accompagné de la vérité, y joint l'identité personelle . Devoir philosophiques de Leibniz. P. 212.

٢ ـ كما ينتفى ان يكون به « نصف » وجود او حالة هي بين وجود الشيء وعدمه (اللهم الا عند من يقول بالواسطة بين العدم والوجود) .

٣ ـ ما دام للوردة عبير طيب فانه قد ينتفى ان يكون شبيها تماما برائحة القرنفل وشذى العنبر ... مثلا ، ولكنه ينتفى ان يكون العبير كريه الرائحة منفر الشم .

٤ ـ ما دامت كل هذه الاحكام صادقة ، ولنطلق عليها الرمز (ب) ، فانها تظل بالضرورة صادقة ، ولنطلق على امتداد الصدق هذا الرمز (ب) ايضا ، ومن هنا نستخرج تركيب المناطقة المعروف في وصف قانون الذاتية : ب هو ب .

وفيما يلي بعض النصوص في تعريف المبدأ ..

قال « كريتون » في كتابه المبادىء المنطقية في شرح قانون الذاتية :

يجب ان تبقى حقائق الاشياء ثابتة لامكان العلم بها، سقراط هو دائما سقراط والحديد هو الحديد،ولا يفكر قانون الذاتية ان الاشياء تتغير على الدوام ولكن التغير الواقع لا يزيل مميزاتها الذاتية ما دامت موجوده (صفحة ٣٤٤)

وقال « ولتون » ..

« يقرر قانون الذاتية ان طبيعة كل شيء ثابتة ، وهو مع هذا لا ينفي وجود الفرق او التغيير ، وفي الحقيقة التمييز بين الاشياء يكون بمعرفة ما بينها من الفروق .

تختلف شجرة البلوط في الحجم والشكل والمجال وغير ذلك من وجوه الاختلاف وهي مع هذه الاختلافات لها ذاتية واحدة تظهر في تاريخ حياتها .

يحدث مرور الزمن سريعا او بطيئا في كل شيء، ونعلم مقدار ما ينتظر وقوعه منه ، ولا ندرك الذاتية مطلقا اذالم يكن معها ذلك التغيير ، اذا رايت اليوم طفلا يشبه في نظري طفلا اخر قد عرفته منذ ثلاثين سنة لايعنى من ادراكي انهما متشابهان الا ان اعتقد ان الاول هو الثاني ، فالذاتية حينئذ تدرك دائما بين الاشياء المختلفة (١)

ويقول جميل صليبا ..

يعبر الفلاسفةعن هذا المبدأ بقولهم ـ (ما هو ، هو) او (الشيء هو هو عين ذاته) الا ان هذا التعبير يدخل على معنى مبدأ الهوية شيئا من الوجودية مع ان مدلوله يجب ان يكون صوريا محضا ، فلنعبر اذن عنه بقولنا: ما هو صحيح ، صحيح ، والقول لا يمكن ان يكون صادقا وكاذبا معا . ان علماء المنطق يعبرون عنه بقولهم :(ب هو ب) (مع العلم بان «ب» تدل على قضية لا على شيء » (٢)

وهذا قريب من تعريف الموسوعة الكبرى الفرنسية حيث تقول ...

« بفضل مبدأ الذاتية كل تفكير يظل منطبقا مع ذاته ما لم يتعرض لتغيير ، ويمكن التعبير عن هذا المبدأ بالصورة : (أ هي أ) او بالكلمة : (الشيء عين ذاته) . وتتكلم الموسوعة بعد هذا على توابع لمبدأ الذاتية وهي كلمة تعود اليه فلا داعي لنصوصها بالكلام هنا ـ ثم تختم حديثها عن المبدأ ببيان اهميته فتقول :

« ومخالفة هذا المبدأ معناها الوقوع فيما هو عديم المعنى ، فيما هو بطبيعته غير قابل للفهم ومتناقض مع

(١) نقلا عن كتاب علم المنطق الحديث صفحة ٣٣ .

(٢) علم النفس ط ٢ صفحة ٥٥٨ .

ذاته ، وذلك كما لو قيل : الدائرة مربعة او الصفر كمية . فهذا المبدأ يتحكم اذن في امكانية الفكر ويوجه خطاه.

اما الدكتور ز .ن . محمود فيعرف « الذاتية » بانها علاقة الفرد الجزئي بنفسه (١) في حين ان ليبنيز يقتصر احيانا على تحديده بالصيغة الجبرية التي سبقت في بعض التعابير الانفة « أ هي أ » . (٢) .

ولا شك ان ليبنيز اذ يختار هذه الصيغة لا يكون متمشيا مع نزعته الرياضية العامة ـ ولا سيما في المنطق ـ وحسب بل ومحققها للصيغة الاصلية في المنطق اي الصيغة الصورية ، وهذه يحققها الرمز الرياضي اكثر من العبارة اللغوية . وذلك لتجريديته على مستوى ابعد من التجريد اللغوي .

غير ان اختيار مثل هذه الصيغة قالبا لتعريف الذاتية ، يضمر على ما لاحظ الدكتور ز.ن. محمود اهمالا لعنصر اساسي في علاقة الذاتية وهو اختلاف الظروف المحيطة بالشيء الذي نعرف له ذاتيته . (٣) .

ودون ان اسبق ميعاد المناقشة التي سيكون موضعها في الجزء التالي من هذه الدراسة ودون ان ابدى الآن الاحترازات التي اراها حول ما قد ينجم من اشكال بصدد « اختلاف الظروف المحيطة بالشيء .. » اقول في انتظار ذلك فان تقرير المناطقة لمسالة الاختلاف في الذاتية يمكن ان يعبر عنه احسن تعبير الفقرة التي انقلها ايضا عن الدكتور ز.ن . محمود ،في كتابه

(١) المنطق الوضعي صفحة ٨٤ .

(٢) المنطق الصوري صفحة ٥٩ .

(٣) المنطق الوضعي صفحة ٨٦ والصيغة التي نقدها الدكتور من حيث اهمال العنصر الاساسي الراجع الى اختلاف الظروف تختلف شكليا عن الصيغة الجبرية فهي (أ متطابقة ذاتيا مع أ) غير ان ذلك ـ كما هو ظاهر لا يؤدي الى بطلان نقد الدكتور فالداعي اليه لا يزال هو هو.

« ديفد هيوم » قال الدكتور .. « لو كانت هناك وحدة واحدة لما كانت هناك ذاتية او هوية لان الوحدة واحدة بحكم تعريفها فليس فيها التعدد الذي نحكم على وحداته بانها تكون فردا . وبالتالي فليس فيها الاشكال الذي يحاول الفلاسفة ان يفسروه بمبدأ الذاتية .

وكذلك لو كان هناك عدة حالات او عدة انطباعات مهما يكن بينها من تشابه دون ان ازعم لها انها في الحقيقة ذات واحدة لما نشأت مشكلة الذاتية ، لان هذه المشكلة كما قلنا لا تكون الا بقيام الوجهين معا .. العدد الذي يكون وحدة (١) .

الذاتية والتعريف

اذا كانت التعاريف السابقة للذاتية هي التعاريف التي يختص بها الميدان المنطقي والفلسفي ، فليس معنى ذلك ان جميع المناطقة والفلاسفة متفقون على المقصد الاهم منها ، وليس يعنينا هنا نظرا لاتجاه البحث سوى المقصد الذي يرمي اليه المناطقة الوضعيون .

والمنطق الوضعي يهدف في اقصى غاياته الى التحليل اللغوي ، اي الى بيان معاني الالفاظ واستعمالاتها المختلفة، وتجريد الكلمات من الاوهام العالقة بها وافهامها على حقيقتها . وبعبارة واحدة ـ هو يسعى الى التعريف.

وعلى التعريف يتوقف التفاهم بين الناس في حياتهم اليومية والفكرية، فمسائله من مواضيع المنطق الهامة كما « ان العلم في كثير من الاحيان ليس الا تحديد المراد بكلمة معينة فتحديد « (الحرارة) موضوع لعلم باسره وتحديد (الحركة) موضوع لعلم اخر ، وتحديد « المادة » موضوع لمجموعة علوم وهكذا » (٢) .

وطالما كان للتعريف هذه الاهمية فقد بحث المهتمون ، من المناطقة ومن الفلاسفة ـ الذي يلتقون بالمناطقة ـ امكانية التوصل الى طريقة ، تخضع بها الحدود التي نستخدمها في تركيب القضايا المنطقية لحساب دقيق كالذي نراه قائما بين الرموز الجبرية في علم الجبر » (٣) الامر الذي يؤدي بالتالي الى ان يكون التعريف دقيقا بديهيا كما لو كان عملية حسابية « لا سبيل الى اختلاف الرأي فيها » (٣) .

والتعريف اذا نظرنا اليه من هذه الوجهة الوضعية الرياضية هو التساوى التام بين كلمتين او عبارتين، فكما ان بين الطرف الايمن والطرف الايسر من المعادلة ٢+٢=٤ مساواة تامة فكذا يكون تعريف الارملة بالتي توفي زوجها تساويا تماما اي ذاتية ثابتة للمعنى الواحد من خلال العبارتين المعرفة والمعرفة .

وبعبارة مختصرة .. المقصود من الذاتية في المنطق الوضعي هو الترادف بين الكلمتين والتساوى بين العبارتين

واهم نتيجة عملية ترتب على هذا القانون هي ما اشرت اليه في صدر الفقرة مما يعود الى ان المثل الاعلى للتعريف هو التساوى التام بين المعرف والمعرف بحيث يصبح من الممكن تماما وضع احدهما مكان الاخر في اي سياق دون ان يختلف المعنى قليلا او كثيرا.

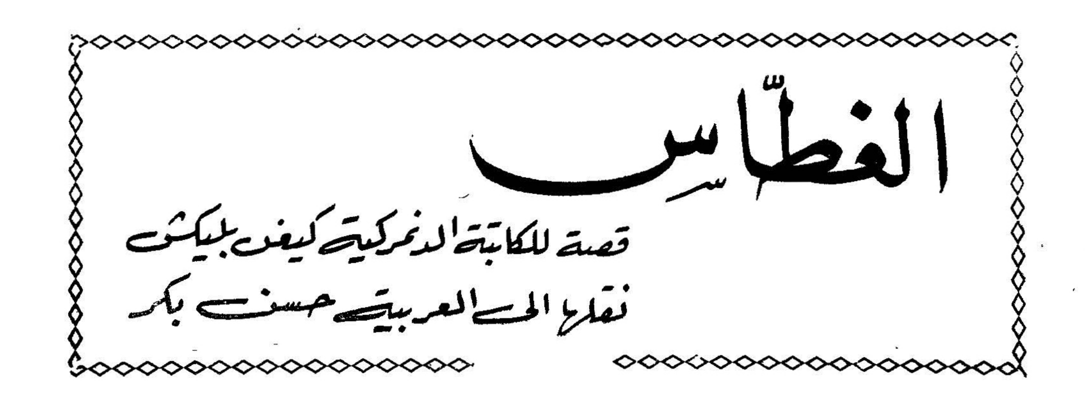
القاهرة **الجنيدي خليفة**

---

(١) صفحة ٥٩ .

(٢) المنطق الوضعي صفحة ٤٩ .

(٣) المصدر السابق صفحتي ١٠٧ ـ ١٠٨ .



حدث ميرا جاما قائلا :

عاش في شيراز طالب دين شاب ، وكان رفيع الموهبة ، نقـي السريرة ، واسمه صوفي . ومذ قرأ القرآن ، المرة تلو المرة ، فقـد استوعب الفكر الملائكي ، حتى لقد عايشت روحه الملائكة ، اكثر ممـا عايشت امه ، او اخوته او اساتذته ، او زملاءه من الطلبــة ، او أي اناس آخرين في شيراز .

كان يستعيد من الكتاب المقدس ، الآيات التي تخص الملائكة .. اولئك الذين يستلون ارواح الرجال بقسوة ، والذين يقودون ارواح الاخرين بأناة ودعة .. والذين يسبحون في الفضاء حاملين اوامـر الله .. والذين يقودون خطى الفضلاء ، ويتقدمونهم الى الفردوس .. والذين يحكمون هذا الكون بشكل ثانوي ...

وحدث نفسه :

ـ ان عرش الله لا بد ان يكون سامقا في السماء ، حتى لتعجز العين عن ان تطاله ، وحتى ليتعثر من دونه الفكر البشري . سوى ان الملائكة الاطهار يطوفون ما بين الابهاء الالهية الارجوانية ، وبينمنازلنا ، وقاعات درسنا المظلمة .. ولا بد ان تتاح لنا رؤيتهم ، وان نتصلبهم..

وتداعى اليه

ـ ان الطيور ، من بين جميع المخلوقات ، لا بد ان تكون عـلى هيئة الملائكة .. أولم يقل الكتاب المقدس : ((ان الله يسبح له ما في السموات والارض ، والطير صافات)) .. ثم لا ريب في ان الطيـور تتنقل في كل من الارض والسماء ، تماما كما تفعل الملائكة . ونحـن اذا ما حاولنا انتقلد الطير في كل هذا ، فسنصبح اقرب ما نكـون الى الملائكة ، مما نحن الان عليه .

ـ ولكن ، بالاضافة الى كل هذه الاشياء ، فان للطير اجنحـة ، كما للملائكة .. ولو ان الرجال استطاعوا ان يركبوا لانفسهم اجنحـة ترفعهم الى آفاق سامقة ، حيث يستوطن النور النقي ، الخالد ، لكان ذلك حسنا . اذا ما استنزف الطائر قدرة جناحيه ، حتى الرمـق الاخير ، فلربما يصادف او يمر بملاك ، خلال معابر الاثير الموحشة.. ولربما احتك جناح العصفور بقدم ملاك ، او التقت نظرة نسر ، فـي اللحظة التي اوشكت قوته فيها ان تخور ، بعيني احـد رسل الله الهادئتيـن .

وقرر :

ـ يجب ان اوظف وقتي وعلمي في مهمة تركيب هذه الاجنحـة لزملائي من الرجال .

وهكذا أزمع على ان يترك شيراز ، ليدرس اساليب المخلوقـات المجنحـة .

كان صوفي ـ حتى الان ـ يعيل امه ، واخوته القاصريـن ، بتعليم ابناء الموسرين ، وبنسخ المخطوطات القديمة . وتظلموا بأنهـم سيصبحون فقراء بدونه .. الا انه كان يجادلهم بأن انجازاته ستعوضهم ـ يوما ما ـ عن حرمان الحاضر . اما اساتذته ، الذين كانوا يتنبأون له بحرفة ممتازة ، فقد جاءوا لرؤيته ، وحاجوه :

ـ ما دام العالم قد استمر كل هذا الوقت ، دون ان يتصـل الرجال بالملائكة ، فلا بد ان ذلك كان قدرا على العالم .. ويجوز ان يبقى كذلك في المستقبل .

قال صوفي بأدب جم :

ـ حتى هذا اليوم ، لم ير احد الطيور المهاجرة ، تشق طريقهـا باتجاه اجواز فضاء اكثر دفئا ، لا وجود لها .. او الانهار تشق مجراها بين الصخور والسهول ، لتصب في محيط لا يمكـن العثور عليه .. ذلك ان الله لم يخلق حنيننا او املا ، دون ان يهيىء له حقيقة وافية.. سـوى انحنيننا هو دعوانا .. وبورك الذين يحنون الى اوطانهـم ، لانهم سيعودون اليها .

وصاح مدفوعا بتسلسل افكاره :

ـ وايضا ، أفلا يصبح عـالم الانسان افضل ، اذا استطاع ان يتبادل المشورة مع الملائكة ، وان يتعلم منهم نواميس الكون التي يقرأونها بسهولة ، لانهم يرونها من عل .

كم كان ايمانه بما أخـذ على عاتقه قويا ، حتى ان اساتـذته ـ في النهاية ـ كفوا عن معـارضته ، قائلين لانفسهم ، ان شهـرة تلميذهم قد تكسبهم ـ في مستقبل الايام ـ الشهرة معه .

مكث الصوفي الشاب عاما كاملا بين الطيور .. أقام سريـره في اعشاب السهـل الطويلة ، حيث ترامت اليه زقزقة الطيـور الواهنة .. وتسلق الاشجار الهرمة ، حيث تبني اليمامة والعصفـور عشيهما ، ووجد لنفسه مقعدا بين الاغصان ، فجلس هنالك بهـدوء ، حتى انه لم يزعجهما قط .. وتجول في شعاب الجبال الشاهقات ، تحت ضفاف الشاطىء الثلجي تماما ، يجاوره زوج من النسـور ، فيرقبهما في غدوهما ورواحهما .

عاد الى شيراز بحصيلته من المعلومات ، والادراك ، وانعكف على صنع اجنحته .

وقرأ في القرآن :

ـ ((الحمد لله فاطر السموات والارض ، جاعل الملائكة رسـلا اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع ..)) ، وقرر ان يصنع لنفسـه ثلاثة ازواج من الاجنحة : زوجا لكتفيه ، وزوجا لخاصرتيه ، وآخـر لقدميـه . لقد جمع في تجواله ، العديد من مئات الارياش المتطايرة من اجنحة النسور ، والاوز ، والعقبان .. واعتكف وهذه معـه .. وعمل بحماس زائد ، حتى انه لم ير او يكلم احدا ، لمدة طويـلة .. ولكنه رتل القرآن اثناء عمله ، فوقف المارة ، وانصتوا ، ثم قالوا :

ـ ان هذا الصوفي الشاب يسبح لله ، ويؤدي ما أمر به .

ولكن ، بعد ان أنجز اول زوج من الاجنحة ، وجربهما ، وشعـر بقوتهما الرافعة ، لم يستطع ان يحتفظ بانتصاره لنفسه ، بـل حدث به اصدقاءه .

ابتسم عظام الناس في شيراز ، من النبلاء وكبار الموظفيـن ، بسخرية ـ بادىء ذي بدء ـ للشائعات عن عمله الباهر . ولكن ما ان انتشرت الشائعات ، وأكدها نفر كبير من الشبان ، حتى ازدادوا فزعا.

قال احدهم للاخر :

ـ اذا اتصل هذا الولد الطائر بالملائكة حقا ، فان اهالي شيراز

- كعادتهم عندما يحدث اي شيء غير طبيعي – سيجنون تعجبا وسرورا .. ومن يدري اية اشياء جديدة ، او ثورية ، ستنبؤه الملائكة بها ؟..

وعلقوا على ذلك قائلين :

- فان من الجائز ان توجد ملائكة في السماء .

وقلبوا الامر على وجوهه .. فقال كبيرهم ، وكان وزيرا للملك ، واسمه ميرزا اغا :

- ان هذا الفتى خطر ما بقيت له احلام عراض .. ولكنه غير مؤذ .. وسيكون ميسور التدبير ، ما دام قد اهمل دراسة عالمنا الحقيقي ، الذي تحك فيه الاحلام . وسوف نثبت له ، وننفي – بدرس واحد – وجود الملائكة .. ام ترى ان شيراز خلت من الفتيات الشابات ؟

استدعى – في اليوم التالي – احدى راقصات الملك ، واسمها ثوسمو .. وشرح لها من الامر القدر الذي حسب انه من الخير لها ان تعرفه .. ووعد بأن ينعم عليها ، اذا اطاعته ، والا فان صديقتها ، الراقصة الشابة ، سترقى لتحل محلها ، في فرقة الرقص الملكية ، في احتفالات قطف الورد ، لتقطير العطور .

وهكذا حدث ذات ليلة ، عندما صعد الصوفي الى سطح منزله ، لكي ينظر الى النجوم ، ويحسب مدى السرعة التي يمكن ان يسافر بها من نجم الى اخر ، ان سمع اسمه ينادى بصوت منخفض ، من خلفه . فلما التفت ، لمح طيفا جميلا ، أهيف ، في رداء من الذهب والفضة ، منتصبا – وقد جمعت قدميها – بالقرب من حافةالسطح .

لقد ملأ الشاب عقله بالفكرة الملائكية .. فلم يساوره الشك في هوية زائرته ، بل انه لم يفاجأ كثيرا ، وانما غمره السرور .. وارسل نظرة الى السماء ، ليرى ما اذا كان طيران الملاك قد خلف هنالك قبسا من نور . وفي هذه الآونة ، سحب القوم من دونه السلم الذي تسلقت الراقصة سطحه بواسطته .. ثم خر امامها على ركبتيه .

أحنت رأسها اليه برقة ، ونظرت اليه بعينين سوداوين ، كثيفتي الاهداب ، وهمست :

- لقد حملتني في قلبك دهرا طويلا ، يا خادمي صوفي .. وها أنذا قد جئت الان ، لافتش نزلي الصغير ذاك . أما كم سأبقى معك ، في بيتك ، فرهن بخضوعك لي ، واستعدادك لتنفيذ مشيئتي .

ثم جلست على السطح ، وقد وضعت ساقا على ساق ، بينما كان ما يزال هو راكعا على ركبتيه .. واخذا يتجاذبان اطراف الحديث .

قالت :

- نحن الملائكة ، لا نحتاج حقا الى اجنحة ، لننتقل بين السماء والارض ، فان اطرافنا تكفي .. فاذا ما اصبحنا صديقين حميمين ، فسوف يصبح الامر كذلك ، بالنسبة لك .. وبوسعك عندئذ ان تحطم الاجنحة التي تصنعها .

وسألها ، وهو يهتز نشوة ، كيف يمكن ان يتم طيران كهذا ، وهو مخالف لكل قوانين العلوم .. فضحكت عليه ضحكة كأنها جرس صغير ، واضح .. قالت :

- انتم الرجال مولعون بالقوانين ، والجدل .. وان لديكم ايمانا كبيرا بالكلمات ، التي تخرج من خلال لحاكم .. ولكنني سأقنعك بأن لنا فما لنقاش اكثر عذوبة ، وفما اكثر عذوبة للنقاش .. انني سأعلمك كيف يتوصل الملائكة والرجال ، بطريقة سماوية ، الى تفاهم مطلق ، دونما جدل . واما هذا ، فقد فعلته .

وأما هذا ، فقد فعلته .

كانت سعادة الصوفي – طيلة شهر – مفرطة ، حتى ان قلبه استسلم لها .. ونسي كل ما يتعلق بعمله ، اذ كان يسلم نفسه ، المرة تلو المرة ، للتفاهم السماوي .

قال لثوسمو :

- انني ادرك – الان – مدى أحقية ابليس ، الذي قال لله : « انا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين » .

وتنهد ، اذ اقتبس لها من الكتاب مرة اخرى :

- « قل من كان عدوا لله وملائكته ... فان الله عدو للكافرين » .

واحتفظ بالملاك في بيته ، لانها قالت له ان رؤية روائها ستعمي اهالي شيراز ، الذين لم يعهدوه .. فكانت لا تخرج معه الى سطح المنزل الا ليلا ، ليتأملا معا الهلال الجديد .

وحدث الان ، ان شغف الصوفي الراقصة حبا .. فقد كان حسن الوجه ، كما جعلت حيويته التي لا تنضب ، منه عاشقا كبيرا .. فبدأت تؤمن انه قادر على اي شيء . وكانت ايضا ، قد فهمت من حديثها مع الوزير العجوز ، انه ينظر بهلع الى الفتى واجنحته ، كشخص خطر عليه ، وعلى زملائه ، وعلى الدولة .. وقالت في نفسها ، انها تود ان ترى الوزير العجوز ، وزملاءه ، والدولة ، وقد امحوا من وجه الارض .. فان حنانها لصديقها الشاب ، قد جعل قلبها في رقة قلبه تقريبا .

وعندما اكتمل البدر ، واستلقت المدينة كلها سابحة في ضوئه ، جلس الاثنان ملتصقين على السطح ، وقد امتدت يده تداعب يديها ..

قال :

- لقد اكتسبت يداي ، مذ عرفتك ، حياة خاصة بهما .. انني موقن ان الله ، حين وهب الرجال الايدي ، قد اعرب لهم عن عطف ، ومحبة ، فكأنه قد وهبهم أجنحة .

ورفع يديه ، وأخذ يتأملهما .

وتنهدت قليلا ، قائلة :

- لا تحنق .. لست انا الملاك ، بل انت .. حقا ، ان لفي يديك قوة ، وحياة .. دعني اشعر بذلك مرة اخرى .. وثم أرني غدا الاشياء العظيمة ، التي صنعتها بهما .

ولكي يدخل عليها السرور ، اخذها ، في اليوم التالي – وهي غارقة في الحجاب – الى مصنعه .. وعندئذ ، رأى ان الفئران قد

أكلت ارياش النسور المتطايرة ، وان اطار الجناحين قد حطم ، ونثر الحطام هنا وهناك .. ونظر اليه ، وطفق يتذكر الايام التي انكب فيها على صنعهما .. سوى ان الراقصة بكت :

ـ لم أكن اعلم ان هذا ما اراد .. أوليس ميرزا آغا رجلا لئيما !

وسألها مذهولا عما تعنيه ، فأخبرته بكل شيء ، بأسى وسخط..

قالت :

ـ اواه يا حبيبي .. انني لا استطيع الطيران ، رغم انهم يقولون لي انني ذات خفة غريبة ، حينما ارقص .. لا تغضب علي .. بل تذكر ان ميرزا اغا واصدقاءه قوم عظام ، لا تستطيع فتاة فقيرة مثلي ان تنالهم بسوء .. وانهم اغنياء ، ويملكون اشياء جميلة .. وانك لا يمكن ان تتوقع من راقصة ان تكون ملاكا .

واذ سمع ذلك ، خر على وجهه ، لا ينبس ببنت شفة .. وجلست ثوسمو بجانبه .. وتساقطت دموعها على خصلات شعره ، التي لفتها حول اناملها .. وقالت :

ـ انت فتى رائع .. ان كل شيء معك عظيم ، وعذب ، وسماوي بحق .. وانني لاحبك .. فلا تأس يا عزيزي .

ورفع رأسه .. ونظر اليها ، ثم قال :

ـ « وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة ... » .

قالت :

ـ لا يوجد من يرتل القرآن بعذوبة ، كما ترتله .

عاد ينظر اليها من جديد قائلا :

ـ « فكيف اذا توفتهم الملائكة ، يضربون وجوههم وأدبارهم .. ذوقوا عذاب النار بما كنتم تفعلون .. » .

وبعد برهة قالت :

ـ لعله ما يزال بوسعك ان تصلح الجناحين ، ولربما اصبحا كأنهما جديدان .

قال :

ـ انني لا استطيع ان اصلحهما .. والان ، وقد نفذت مهمتك ، فيجب ان تذهبي ، اذ انه سيكون خطرا عليك ان تبقي معي ، لان ميرزا اغا واصدقاءه قوم عظام .. وان عليك ان ترقصي في مهرجان قطف الورد ، لتقطير العطور .

قالت :

ـ وهل تنسى ثوسمو ؟

قال :

ـ لا .

ـ هل ستحضر لتشاهدني ، وانا ارقص ؟

اجاب :

ـ نعم ، ان استطعت .

قالت بأسى ، وقد انتصبت واقفة :

ـ سوف آمل دائما ، بأنك ستحضر .. ذلك ان المرء لا يستطيع ان يرقص بلا امل .

وبذلك ، انصرفت حزينة .

ضاق الصوفي ، الان ، ذرعا ببيته .. فترك باب مصنعه مفتوحا، واخذ يتجول في المدينة .. ولكنه لم يستطع البقاء في المدينة ، فاتجه صوب الغابات والسهول .. غير انه لم يحتمل رؤية الطيور او سماع اغاريدها .. فما لبث ان عاد الى الشوارع .. وهنا ، كان يتوقف احيانا امام حوانيت بائعي العصافير ، ويتأملها في اقفاصها ، لفترة طويلة .

وعندما تحدث اليه اصدقاؤه ، لم يتعرف عليهم .. سوى انه كان ، اذا ضحك الصبية عليه ، في الشوارع ، وتصايحوا : « انظروا الصوفي الذي آمن بان ثوسمو ملاك » ، يقف جامدا ، ينظر اليهم ، ثم يقول :

ـ انني ما ازال اعتقد ذلك .. فانا لم افقد ايماني بالراقصة ، وانما بالملائكة .. اليوم لم اعد اذكر كيف تصورت منظر الملائكة ، عندما كنت صغيرا .. انني اشعر ان منظرهم مخيف .. قل من كان عدوا للملائكة ، فانه عدو لله ، ومن كان عدوا لله ، لم يبق له امل .. وانا لا امل لي .. وانك لن تستطيع ان تطير بلا امل .. وهذا ما يقض مضجعي .

على هذا المنوال ، هام الصوفي التعيس على وجهه ، طيلة عام .. ولقد قابلته في الشوارع بنفسي ، عندما كنت صبيا صغيرا ، ملتفا بعباءة سوداء رثة ، وبعباءة من الوحدة الابدية ، الاكثر سوادا . وفي نهاية العام ، ذهب ، ولم يعد يرى في شيراز .

قال ميرا جاما :

ـ هذا هو الفصل الاول من القصة .

***

سوى انه حدث ـ بعد سنوات عديدة ، عندما شببت عن الطوق ، وطفقت ، اول الامر ، احكي الحكايات ، لاسعد بها العالم ، ولاعلمه الحكمة ـ ان سافرت الى شواطىء البحر الرملية ، الى قرى صيادي اللؤلؤ ، لكي اسمع مغامرات هؤلاء الرجال ، وادعيها لنفسي.

ذلك ان اشياء كثيرة تقع للذين يغطسون في اعماق البحر .. ان اللالىء في حد ذاتها ، اشياء تتصف بالغموض ، والمغامرة .. انك اذا تابعت تطور لؤلؤة واحدة ، فسوف يعطيك مادة لمائة حكاية .. وان اللالىء مثل حكايات الشعراء : المرض وقد انقلب الى عذوبة .. انها اسرار الاعماق ـ وهي شفافة ، وغامضة في آن معا ـ أخرجت للنور لتسعد بها النساء الشابات ، اللائي سيتعرفن فيها الى أسرار صدورهن الاعمق غورا .

وبعد حقبة من الزمن ، سردت على الملوك ، بنجاح عظيم ، القصص التي قصها علي ـ من قبل ـ الصيادون البسطاء ، الوادعون.

كثيرا ما تردد اسم في حكاياتهم ، مما اثار فضولي .. فرجوتهم ان يخبروني باسهاب ، عمن كتبها .. عندئذ ، أفادوني بأن الرجل غدا مشهورا بينهم ، نظرا لجرأته ، وحظه العجيب ، غير المعهود . وفي الحقيقة ، فان اسم « النازرد » الذي اطلقوه عليه ، يعني بلهجتهم الشخص « الناجح » او « السعيد والقانع » .. لقد كان يغطس الى اعمق الاعماق ، ويمكث في القعر اكثر من اي صياد آخر .. وانه ما خاب قط في ان يجلب الى السطح ذلك المحار المحتوى على انفس اللالىء . لقد ساد الاعتقاد ، في قرية صيادي اللؤلؤ ، ان له في المياه العميقة صديقا ـ ربما كان حورية شقراء ، او ربما كان ايضا ماردا بحريا ـ ليرشده . واذ كان باقي الصيادين عرضة لاستغلال شركاتهم التجارية ، فعاشوا فقراء طيلة حياتهم ، فان الشخص السعيد قد تمكن من ان يجمع لنفسه ثروة طائلة .. فاشترى منزلا وحديقة بداخل البلاد ، واحضر امه لتقيم فيه .. وزوج اخوته .. غير انه بقي محتفظا لنفسه بكوخ صغير على الشاطىء . وعلى الرغم من شهرته الجنية ، فقد كان ـ كما يبدو ـ على اليابسة ، وفي حياته اليومية ، رجلا مسالما .

انا شاعر .. وقد اعاد الي شيء ما في هذه الروايات ، حكايات الماضي السحيق .. فقررت ان ابحث عن هذا الشخص الناجح ، واشجعه على ان يحدثني عن نفسه . وعبثا بحثت عنه ـ باديء الامر ـ في منزله الانيق ، والحديقة الغناء . وذات ليلة ، مشيت بمحاذاة الشاطىء ، الى كوخه .

كان القمر بدرا في السماء ، والامواج الرمادية الطويلة تتوافد الى الشاطىء تباعا .. وكل شيء من حولي ، يبدو متفقا على كتم السر .. دققت النظر في كل ذلك ، وأحسست انني سأسمع شيئا ما ، وسأؤلف قصة رائعة .

لم يكن الرجل الذي سعيت اليه ، في كوخه .. بل كان جالسا على الرمل ، محملقا في البحر .. وكان بين الفينة والفينة ، يرميه بحصاة . وفي ضوء القمر ، رأيت رجلا بدينا ، جميلا ، تعبر قسماته الوادعة بحق ، عن السعادة والوئام .

حييته باحترام ، وذكرت له اسمي ، واوضحت انني خرجت

لأتمشى في الليـــل الدافيء ، الصافي .. فرد التحيـــة بلطف ، ووقار .. وأخبرني بمعرفته بي من قبل ، عن طريق شهرتي كشـــاب يحاول التمكن من فن سرد القصة . ثم دعاني للجلوس بجانبه ، علـى الرمل . تحدث لبرهة ، عن القمر ، والبحر .. ثم قال ، بعد فتـــرة من الصمت ، انه لم يسمع حكاية تحكى ، منذ زمن بعيد .. فهـــل يمكن ان أقص عليه قصة ، فيما كنا جالسين معا بسرور ، في الليـــل الدافيء ، الصافي ؟

كنت توافا لاثبت مهارتي .. وأملت ايضا ان يخدم ذلك غايتـــي معه . وهكذا ، فتشت ذاكرتـــي عن حكاية حسنة . وبطريقة مـــا – ولست أدري لم – ألحت علي قصة الصوفي صوفي الحاحا عجيبا.. فرحت احدثه بصوت منخفض ، ظئي ، متجاوب مع القمر والامواج :

– عاش في شيراز ، طالب دين ...

أصغى الرجل السعيد الي بهدوء ، وانتباه . ولكن ما ان اتيت على فصل العاشقين ، على سطح المنزل ، وسميت الراقصة « ثوسمو » ، حتى رفع يده ، واخذ يتأملها . لقد أجهدت نفسي في خلق منظـــر ضوء القمر الشاعري .. وكان ذلك عزيزا على قلب الشاعر الـــذي يخفق بداخلي .. فعرفت البادرة ، وصرخت بدهشة عظيمة ، ورعب :

– أنت الصوفي صوفي الشيرازي !

قال الرجل السعيد :

– نعم .

انه لشيء مخيف ، بالنسبة للشاعر ، ان يتبين قصته حقيقية .. لقد كنت آنذاك صبيا ، مبتدئا في فني .. فاشرأب شعر رأســي .. وأوشكت ان انهض ، وأولي الادبار .. الا ان شيئا في نبرات صـــوت الرجل السعيد ، شدني الى المكان . قال :

– كان فيض من رفاهية الصوفي الذي حدثتني عنه قبل قليل ، في قلبي ، ذات مرة .. ولكنني كدت الان ان انساه .. سوى انـــه يسرني ان اعلم انه اصبح احدوثة ، فقد يكون هذا ما خلق لـــه .. ولسوف اتركه – في المستقبل – هنالك باطمئنان .. هيا يا مـــيرا جاما ، يا ايها القصصي ، وأكمل قصتك ، ودعني أسمع نهايتها .

ارتجفت أوصـــالي لطلبه .. غير ان طريقته سحرتني ، مـــرة اخرى ، وساعدتني على ان امسك بطرف خيط قصتي . شعـــرت – اول الامر – انه كان يمنحني بذلك شرفا.. وما لبثت – اذ تابعت – ان أدركت انني بدوري أضفي عليه شرفا .. ان نصر القصصي قـــد ملأ قلبي .. فسردت قصتي بعاطفة بالفة .. وما ان فرغت منهـــا – هنالك على الشاطيء البحري الناعم ، حين لم يكن تحت أشعـــة البدر سوانا – حتى كان وجهي قد اغتسل بالدموع .

طفق الرجل السعيد يسري عني ، ويرجونى ألا أتأثر بقصة مـــا كثيرا . وهكذا ، عندما استعـــدت سيطرتي على نبرات صـــوتي ، توسلت اليه ان يحدثني عن كل ما حدث له ، بعد ان ترك شيـــراز ، لان تجاربه في البحر العميــــق ، وحظه الذي جلب اليـــه الثراء ، والشهرة بين الرجال ، سيؤلفان – بالتأكيد – قصة بديعة ، كالتـــي حكيتها له ، بل واكثر مرحا .. وأوضحت له ان الامراء ، والنســـاء العظيمات ، والراقصات يحببن الحكايات الحزينة ، وكذلك يفعـــل المتسولون القابعون في أزقة المدينة .. ولكنني أود ان اكون قصصيـــا للعالم اجمع .. ورجال الاعمال وزوجاتهـــم سيطلبون حكاية تنتهـــي نهـــاية حسنة .

بقي الرجل السعيد صامتا الى حين .

أجابني :

– ان ما حدث لي – بعد ان هجرت شيراز – لا يؤلف قصة على الاطلاق .. انني مشهور بين الرجال ، لانني قادر على البقاء في قعر البحر ، اكثر منهم .. ان هذه المقدرة – اذا شئت – تركة بسيطة ، خلفها لي الصوفي الذي حدثتني عنه .. سوى ان ذلك لا يؤلف قصة.. لقد كانت الاسماك عطوفة علي .. انها لا تخون احدا .. وهكذا ، فان ذلك لا يؤلف قصة .

وبعد فترة اطول من الصمت ، استطرد قائلا :

– في مقابل حكايتك ، ولكي لا اثبط عزم شاعر شاب ، ومع ان ذلك لا يؤلف قصة ، فانـــــي سأحدثك عما حدث لي ، بعـــد ان تركت شيراز .

ثم بدأ روايته ، فأصغيت اليه .

– سأهمل ايضاح كيفية خروجي من شيراز ، وقدومي هنا .. وسأسرد من تجاربي فقط ما يمكن ان يسعد رجال الاعمال وزوجاتهم.

– ذلك لان سمكة صغيرة ، عجوزا ، ذات نظارة قرنية الاطـــار تعهدت بي ، عندما غصت – اول مرة – الى الاعماق ، باحثا عـــن لؤلؤة نادرة ، معينة ، كنت – آنذاك – قد فكرت فيها طويـــلا . كانت تلك السمكة – وهي بعد صغيرة – قد وقعت في شبكة اثنين مـــن الصيادين العجائز ، وأمضت ليلة بحالها هناك ، في الماء الآسن بجوف قاربهما .. واستمعت الى حديث هذين الرجلين اللذين لا بد وان كانا تقيين ، علامتين . ولكنها – في الصباح – بعد ان انتشلت الشبكة الى الشاطيء ، انزلقت من احد الثقوب ، وسبحت بعيدا .. ومنـــذ ذلك الحين ، وهي تسخر من ريبة باقي الاسماك بالرجال . انهـــا توضح ان السمكة تستطيع حقا ان تسوسهم بسهولة ، اذا ما عرفت كيف تؤدب نفسها . أضف الى ذلك ، انها قد اخذت تهتم بطبيعـــة الانسان وعاداته .. وغالبا ما تحاضر جمعا من الاسمـــاك عنها .. ويحلو لها ، ايضا ، ان تبحثها معي .

– انني مدين لها بالشيء الكثير ، ذلك انها تحتل مكانة مرموقة ، في البحر .. ولما كنت تحت حمايتها ، فانني استقبل في كل مكان.. انني مدين لها ايضا ، بالكثير من الثروة ، والشهرة اللتين جعلتـــا مني – كما قيل لك – رجلا سعيدا .. انني مدين لها باكثر من ذلك ، لانها أفضت الي – في احاديثنا الطويلة معا – بالفلسفة التي أعادتني الى الطمأنينة .

وهذا ما تعظ به :

ـ انها تعلن « ان السمكة هي الوحيدة ، من بين جميع المخلوقات ، التي صنعت بأقصى عناية ودقة ، لتأتي على صورة الله .. ان كل الاشياء تعمل مجتمعة بفضل خيرها .. ومن هذا يمكننا القول بأنها قد دعيت لهذا الغرض .

ـ « ان الانسان لا يستطيع ان يتحرك الا باتجاه واحد .. وهو مقيد الى الارض .. ومع ذلك ، فان الارض لا تعطيه الا المسافة الضيقة ، الممتدة بين موطىء قدميه .. ان عليه ان يحمل ثقله ، وينأوه من تحته .. ان عليه ـ وكذلك فهمت من حديث صيادي العجوزين ـ ان يتسلق تلال الارض بمشقة .. وقد يحدث له ان يسقط من فوقها ، فتتلقاه الارض ـ عندئذ ـ بقسوة .. وحتى الطيور ذات الاجنحة ، فانها ان لم تجهد اجنحتها ، فان الهواء الذي تقيم فيه ، يخونها ، ويقذف بها الى أسفل .

ـ « نحن معشر الاسماك ، نؤيد ، ونسند بكل اتجاه .. اننا نتمشى مع جوهرنا بثقة ووئام .. اننا نتحرك ضمن كل المقاييس .. ومهما كان الاتجاه الذي نأخذه ، فان المياه العاتية ـ احتراما منها لميزتنا ـ تغير شكلها تبعا لذلك .

ـ « نحن لا ايدي لنا .. ولذا ، فاننا لا نستطيع ان نشيد اي شيء قط .. ولا يغرينا الطموح الكاذب ، الى ان نغير اي شيء ، مهما كان ، في كون الله .. اننا لا نبذر ، ولا نكد .. ولذا فان تقديراتنا لا يمكن ان تأتي خاطئة ، ولا يخيب رجاؤنا .. ان اعظم الاسماك منزلة فينا ، قد وصلت ـ في بيئتها ـ الى الظلام الكامل .. ونواميس الكون نقرأها بسهولة ، لاننا نراها من اسفل .

ـ « اننا نحمل معنا ، في هيامنا هذا على وجوهنا ، بغير هدف ، عرضا للحوادث متقن التناسق ، لكي يثبت لنا مركزنا الممتاز ، ولكي يحفظ لنا شعورنا المتبادل ، وليؤكد لنا تعاطفنا .. انه معروف للانسان ايضا .. بل وانه ليحتل مكانا مهما في تاريخه .. ولكن نظرا لتصويره الطفولي للاشياء ، بشكل عام ، فان فهمه لها مشوه .. سوف اذكرها لك :

ـ « عندما خلق الله الارض والسماء ، تسببت له الارض بخيبة امل مريرة .. فالانسان ـ بقدرته على السقوط ـ سقط مباشرة تقريبا ، وسقط معه كل ما كان على الارض اليابسة . لقد ندم الله على انه خلق الانسان ، ووحوش الارض المفترسة ، وجوارح الهواء .

ـ « ولكن السمكة لم ، ولن تسقط ابدا .. فكيف ، او الى اين سنسقط نحن ؟.. وهكذا ، فان الله نظر الى اسماكه بعطف .. وواسته رؤيتها ، لطالما انها الوحيدة ، من بين جميع المخلوقات ، اللائي لم يخيبن امله .

ـ « وقضى الله ان يكافىء الاسماك حسب ميزاتها .. وهكذا تفجرت ينابيع الاغوار السحيقة .. وفتحت شبابيك السماء .. وتدفقت مياه الفيضان على الارض .. وطفت المياه ، وزيدت .. فغمرت جميع التلال الشاهقات التي كانت تحت السماء .. وطفت المياه بسرعة فائقة .. فمات كل اللحم الذي كان يدب على اليابسة ، من لحم الدواجن ، وقطعان الماشية ، والوحوش المفترسة ، وكل انسان .. لقد فني كل من عليها .

ـ « لن أطيل الحديث ـ وانا اقدم لك هذا التقرير ـ عن مسرات ذلك العصر ، وتلك الحالة ، لانني أتجاوب مع الانسان بالعاطفة ، فضلا عن الذوق .. انت نفسك ، ربما وطدت العزم ـ قبل ان تجد طريقك الينا ـ على اقتناء قطعان الابقار ، والخيل ، والجمال ، ولربما انك اقتنيت الحمام والطواويس .. انك ما تزال شابا ، وربما تعلقت ـ منذ عهد غير بعيد ـ بمخلوقة من طينتك ، وهي مع ذلك ، نوعا ما ، كالطائر ، وتسميها انت بالمرأة الشابة .. (مع ان من الخير لك ـ بالمناسبة ـ لو انها لم تكن كذلك ، لانني أتذكر كلمات صيادي ، ألا وهي ان المرأة الشابة تجعل عاشقها يذوق عذاب الاحتراق .. وربما اخذت ـ عوضا عن ذلك ـ تهتم باحدى بنات اخواتي ـ وهن مخلوقات شابات ـ مالحات بشكل غير مألوف ـ واللائي لن يذقن العاشق أيا من عذاب الاحتراق) .. ولن اذكر الا باقتضاب انه كان لنا مائة وخمسون يوما من الخير ، وان تلك الكمية الوافرة ، المباركة ظهرت بنفخة بوق كاملة .

ـ « وسوف اضيف ، باسلوب الاسماك البدائي ، العاقل ـ وارضاء لنفسي هذه المرة ـ مارا بذلك على الحقيقة مرور الكرام ، ان الانسان ، رغم انه سقط ، وعفن ، قد نجح بالخداع ، مرة اخرى ، في ان يتربع على القمة .

ـ « وعلى كل حال ، يبقى الامر موضع شك شديد ، في ان يكون الانسان قد حصل ، من خلال هذا النصر الظاهري ، على الرفاهية الحقيقية .. فكيف ينال الطمأنينة الحقيقية مخلوق قلق ابدا على الاتجاهات التي يتحرك فيها .. مخلوق يعلق على ارتقائه او سقوطه أهمية بالغة .. كيف يستطيع مخلوق ان ينال الدعة ، وهو يأبى ان يقلع عن فكرة الامل ، والخطر ؟

ـ « نحن معشر الاسماك نستريح بهدوء ، مدعومين في كل الاتجاهات ، ضمن طبيعة تسوي نفسها دائما بدقة ، ودوننا كلل .. طبيعة يمكن ان يقال انها تضطلع بوجودنا الشخصي ، بقدر ما تحسب اوزاننا ، واجسادنا ـ بغض النظر عن اشكالنا الشخصية ، وما اذا كنا اسماكا مسطحة ، او مستديرة ـ بالنسبة الى ذلك الحيز الذي نحتله في بيئتنا .

ـ « لقد اثبتت لنا تجاربنا ـ وستثبت لك تجربتك الخاصة ، في يوم ما ـ ان المرء يستطيع ان يطفو جيدا ، بدون امل .. بلى ، فان المرء سيطفو افضل بدونه .. وعليه ، ايضا ، فان شريعتنا تنص على ان يطرح كل الامل ، بالنسبة لنا ، جانبا .

ـ « نحن لا نركب الاخطار ، ذلك ان تغييرنا المكان ـ في الواقع ـ لا يخلق ، او يخلف وراءه ما يسميه الانسان طريقا .. وهي الظاهرة ـ وليست في الواقع ظاهرة بل وهما ـ التي يضيع الانسان عليها تصميما عاطفيا ، لا يمكن تفسيره .

ـ « والانسان ، في النهاية ، منزعج بفكرة الزمن .. انه متجول باستمرار بين الماضي ، والمستقبل . ان سكان العالم المائي قد جمعوا الماضي والمستقبل ، في القول المأثور : بعدنا فليكن الطوفان » .

ترجمة حسن بكر

ماجدة

في بنـك الـدم
امرأة تلعق جرح الصبر تلملم ريح الهـم
تستاف عقارا يؤخذ عبر الفم
في بنك الدم ..
البهو مضاء
وشفاه تنفخ بالاغمـاء
وعيون خلف الشاش الابيض تومض في اعياء
حبات العرق اللامع كالانداء
تتجمع فوق الاوجه ظل رجاء
فالهمس دعاء
واللمس عزاء
والصمت البارد يتغلغل في الاعصاب
سكتت حتى صلصلة الاشياء
والتصق الخارج بالداخل ، جمدت أكر الابواب
راهبة ترسم ظل صليب فوق الجمع تتمتم بالاسماء
وعروس تهتف من اعماق سنين ضاعت في الاعتاب
يارب ترفق .. هاكم هذي المضغة شقوا جنبي لاتتوانوا
ياكنني ياناس الخوف تمزق صدري الاحزان
والطفله عود يذوي تحت زفيف الريح يودع نور الشمس
الضحك .. غناء الصبية مات ، تيبس حتى الهمس
الابرة في الزندين وفي الشفتين مجس
في بنـك الدم
ما أروع نظرات الحب .. العطف .. حداء قلوب الناس
من شتى الاجناس
من خلف بحار الدنيا وقف العالم حبس الانفاس
حنت مئذنة الجامع أدمع صوت الاجراس
صلوات تعقد في المحراب وفي الساحات قداس
ما أروع ان يصبح كل العالم قلبا يخفق بالاحساس
ما أروع ان تلد أمرأة من روما ابنا يحبو في باريس
يلقاه الراين بالتقديس
يهتز ضمير المدفع يهدأ في الغابات ضجيج الموت
يتعانق تحت ظلال الحب الاغبر والاسيان
تتلاقى كل الالوان
ينهد الصرح الممقوت
في بنك الدم
أنبوب يزحم جرح الفم
من بين أصابعنا انسلت مثل النور
والطفلة عدت بحر الظلمة دفت خلف شعاع من بلور
وانهار الموقد فوق الوجه الطافح بالارهاق
انتقل الموت الى العينين وغام العنبر في الاحداق
وانفجر المدخل بالاشفاق
فالحزن الراقد في الاعماق
ماعاد يطاق .. ماعاد يطاق
انسحب الراهب في أعياء
الام وأنبل ما يوهب من أجزاء
نبضات الروح وجرح يورق في الاحشاء
تضحية ترفع فوق المن ، تقدم دون عطاء
ما ضاعت أبدا في الوحشة في الصحراء
انصهرت أحرف نور فوق ضريح من أنداء

ام درمان — **مصطفى سند**

ايروس ((أو العشق))

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

يولد النفوس عن طريق التربية لا بد هو الاخر من أن يبدأ بحب الاجساد الجميلة . وهنا يقرر أفلاطون أن على الشخص الذي ينشد الحكمة أن يبدأ منذ صباه بتأمل الاجسام الجديرة بالحب ، لكي لا يلبث أن يقصر حبه على جسم واحد منها فقط ، فيرتبط به ويعقد معه الاحاديث التي تؤدي الى الفضيلة . ولكن عليه بعد ذلك أن يعرف أن الجمال الموجود في جسم ما انما هو صنو الجمال الموجود في أي جسم اخر . ومن هنا فان عليه ان يرد كل ما في الطبيعة من جمالات متفرقة الى ضرب واحد من الجمال يضمها جميعا ألا وهو الجمال المحسوس ، وهو اذا فعل هذا ، فسيكون في وسعه عندئذ أن يتخلص من التعلق بجمال واحد ، لكي يعجب بجمال الصور أينما تألق أمام ناظريه .

وحينما يفطن السالك في طريق الحب الى أن ما يخلع على الاشكال الجميلة حسنها انما هو كونها تعبر عن صفات النفس في صميم المادة ، فهنالك نراه يتدرج من التعلق بجمال الاجساد الى التعلق بجمال النفوس . فاذا وجد نفسا جميلة في غلاف دميم ، لم يمنعه ذلك من التعلق بصاحبها، بل يجتمع به ، ويتخذ منه رفيقا له ، ويهتم بتهذيبه وتعليمه ، حتى يصلح من حداثته . وحينما يدرك السالك أن جمالا واحدا بعينه هو الذي يجعل النفوس الجميلة جديرة بالحب ، فانه عندئذ سرعان ما يتحقق من أن ثمة جمالا معنويا هو الذي يجمع بين شتى النفوس الجميلة . فاذا ما انتهى الى هذه الدرجة كان عليه أن يصعد الى جمال النظم والقوانين ، فالى جمال العلوم النظرية ، حتى يقف على جمال كل ضرب من ضروب المعرفة . وهكذا يتسنى للسالك ان يتحرر من عبودية التعلق بجمال فتى بعينه ، أو جمال رجل بعينه ، أو جمال نظام بعينه ، لكي يتجه بكل انظاره نحو محيط الجمال الشاسع ، فلا يلبث ان يجد في مثل هذا التأمل بذور الحكمة التي قد تمكنه فيما بعد من أن يجتنى ثمار المعرفة الحقيقية .

ولا يزال السالك ينتقل من جمال الى جمال، ويصعد من علم الى علم ، حتى ينتهي في خاتمة المطاف الى رؤية الجمال الكلي الثابت ، ذلك الجمال الازلي المطلق الذي هو الغاية القصوى لكل من الفكر والعاطفة . وعندئذ نراه يتوقف لكي يتأمل ذلك الجمال العجيب الذي تكبد كل هذه المشاق في سبيل الوصول اليه . وكيف لا تقف النفس مذهولة أمام هذا الجمال الفريد ، وهي تشاهد امامها جمالا أزليا لا يعتريه كون أو فساد ، ولا يطرأ عليه تزايد أو نقصان ، ولا يمكن اعتباره جميلا من جهة ودميما من جهة اخرى ، أو جميلا في وقت وغير جميل في وقت اخر ، أو جميلا في مكان أو زمان وقبيحا في مكان اخر أو زمان اخر .. الخ ؟ ((ايه يا عزيزي سقراط ! ان الشيء الوحيد الذي يخلع على هذه الحياة قيمتها انما هو ذلك المشهد : مشهد الجمال الازلي الابدي . وأي شيء يمكن ان يكون اعظم من مصير هذا الانسان الفاني لو قدر له ان يشاهد الجمال الذي لا تشوبه شائبة ، الجمال في صفائه ونقائه وبساطته ، الجمال الذي لا يكسوه لحم، ولا تغطيه ألوان وأشكال مصيرها الى الفناء ، أي مصير يمكن ان يكون أعظم من مصير هذا الانسان ، وقد اتيحله أن يشهد ــ في صورته الفريدة ــ ذلك الجمال الالهي، وجها لوجه ؟)) (٨) .

... بهذه النغمة الصوفية الرائعة ، اختتم أفلاطون في مأدبته المشهورة سيمفونيته الخالدة في ((الحب)) . واذا كنا قد توقفنا طويلا عند النظرية الافلاطونية في ((الايروس)) ، فليس ذلك لما لها من أهمية كبرى في تاريخ مشكلة الحب فحسب ، بل لانها تبرز لنا ايضا بشكل ظاهر نمطا خاصا من أنماط الحب . وأول ما نلاحظه في هذا الصدد ان افلاطون لم يتعرض في كل أحاديثه عن الحب لموضوع الزواج أو لمشكلة المرأة . واذا كان افلاطون قد اهتم بالحب ، فما ذلك لاهتمامه بالاسرة أو بالحياة الزوجية، بل لانشغاله بالدولة، واهتمامه بالحياة الروحية، وعنايته بتحديد الوسائل التي توصل العقل الى أعلى درجة من درجات المعرفة . ومن هنا فان افلاطون لم يهتم بالحب في ذاته بقدر ما اهتم بالذبذبات التي يحدثها الحب في النفس ، والنفحات التي يجود بها على الروح في سعيها نحو الكمال الاسمى . واذا كان افلاطون قد جعل من الحب ((روحا)) أو ((جنيا)) démon ، فما ذلك الا لانه قد فطن الى ان ((الايروس)) وسيط بين البشر والالهة ، أو هو واسطة يتحقق عن طريقها ((الوجد)) أو ((الانجذاب الصوفي)) . وتبعا لذلك فان الموجود المحبوب لا يخرج عن كونه مجرد مناسبة أو واسطة أو منبه يدفع بالنفس نحو البحث عن سعادة أكبر ، وكأنما هو يدعوها الى ان تتجاوزه ، وتعلو عليه ، حتى لا تبقى أسيرة لحضرته الحسية أو وجوده الطبيعي . فالمحبوب ــ في الفلسفة الافلاطونية ــ هو مجرد شرارة تولد نار الحب ، لكي لا تلبث هذه النار أن تؤرث نفسها بنفسها ! وهذا هو السبب في أن افلاطون لم يوجه اهتماما كبيرا الى صفات الفرد الذي يثير الحب ، فضلا عن أنه قد واجه مشكلة جنس المحبوب بشيء من عدم الاكتراث . ولا غرو ، فان الكائن المحبوب لا يوجد الا لكي يعلى عليه ، وكأن الحب الافلاطوني هو ((الجدل)) (أو الديالكتيك) نفسه ، بشرط أن نفهم من ((الجدل)) أنه عملية وصول مصحوبة دائما بعملية انتقال أو صعود : ألسنا نجد الحب الافلاطوني ينتقل من حب الاجساد الجميلة الى حب النفوس الجميلة ، ثم من حب النفوس الجميلة الى حب المعارف الجميلة ، حتى ينتهي في اخر المطاف الى حب ((الخير الاسمى)) الذي لا شكل له ولا صورة ؟

بيد أننا لن نستطيع أن نفهم نظرية أفلاطون في الحب، اللهم الا اذا ربطناها ربطا وثيقا بنظريته في المعرفة. ونحن نعرف كيف أن المعرفة عنده لا تنحصر في تعقل المعنى الكلي عن طريق ادراك الفكر للحقيقة الجزئية او الواقع الفردي ، بل هي تنحصر في استخلاص الماهية البحتة المجردة ، مع اغفال العناصر الحسية ، والفردية، والتاريخية . ولنضرب لذلك مثلا فنقول اننا حينما ندرك ((الوردة)) ، فان ما ندركه ليس هو تلك العناصر الجزئية المتغيرة التي تزول في مجرى الصيرورة ، بل نحن ندرك ((الوردية)) باعتبارها صورة عامة تكمن في عالم أزلي

(٨) Platon : « Le Banquet », 211 - 212. (وانظر أيضا ((الحب الالهي)) للدكتور مصطفى حلمي ، دار العلم ، ١٩٦٠ ، ص ٧٢).

معقول هو « عالم المثل » ! وهكذا الحال ايضا بالنسبة الى الحب ، فان ما أحبه في هذا الموجود الجميل الذي أتعلق به ليس هو تلك الصورة الزائلة التي ينطوي عليها شخصه الجزئي (أو الفردي) ، بل هو « مثال الجمال » على نحو ما يتجلى فيه ، أو على نحو ما يهيؤني هو نفسه لان أراه ! وتبعا لذلك فان الشخص المحبوب لا يحب مطلقا في ذاته ، أو لذاته ، بل هو يحب باعتباره ماهية لا شخصية، أو بقدر ما يشارك في ذلك المثال الاسمىٰ الازلي الابدي، ألا وهو مثال الجمال . ومن هنا فقد بقيت الفلسفة الافلاطونية عاجزة عن تبرير وحدة الموجود ، أو تفسير بساطة الحب الحقيقي، كما لاحظ المفكر الفرنسي المعاصر جان جيتون (٩)

حقا ان افلاطون لم يغفل في حديثه عن الحب عناصر الخبرة الاولية بأشكالها البيولوجية والاجتماعية، وبالتالي فانه قد جعل من الحب غريزة فطرية تخدم أغراض الجماعة،. ولكنه لم يبين لنا في هذا الصدد وجه الفارق بين التكاثر الحيواني الصرف والتناسل البشري في صورته الاجتماعية المنظمة . ومن هنا فان حديثه عن « الحب » من حيث هو وسيلة للتكاثر لم يمتد بأي حال الى دراسة الاسرة وبيان دور الحب في حياة الشخص، بل هو قد وقف عند حدود المدينة أو الدولة . ومن العجيب أن أفلاطون الذي أجرى على ألسنة شخصياته المتعددة في محاورة « المأدبة » أحاديث متنوعة عن الحب (من وجهات نظر مختلفة : طبية ، وسوفسطائية، وشعرية، واخلاقية، وبيولوجية ، واجتماعية وفلسفية ... الخ) لم يستطع معذلك أن يجرد الحب من طابع «التمركز الذاتي»، فبقي الايروس عنده صورة من صور حب الذات. ولعل هذا هو السبب في أن الايروس الافلاطوني قد أصبح علما على نوع خاص من الحب ، ألا وهو « الحب المركزي الجاذب » centripète ، لا « الحب المركزي الطارد » centrifuge (كما هو الحال في الاجابيه) . ولئن كان أفلاطون قد أعلى من شأن الحب حين جعل منه واسطة للخلاص ، أو شوقا أرستقراطيا يدفع بالذات البشرية الى التسامي نحو المقام الالهي ، الا أنه قد تصور الحب على أنه فعل الكائن الناقص ، ما دام الحب اشتهاء صادرا عن حرمان ، وما دام من المستحيل علينا أن نحب حينما لا تكون بنا حاجة أو شعور بالحرمان . وسواء أكان موضوع الحب عند أفلاطون هو الله أو الخليقة ، فان طابع الحب عنده باستمرار هو طابع الحرمان والشوق والاشتهاء ، لا طابع الاستقرار والامتلاك والوفاء . ولهذا فانه لا غرابة على الاطلاق في أن يكون لفظ « الزوجة » هو اللفظ الوحيد الذي لم يرد على لسان أفلاطون في كل أحاديثه المتنوعة عن الحب . هذا الى أن أفلاطون ــ كما لاحظ نيجرن Nygren : لم يستطع مطلقا أن يتصور حبا تلقائيا غير مسبب ، فليس بدعا أن نراه يتحدث عن صعود الانسان نحو الله ، دون أن يخطر على باله أنه قد يكون هناك أيضا هبوط من جانب الله نحو الانسان (١٠) .

وأما لدى الفيلسوف اليوناني أفلوطين ــ زعيم مدرسة الاسكندرية ــ فسنجد محاولة جديدة من أجل التوفيق بين جدل الحب الصاعد ، وجدل الحب الهابط ، عن طريق فكرة السلم الالهي الذي يسمح بالصعود والهبوط معا. ومن هنا فان افلوطين لم يقتصر على القول مع أفلاطون بأن هناك صعودا من جانب الانسان نحو الله ، دون ان يكون هناك أي هبوط من جانب الله نحو الانسان، بل هو قد أضاف الى ذلك أن الكل قد صدر عن الواحد ، وأن الصدور هو في صميمه ضرب من الهبوط . وعلى حين أن افلاطون كان يرى أن الايروس هو حب الانسان لله، وأنه لا يمكن نسبته الى الله ، نجد أن أفلوطين يقرر بصريح العبارة : « ان الاعلى يهتم بالادنى ، ويعمل على تزيينه » . (التاسوعات ، ٤ ، ٨ ، ٨) . وهذه الفكرة التي ظهرت لاول مرة في تاريخ التفكير اليوناني لدى أفلوطين ستتردد من بعد عند جماعة الاباء المسيحيين والمشتغلين بعلم اللاهوت ، خصوصا وأن فكرة السلم السمائي (أو الالهي) التي أقترنت بنظرية أفلوطين في الايروس ، قد أغرت المدافعين عن العقيدة المسيحية باستخدامها في تقريب فكرة « الحب المسيحي » الى أذهان الناس . ومن هنا فقد امتزجت لغة « الايروس » بلغة الاجابيه » لدى آباء المسيحية الاوائل ، في حين أن الفارق شاسع (كما سنرى) بين الحب اليوناني والمحبة المسيحية (١١) .

والحق أن « الايروس اليوناني » لم يكن يعني المشاركة المتبادلة بين شخصين ، بل كان يعني الهوى الجامح الذي يذيب فردية العاشق في حالة من الاتحاد الصوفي مع المطلق أو الاله . ومن هنا فان المحب لم يكن يتوقف عند « محبة القريب » ، بل كان يمضي مباشرة نحو الحقيقة الالهية ، آملا أن يكسب ذاته صبغة الهية، وكأن عشقه في الحقيقة حلقة دائرية تبدأ منه لكي ترتد اليه! ولعل هذا هو السبب في أن كثيرا من المفكرين الذين تحدثوا عن الحب في العصور الوسطى المسيحية قد اعتبروه ضربا من الاستغراق في الجمال الازلي ، وكان الاتحاد بالله هو صورة من صور الخبرة الجمالية ! ولا نرانا في حاجة الى القول بأن هذا التصور الجمالي للحب انما يرتد الى الفهم اليوناني للايروس ، ما دام الحب ــ كما رأينا عند أفلاطون ــ هو مجرد وسيلة للتصاعد أو التسامي أو بلوغ الكمال المطلق .. واذا كان البعض قد اعتبر «الحب الرومانتيكي » صورة أخرى من صور الحب اليوناني أو الايروس ، فذلك لان هذا الحب قد تجلى على صورة هوى عنيف لا يقوم على التبادل أو المشاركة بقدر ما يقوم على التمركز الذاتي وحب الحب ! وكما بقي الايروس اليوناني خارج أسوار الزواج ، فقد بقي الحب الرومانتيكي أيضا متحررا من سائر قيود الزوجية !

ولنحاول الان أن نلقي نظرة سريعة على هذه الصورة الرومانتيكية للايروس ، حتى نفهم كيف استطاعت هذه الصورة أن تؤثر على العقلية الاوروبية خلال أجيال طويلة، على الرغم من انتشار المسيحية في ربوع أوروبا ، بفكرتها الخاصة عن الاجابيه أو الحب المسيحي . وهنا نجد ان الاصل في ظهور هذه الصورة هو قصة ترستان وايزو Tristan et Yseult التي عمل على نشرها جماعة التروبادور وشعراء الغزل في العصور الوسطى (١٢) . وتتلخص هذه القصة في أن ترستان كان يعمل فارسا في

(٩) J. Guitton : « L'Amour Humain » , Aubier, Paris, 1948, pp. 30-31.

(١٠) M. Nédoncelle: « Vers une Philosophie de l'Amour ». Paris, Aubier, 1957, Nouvelle Edition, f. 22.

(١١) M.C. D'Arcy : « The Mind and Heart of Love ». N.Y., 1956, p. 73.

(١٢) Cf. D. dé Rougemont : « L'Amour et L'Occident », Paris, Plon, 1939.

بلاط الملك مارك . ولما كان قد أقسم على الولاء للملك ، فان قوانين الفروسية كانت تقتضيه أن يقوم بأداء بعض الواجبات نحو الملك ، باعتباره سيده الاقطاعي الذي لا بد من أن يدين له بالطاعة والولاء . وقد كان ترستان بالفعل وفيا بالعهد في كثير من المناسبات ، فكان يأتي الكثير من أفعال البطولة ، ولكنه كان يخون سيده في مناسبات أخرى ، فكان يحنث بيمينه ويعتدي على شرف سيده. والكاتب يصور لنا ترستان بصورة الضحية التي تعمل بوحي من مصيرها ، وكأن غرامه العنيف هو وحده الذي كان يملي عليه كل دوافع سلوكه . ويروي لنا صاحب القصة في بعض الاحيان أن السر في مسلك ترستان هو أنه قد شرب جرعة الحب ، فلم يكن له من سبيل الى مقاومة عاطفته الغلابة ، بينما نراه يصور لنا ترستان في أحيان أخرى بصورة العاشق الولهان الذي تسيره عاطفته دون أن يملك التحكم فيها أو السيطرة عليها. ومهما يكن من شيء ، فقد وقع ترستان في غرام ايزو زوجة سيده ، وان كنا لا ندري هل امتدت هذه الصلة الغرامية التي نشأت بينهما الى الاتصال الجنسي ، أم هل بقيت مجرد صلة روحية صرفة . ولكن الكاتب يذكر لنا أن الملك فاجأ العاشقين يوما وقد استلقيا أحدهما الى جوار الاخر ، وبينهما سيف مصلت يفصل بينهما ، رمزا على عفافهما وطهرهما . والواقع أن العاشقين لم يكونا محبين بمعنى الكلمة ، لان كلا منهما لم يكن يحب الاخر ، كما أن كلا منهما لم يكن يحرص على البقاء الى جوار الاخر ، وانما كان كل منهما يحب الحب ، ويعمل بوحي من القدر ! ومن هنا فقد كان ترستان يرد ايزو الى زوجها الملك مارك ، ولكنها لم تكن تحتمل غيابه عنها ، فكان الغرام يعاودها ، ولم تكن لتقوى على مغالبة هواها ، أو التحكم في عاطفتها ، أو توجيه مصيرها !

تلك - بايجاز - خلاصة قصة «ترستان وايزو» التي كانت مصدرا خصبا لمعظم روايات الحب في أوروبا ، فاستلهمها دانتي ، وراسين ، وبلزاك ، وجيته ، وكلودل ، وغيرهم . وربما كانت الاهمية الكبرى لهذه القصة أنها تخفي وراء غموض أحداثها ايمانا خفيا ببدعة دينية هي « الغنوسطية » ونزعة التطهير (أو التنفيس) Catharsis فنحن هنا بازاء شخصيتين معذبتين قد ابتليتا بنكبة « الحب » ، والحب - في شرعهما - هوى أليم ، أو انفعال قاتم ، فهو لا يوجه المحب نحو التعلق بأي موضوع حسي كائنا ما كان ، وانما هو يقتاده - من حيث لا يدري - نحو الهلاك أو الموت ! ومعنى هذا أن كل من يتعاطى جرعة الحب لا بد من ان يكون مصيره الى الفناء ! وتبعا لذلك فان « الايروس » في قصة ترستان وايزو ليس طفلا صغيرا ، كما كان الحال في الكثير من الاساطير اليونانية ، بل هو غادة جميلة لا ترفق ولا ترحم ، فهي ما تكاد تومىء بطرف أصبعها ، حتى يجد العاشق نفسه أسيرا لها ، مقيدا في حبالها ! وهذا هو السبب في أن الحب الرومانتيكي قد اقترن دائما بمعاني «النار» و«الاحتراق» و « الاكتواء » ، و « التلظي » ، و « التألم » و «الجراح» و « العذاب » و « الشقاء » و « الموت » ... الخ. ومن هنا فان الحب الذي كان كل من ترستان وايزو يستشعره في أعماق نفسه حينما يحدق في عيني الاخر لم يكن سوى حب للحزن والشقاء ، وكأن قد كتب على جراح هذين العاشقين ألا تبرأ ! والواقع أن « محبة الحب » عند كل من ترستان وايزو انما كانت تخفي وراءها هوى عنيفا جامحا كان يدفع بكل واحد منهما نحو التعلق بالموت ، والشوق الى الفناء . حقا انهما لم يكونا على وعي بتلك الرغبة الخفية التي كانت تملي عليهما أفعالهما ، ولكنهما في أعماق قلبيهما انما كانا يعملان بوحي من ذلك الهوى المحتوم الذي كان يسوقهما نحو الموت . وكأن هذين العاشقين المعذبين انما كانا يتمنيان في قرارة نفسيهما أن يجيء الموت فيخلصهما من مرارة الحب ، ويفتديهما من عذاب غرامهما القاتل ! وليس بدعا اذن أن تكون القوة الخفية التي عملت على استبقاء هذين العاشقين في ظلام حبهما المميت ، هي التي جعلت كاتب القصة يصطنع لغة الرموز ، فيستعير من سحر القرن الثاني عشر وأساليبه الفروسية البليغة الكثير من الاصطلاحات الرومانتيكية المؤثرة (١٣) .

والظاهر أن نجاح الكتاب الرومانتيكيين في التأثير على عواطف الجمهور الاوروبي ، انما يرجع - فيما يقول دي روجيمون - الى أن الانسان الاوروبي يستجيب للمؤثرات العنيفة ، ويؤثر الشقاء على كل ما عداه ! ومن هنا فقد لقي شعراء القرن السابع عشر نجاحا منقطع النظير ، بسبب قصائدهم الحزينة المفعمة بمعاني العذاب والشقاء والوجد والحنين والجفاء والحرقة والجواء ... الخ. كذلك أصاب الروائيون الالمان - من جماعة الرومانتيكيين - في نهاية القرن التاسع عشر نجاحا كبيرا بسبب تلك المسحة الكئيبة التي غلبت على رواياتهم ، فجعلت منها تعبيرا حادا عن معاني القلق والالم والعذاب والانتحار والموت ... الخ. وربما كان في وسعنا أن نلحق بهؤلاء كتابا متأخرين مثل كيركجارد واندريه جيد ، فاننا نجد لديهما ايضا بعض أصداء لهذه النزعة الحزينة المتطرفة (أو ما يسمونه أحيانا باسم dolorisme) والسبب في انتشار هذه النزعة أن العقلية الاوروبية قد ربطت الفهم بالالم ، والوعي بالموت ، فتصورت أن الالام بصفة عامة ، والام الحب بصفة خاصة ، انما هي ميزة كبرى تصحب كل فهم عميق لحقيقة أمر هذه الحياة الانسانية . واذن فلا بد للعاشقين من أن يجتازوا تجربة الالم ، اذا كان لهم أن يفهموا يوما سر الوجود الانساني الذي يمضي حتما نحو الموت !

والواقع أن شعراء الغزل في العصور الوسطى قد اعتبروا « المرأة » أداة يسخرها القدر للتلاعب بمصير الرجال ، كما أنهم ربطوا الحب بالخطيئة متأثرين في ذلك بقول القديس بولس في حديثه عن اغراء حواء لادم : «لقد دخلت الخطيئة الى العالم بفعل امرأة ، فحق علينا الهلاك أجمعين » . ومن هنا فقد اقترن الحب لدى عشاق العصور الوسطى من أمثال هلويز وأبيلار ، وايزو وترستان ، بضرب من الشعور بالخطيئة أو الاثم . ونظرا لان غرام الفرسان في العصور الوسطى كان دائما غراما محرما ارتبط بالشهوة والخطيئة والخيانة الزوجية ، فقد كان من الطبيعي أن يصحب هذا الحب الاثم ضرب من الاحساس بالذنب ، وحنين قوي الى تحمل العقاب . ولما كانت « أجرة الخطيئة هي الموت » (كما ورد في الكتاب المقدس) ، فليس بدعا أن تثور في أعماق نفوس هؤلاء العشاق المذنبين رغبة عارمة في تحمل القصاص ، والوقوع تحت طائلة الموت. وهكذا عاش هؤلاء المحبون معذبين أشقياء ، تؤرقهم

(١٣) M.C. D'Arcy : « The Mind and Heart of Love ». N.Y., 1956, p. 36.

ضمائرهم ، وتقض مضاجعهم أشباح الموت ! (١٤)

أما الهوى الرومانتيكي العفيف ، فانه قد اقترن أيضا بمشاعر مماثلة من العذاب واليأس والشقاء : فقد كان أصحابه يعلمون ان غرامهم عاطفة محرمة لا موضع لها داخل نطاق رابطة الزوجية ، ومن ثم فقد كانوا يشعرون بأنه لا مخرج لهم من هذا المصير الشقي المحتوم ! وكان الشاعر المحروم يردد على أسماع غاديته المعشوقة آلاف المرات أهازيج الحب وعبارات الشوق ، لكي تعزف عنه في كل مرة ، وتلقى نداءاته المتكررة بكلمة «لا» ! وعلى حين كانت الزوجة في العصر الاقطاعي مجرد متاع يتركه الزوج في مسكنه ، كانت قلوب الرجال تحلم بالانثى الخالدة التي تدمي القلب فلا يكون له برء ! ولعل هذا هو السبب في أن الحب الاقطاعي قد ارتبط منذ البداية بمشاعر الحرمان واليأس والعذاب ، خصوصا وأن الحياة في نظر رجال العصور الوسطى قد كانت تبدو لهم دائما صراعا بين النور والظلام ، بين النهار والليل ، بين الحياة والموت ، بين الفناء والخلود ، بين اللذة والالم ... الخ . والظاهر أن تعاليم الغنوسطية والمانوية قد أثرت على عقلية الرجل الأوروبي في ذلك الحين ، فاتخذ الايروس في عينيه صورة امرأة ترمز الى العالم الخارجي من جهة، والى الحنين الذي يملى علينا احتقار الملذات الارضية من جهة أخرى . وهكذا أصبحت « المرأة » صورة للنهار والليل ، أو رمزا للنور والظلام ، أو مركبا من الشوق الخالد والجاذبية الجنسية . ثم جاءت فكرة « اللامتناهي » فلعبت دورا هاما في هذا « الغرام الرومانتيكي » ، اذ جعلت العشاق يشعرون بأنه ليس من شأن سائر اللذات الفانية سوى أن تضاعف من آلام جراح الحب . وتبعا لذلك فقد أصبح العشاق مستعدين دائما للتنازل عن « المتناهي » ، لانهم كانوا يشعرون بأن « المتناهي » عاجز تماما عن ان يوفر لهم ما هم في حاجة اليه . ولعل هذا ما عبر عنه نوفالس حينما كتب يقول : « ان العهد الذي قطعه كل منا على نفسه لم يتبادل بيننا من اجل هذا العالم » . ثم يستطرد نوفالس فيقول : « انه حينما يستبعد الالم ، فان استبعاده دليل على ان المرء لم يعد يريد ان يحب . وأما كل من يحب حقا، فانه لا بد له دائما من ان يظل شاعرا بالفراغ المحيط به ، كما انه لا بد له من ان يستبقي جرحه مفتوحا على الدوام » ! ويربط نوفالس الحب بالموت فيقول : « ان الحب لا يكون عذبا حقا الا في الموت . والموت يبدو للموجود الذي لا زال حيا بمثابة ليلة عرس ، وكأنما هو قلب الاسرار العذبة » ! وهكذا تمتزج لغة « الايروس الرومانتيكي » بلغة الرموز الصوفية، فيصبح الحب بمثابة نار روحية تلتهم قلوب العشاق، لكي توحد بينهم في عناق أثيري ، ضامنة لهم بذلك دوام ليلة العرس الى أبد الابدين !

والواقع اننا لو انعمنا النظر الى الكثير من كتابات القديسين والصوفيين المسيحيين من أمثال القديس فرانسوا الاسيزي **François d'Assise** والقديسة تريزا الافيلية **Thérèse d'Avila** ، لوجدنا لدى هؤلاء المتصوفة والقديسين تأثرا واضحا بأغاني شعراء التروبادور ، وبمفهوم الهوى العنيف الذي كان سائدا في العصور الوسطى لدى الفرسان الاقطاعيين . ومن هنا فقد ارتبط الحب في نظر هؤلاء القديسين بالموت ، كما دخلت في صميم تعبيراتهم الصوفية ألفاظ غرامية ترتد بنا الى جو الفروسية ، والغزل ، والحرمان ، والعذاب، والصد ، والجوى ، والشقاء ، والمأساة ، والقلق ... الخ. وحسبنا أن نتصفح تعليق القديسة تريزا على « نشيد الاناشيد » ، لكي نتبين بكل وضوح كيف ارتبط الحب في ذهن هذه القديسة بمعاني « المأساة » و « العائق » .. الخ. فهذه القديسة تتحدث في الليلة المظلمة ، وشقاء الحرمان ، وعذاب الصد ، ونزوع الحب نحو الموت ، الى اخر تلك الاصطلاحات الغرامية التي تدلنا بشكل قاطع على ان فهمها للحب الالهي قد تأثر بفهم العصور الوسطى للايروس او العشق التراجيدي العنيف . ولسنا نعدم لدى غيرها من المتصوفة المسيحيين نماذج أخرى لهذا الربط الوثيق للحب بالموت : فهذا هو القديس فرانسوا دي سال يصيح في مناجاة له قائلا : « ايه أيها الموت الذي يحيينا بحبه ! ايه أيها الحب الذي يميتنا بحياته ! » وفي موضع اخر نراه يتحدث عن الحب، فيشبهه بفاكهة الرمان، من حيث أنه مر عذب **aigrdoux** ، وكان في مرارته عذوبة ، أو في عذوبته مرارة ! ويربط القديس فرانسوا الحب بالعذاب ، فيقرر في مناسبة آخرى « انه لذة الحب قاتلة ، وأن القلب يستعذب ذلك العذاب الثمين الذي يضنيه ويحطمه ! » (١٥) .

ولسنا نريد أن نسترسل في شرح تأثر الحضارة الاوروبية بهذا المفهوم التراجيدي للحب ، وانما حسبنا أن نقرر أن روح « الايروس » قد تسربت الى العقلية المسيحية ، فجعلتها تربط الحب بالموت ، وتقرن مصير العشاق بالشقاء ، وترفض كل اعتراف بالحب في نطاق الحياة الزوجية . والحق أن تأثر العقلية الاوروبية بمفهوم « الايروس » قد جعلها تعزف عن قيود الزواج ، لكي تنشد « الحب » خارج دائرة العلاقات الزوجية ، كما حدا بها أيضا الى التعلق بمحبة الحب أكثر من تعلقها بمحبة المحبوب . وقد وصف لنا روجيمون أولئك المحبين الرومانتيكيين الذين لا يحب الواحد منهم الاخر ، بل يحب واقعة الحب نفسها ، ويحب الاحساس بأنه يحب ! واذا كان فنلون **Fénélon** قد قال : « ان المرء لا يحب للحب ، بل للمحبوب » ، فربما كان في استطاعتنا أن نقول عن عبيد الايروس انهم « لا يحبون المحبوب ، بل يحبون الحب » ! ولا غرو، فان هؤلاء لا يعرفون قيمة الشخص الفردي، وهم لا يريدون أن يكون هناك اثنان في الحب ، بل هم يتصورون في قرارة نفوسهم أنه لا بد لواحد من المحبين أن يختفي من الوجود لكي يستمر الحب ! هذا الى أن من طبيعة الايروس أنه لا يقنع بشيء ، وأنه لا يقوى على الامتلاك ، وانه لا يعرف الشبع ، وأنه ــ كما وصفه أفلاطون ــ حركة ديناميكية لا تكاد تصل الى مرحلة حتى تعمل على تجاوزها والعلو عليها . فالايروس اذن سورة ديناميكية لا تهدأ ، وحركة ديالكتيكية لا تتوقف ، ونزوع مستمر لا يعرف الاعياء أو الكلل . وهذا هو السبب في أن عبيد الايروس لا يمكن أن ينعموا بلذة الاستقرار ، أو أن يعرفوا عذوبة الامتلاك ، أو أن يسعدوا باسعادهم لغيرهم من الناس . ولا عجب بعد هذا كله أن يكون الناس قد شبهوا الحب دائما بالنار ، وهل تحرق النار الا بحركتها المستمرة؟

(١٤) **Morton M. Hunt: «Natural History of Love». Four Square, 1962, p. 166.**

(١٥) **St. François de Sales : « Traité de l'Amour de Dieu » , VII, 13.**

حول كتاب أمين الخولي

مالك : تجارب حياة

بقلم محمد محمود عبد الرازق

يعنى المؤرخون في العصر الحديث بالتأريخ للشعوب لا للافراد ، فالشعوب هي صانعة التاريخ ، وهي الازميل الواعي الذي يخلع على الحياة الجمال والبهجة ، والمحرك الدافع لها ، العامل على تخصيبها ونقلها من طور الى طور ، بقوة الفكر والعمل والتضحية . وليس معنى ذلك ان تراجم الاشخاص الى زوال ، اولا : لانه لا يمكن انكار دورالافراد في تحريك عجلة التاريخ . ثانيا . لان كل العلوم والفنون تعني اشد العناية بسير رجالها البارزين مضمنة هذه السير افكارهم وخبراتهم ، لتكون امام الجيل الناشىء نبراسا يهدى الى الرشد ويعصم من الضلال ، وقدوة حسنة تدعو الى التقليد والاضافة .

وبقدر مايعني كاتب السيرة الحديث بالفكرة والخبرة بقدر مايطرح الحسب والنسب والمآثر المنقبية جانبا . فنحن نتوق الى معرفة آراء ابن خلدون الاجتماعية والتاريخية والاوتوجرافية (١) ونتحرق شوقا الى علم مالك وفقهه التي كانت تضرب له آباط الخيل ، اما سلسلة النسب بين ابن خلدون ووائل بن عطاء فمن المتبع ان نمر عليها مر الكرام ، كما لايهمنا في قليل او كثير ان « يفتل » مالك « سبلتي شاربه » او لايفتلهما وان « يفرق شعره » او يرسله ، فهذه امور قد يعني بها كاتب الرواية او المسرحية التاريخية لاتصالها بالناحية الجسمانية للشخصية . اما كاتب السيرة الذي يدعى انها « تاريخية علمية » فيثقل على قارئه أيما اثقال ويرهقه من أمره عسرا اذا افرد فصلا كاملا (٢) للحديث عن حب مالك للثياب والزينة والوان من الطعام والشراب ، كحرصه على شرب السكر في الصيف والعسل في الشتاء ، وشغفه بالموز ومقالته فيه ،وغير ذلك من الشؤون الجبلية التي اسهب في سردها اسهابا كاد يصرفناعن اتمام الكتاب ، لولا شفاعة الشوط الممتع الذي قطعناه منه ، واشراقة الشوط المقبل الذي يشير ثبت الكتاب الى امتلائه بالفقه والعلم .

هذا من جهة ..

ومن جهة اخرى ، نجد ان الخرافات الاسطورية التي كانت توافق العقلية الفطرية الفجة قد أضحت أثرا من آثار التاريخ الفكري ، الا ان تعاقب الاجيال وحاجتها الى الفهم وميلها الى المعرفة اخرج لنا منها ولدين كريمين عزيزين على انفسنا هما القصة والسيرة ، فصارت القصة من احب فنون الادب الى قلب القارىء المعاصر ــ ان صح التعبير ــ وصارت السيرة من اشهر الوان الكتابة التاريخية واكثرها امتاعا له ، يقبل عليها متقمصا شخصية البطل تارة ، ومحتذيا بأعماله وافكاره تارة اخرى ، حتى قيل انه يقرأ وفي ذهنه سؤال حاضر دائما : ماذا لو كنت في مكان البطل ؟.. بل وقد يحكم على قيمة العمل الفني بهذة العقلية الفردية حكما ذاتيا محضا .

وما ان لاحظ كتاب القصة هذه الظاهرة النفسية الهامة حتى اصبح شغلهم الشاغل ، الا تكتب القصة لمجرد المتاع والتسلية ، وانما لخدمة الانسان .. لمعرفته لنفسه من خلال معرفته للاخرين ، ومعرفته للعالم المحيط به .. طبيعة ومجتمع . فاتسعت بذلك الهوة بين القصة الهادفة والاسطورة الام .

ولقد مرت السيرة في مسيرها الطويل بشيء كهذا حتى تخلصت من المنقبية والاسطورية التي تشكك القارىء في قيمة العمل الفني عامة .

وما السيرة الا قصة « انسان » معروف لدى التاريخ فلا يجب ان تغيب عنا آدميته . ولقد صدر عالمنا الجليل كتابه بكلمة كهذه حين قال « ما ننظر في حياة هؤلاء الرجال وعملهم وعلمهم الا النظرة الواقعية الى بشر مثلنا » .

ولكننا نعود الى « المنقبية » في ثوب جديد ، اذا ماافردنا جزءا كبيرا من الكتاب للحديث عن اخص خصوصيات المترجم له ، وحملنا « عامل الوراثة » في جزء اخر مالا طاقة له به كما سنبين ذلك في حينه ، وتزداد خطورة هذه « المنقبية الجديدة » حين تصدر عن مؤلف مشهود له بالكفاءة والعلم ، لاتخفى عليه النظريات الحديثة في « كتابة السير » .



بعيدا عن هذا كله ، نرى ان الكاتب قد اختط لبحثه خطة حميدة حين تناول اخبار المترجم له بالنقد الفاحص المدقق المعتمد على اخر تطورات العلم ورقيه ــ كما نبه الى ذلك ابن خلدون ــ مستبعدا مايتضح انه مجرد أختلاق غير مقبول عقلا او عادة بحسب « طبائع الاشياء وقوانين العمران » (٣) ومفسرا مايشتبه في كونه من المناقب تفسيرا ماديا بحتا .

مثال ذلك : ماروى من ان ام مالك قد حملته سنتين او ثلاث ــ على اختلاف الرواة ــ وهذه عند العرب خاصية تدعو الى الفخر لان طول المدة يهيىء للارحام ظروف انجابه للنجابة وانضابه للعلم ــ كما كانوا يعتقدون ــ ولقد أحبط اعتقادهم بقول المؤلف « ربما كان منشأ مازعموه تجربة في طول الحمل انه كان من نساء ممتدات الطهر ، على قول الفقهاء، لا يحضن ، فتظن المرأة نفسها حاملا زمنا طويلا ، لعدم الحيض، وتحسب الزمن حسابا غير منضبط ، مع ان مدة الحمل الفعلية لم تجاوز القدر الذي يعرف ان العلم يعترف به في ذلك ، وهو احد عشر شهرا » .

ويقولون ان الغفلة وقلة الحذق في امور الدنيا صفة من صفات العلماء الذين لايهتمون الا بشؤون الاخرة عادة .. ويعزو بعض مترجمي مالك المتأخرين فصلا كاملا في مخطوطه يخصصه للبحث « في تغفلهوقلة حذقه في امور الدنيا » . ويروون في المناقب ان شخصا قال لمالك : ان ابا عبد الله « مرة يخطىء ومرة لا يصيب » فلم ينتبه الى هذه الدعابة وقال : كذا الناس ، فقيل له : ولكن هكذا انت ، « فلما فكر في ذلك غضب » . ومن تلك المرويات ايضا انه سئل عن « كسر ثنية ظبي »فأفتى في ذلك وليس للظبي ثنية كما هو معروف .

وردا على هذه الادعاءات يقول الكاتب :

١ ــ قصة ثنية الظبي وكسرها أحجية من الاحاجي التي رويت مع مالك ومع غيره كأبي حنيفة مع تغيير في الرواية .

٢ ــ مع افتراض صحة هذه الروايات يرى انها ليست مظهرا من مظاهر التغفل وقلة الحذق لان كثيرا من الاذكياء الواعين « يكون لهم من وضوح الشخصية وقوتها مايكفي ولكنهم لايتجهون الى الانتباه الى مثل هذه « الفوازير » وتفوتهم فيها البادهة ، وان اهتم بمثل هذه الاشياء واتجه الى جمعها والعناية بها اشخاص لانصيب لهم من قوة الشخصية الا أشباه هذه البسائط ومثل ذلك نراه ايضا في النكتة والفكاهة عندما تبنى على المشاكلة اللفظية ، فلا يكون لناس من الاذكياء عناية بمثل هذه المشاكلات او المفارقات اللفظية ، وان سارع الى ادراكها من هم اقل منهم ذكاء بكثير » .

٣ ــ « كان مالك قليل الضحك فضلا عن ان يكون صاحب دعابة ،

هـذه الدعـوى المرددة التي لا يتشبث بهـا الا ضعاف النفوس تغـرى امـام المدينـة نفسه وفقيه عصره .

ان تفسير وقـار مالك وهيبته لا بد له من ظواهر نفسية واجتماعية (بيئة وثقافة ..) تسنـد هذا العامل الوراثي الذى يشك الكاتب فـى بعض اخباره ، ولا نوافق نحن على تحميله كل هذه النتائج وان صحـت الاخبار . ولقـد لاحظ الكاتب ذلك فى بعض تحليلاته فاثـر السلامـة وهـو بصدد تفسيره لشغف مالك بالغناء ، والموسيقى ، وتتبعه المغنين في بداية حياته حتى صرفته امه عنهم ، لاحـظ ان عـامل الوراثـة وحده لا يكفى فذكـر قول الاولين «غزل يمـان وذل حجازي » مشيـرا بذلـك الى بيئـة مالـك الحجازيـة بجانب اصله اليمـانى . وحينما يتصدى لرقـة مالـك ينبهنا الى غزل اليمـن وترف الحجاز ورقـة مزاج بعض اساتذته كربيعـة الرأي الذى كان يلبس الاقمشة الرقيقة، وابن اذينـة الذى كـان شاعـر غزل صنعته الغناء ، فضـلا عـن اجادته الفقه وروايته الحديث .

كل هذه امور يبذل الكاتب فيها جهدا مشكورا . ولكنـه فـي بعض الاحيـان يريق هذا الجهـد فيمـا لا ينفع ولا يضر ولا يغنى عن النـاس شيئـا ،مثله فى ذلـك مثل المحارب فى غيـر ميـدان ،ومن يريـق الدم فى غير جهاد. مـن ذلك محاولة توفيقه بيـن ما يـروى عن حب مالـك للحم « وانه كـان يصيب منه درهمان فى اليوم لا بـد منهما ولو ببيع شيء من متاعه » وبين ما يروى من ان اختـه كـانـت « تهيىء له فطره خبزا وزيتـا » .

وبعد توفيقه بيـن الروايتيـن والمسالة لا تعصى على فهـم القارىء العادي ولا تحتـاج الى توفيق (٤) يقول وكانه وصل الى نتيجة هامـة فـى امـر خطيـر « لعل المسالـة لوتلقيت هـذا التلقى لاغنت نفسهـا واغنتنا معهـا عـن ملاحظـة هذا الاضطراب . عـلى انـه اضطـراب وتناقض قـد ضـاع معه طريق الوصول الى توفيق ، مـع ان الامر على الاخيـر الذى شرحنـاه لا اضطراب فيه ولا تناقض » . يالضيعـة الجهد المبـذول !!..

والكاتب لا يترك المسالة تمر عند هذا الحد ، وانمـا يتصـدى لحرصه هذا على اكل اللحم رغم تشبهه بعمر بـن الخطاب الـذى روى عنه فى الموطأ (٥) انه أنب رجلا اشترى بدرهم لحمـا وذكره بقولـه تعالـى « أذهبتم طيبـاتكم فى حياتكم الدنيـا واستمتعم بهـا » .ويحاول ايضـا الغوص فـى لا بحـر ، والمسالة مرجعها الاول والاخير الـى الجبلـة الشخصيـة .

❊ ❊ ❊

ولعل الفصول التي تعرضت « لمالـك الطالب » و « الحياة حـول مالـك » و « مالـك الفقيه» و « فقه مالـك » هي امتع ما في الكتاب . ففي « مالك الطالب » يحدثنا عن مكان الدراسـة وزمـانها ، وقـد حرص على ان يكون كلامه عن اساتذته مزودا ما امكن بملامح شخصياتهم العلميـة والخلقيـة والاجتماعيـة ممـا يؤثر في نفسيـة الطـالب ، خاصـة وان طالب العلم الدينى « تسود جوه ، روح التقديـر للسلف وانفعالـه بهـم » وان الطالب فى هـذا العصر كـان يختار اساتذتـه ولا يفرضـون عليه فرضـا كمـا هـو الان . ولقـد كان التعـاطف بيـن مالـك واساتذته واضحـا فهـو الذى قال عن ربيعة الـرأي (٦) « ذهبت حلاوة الفقه منذ مـات ربيعه » وهـو الذى اختار ابن اذينه المولـع بالغنـاء ودرس عليه .ومن اساتذته ايضا الفقيه الكبير ابـن هرمز الذى اصل فى تلميذه الشجاعـة فى الـرأي وعدم المجادلـة بالباطـل والمسارعـة الى قول « لا ادرى » او « لا احسن » او « حتى انظـر » حال الشبهة او الشك . وقـد روى ان مالكـا سئل حين تصدر فى اربعين مسالة فقال فى ٣٦ منهـا : لا ادرى .

وقد درس مالـك كذلـك على نافع بن سرجس وجعفر الصادق وابـن المنكدر وغيرهم من الفقهاء المعتبريـن .

ولا نكاد نخرج مـن هذا الفصل الا وفى جعبتنـا حصيلة وافيـة ـ بالنظـر الى حجم الكتاب ـ عن فقهاء ومحدثيـن منهم المشهور ومنهـم الجدير بالاحياء مما كاد يخرج الكاتب من حيز الترجمة لشخـص الى الترجمـة لجماعـة فى عصـر معين ، خاصـة وانـه قـد تحـدث في غيـر هذا المكان عـن رجـال اخر كـان لهـم دور معلوم في السياسـة او الفقه كمحمـد بن عبدالله الشبه ، قائد ثورة المدينـة على الامويين ، والليث بن سعـد فقيه مصر ، وصديق مالـك الـذى يعنيه حين يقول « واخبرني من ارضى من اهل العلم » (٧).

بل ان الكتاب في جملته يعـد مرآة صادقـة لعصر مالك عله ، فنـراه يحدثنا عـن السياسـة العامة والحياة العقليـة والاجتماعية بالحجاز، والخلاف الفقهى المشهور بيـن اهل المدينة واهل العراق .

ولا ينسى الكاتب « العامل الوراثي » واصل الاجناس ايضـا ، ممـا يوضح لنـا مـدى تمسكه بهـذا المنصرفيقول « وتنابز البلاد قـد يكـون صدى لتنابز الاجناس البشريـة العليـا » وهو لا يرضى عـن هـذا التنابز الذى يولـد التهاجي بالباطل ويؤثـر الا يخوض فيـه محيلا القارىء الى كتـابه الاول عـن مالك (٨) . ولكـن لا يجـوز ان نترك المسألة تمر دون اشارة الى ان هذا التنابز ، ليس مرجعه تنابز الاجناس البشرية ، وليس مرجعه الى التفرقة بيـن اهل الرأي ويقصد بهم اهل العراق ، وبيـن اهل الحديث وهم الحجازيـون . ولا ان الاول غواصون على المعاني لا يحجمون عن الفتـوى ، والاخر هيابون يحرصون على ما يظهر من المعاني . فهاتان النزعتان لم تكونا من النزعات الاقليمية بحال ـ عمـا يقول استاذنـا الشيخ فرج السنهورى ـ ولم تكـن هنـاك نزعـة عراقيـة ونزعـة حجازيـه كمـا يزعمـون ، وان كـان مالـك فى الحجاز فقد كـان فيه ربيعـة الرأي والشافعي واصحابه ، وكـان من اصحاب مالـك بمصر ابن القاسم واشهب واذا كان بالعراق ابوحنيفة ومحمـد وابو يوسف وزفر من اصحاب النزعة الاولـى فقد كـان فيـه ابـن سيريـن والثورى وابن ابى ليلـى من اصحاب النزعـة الثانيـة « امـا قول اهل الحجاز فى اهل العراق واهل العراق فى اهل الحجاز، فهي اقوال لو صح صدورها فانما صدرت عن افراد في افراد » (٩).

❊ ❊ ❊

وغنى عن البيـان ان نشيد برسوخ قلم امين الخولى فى الفقـه والحديث (١٠) . فبعـد مقدمة طويلة عن معنى كلمة فقه ومعنى كلمـة رأي ـ وكان يجمل ان يكتفى بالتعريف ـ خاص ـ عـالمنا الجليـل في فقه مالـك ـ بعيـدا عن الفـروع متناولا اصول الفقه بالدراسـة العميقـة محددا موقف مالـك منها وخاصة عنـد تعرضه للاجمـاع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة . وانتهى مـن هـذا البحث الجيـد الى انـه ليس مـن اليسير ان نستخرج مـن فتاوى مـالـك ومسائله وفروعه اصول كتلـك الاصول الاصلاحية « لانه فى تفكيـره وفتواه انمـا يمثل مرحلة فكـرتها عـن الاصول مبهمة جمـلة » .

وعلى هذا لايسلم بانه قـد سبق عصره فى اخذ الاحكام مـن الادلة اخذا موفيـا بحق التفكيـر الاصولـى فى صورته المتاخـرة .

ونـود ان نقول : ان لكل مجتهـد منذ كـان الاجتهاد طريقته التـى يتبعهـا ومـا يعول عليه من القواعد، غير ان احدا من الاولين لم يعن بتدوينها باستثناء الشافعي في « الرسالة » (١١). وقد قام المتاخـرون بتدوين هذه القواعـد وتلـك الطرق وسموها باصول الفقـه .. وان جاءت هذه التسمية متاخرة آلا ان بعض هذه الاصول كان معلومـا لدى الرعيل الاول، وكل معني بشؤون الفقه يعلم ان الرسول قد قاس وان الصحابة اجمعوا ، ومـا كـان يخفى على الصحابة والتابعين معنـى القياس والاجماع . ولـقد كانت اصول الفقه فى عصر الصحابـة

طبعت على مطابع :

دار الغـد

تلفون : ٢٢٢٩٢١

اربعة : القرآن والسنه والقياس والاجماع .. (وهوهنا اجماع الصحابة).

ولا ينبغي ان ننهى حديثنا هذا دون الاشارة الى رأي قيم فيتاريخ الفقه : فعالمنا الجليل لايوافق علىتقسيم تاريخ الفقه الى ادوار وعصور كادوار تاريخ الادب وعصوره ، بحيث يكون مدارها اختلاف الظروف السياسية . ولا سيما حيث تكون السياسة ليست الا سقوط دولة كالاموية وقيام دولة كالعباسية ، وبالتالى لا يجوز ان نجعل من سقوط بغداد حدا فاصلا في حياة الفقه كحياة الادب ، دون نظر الى اختلاف المنعة فى الاقاليم وقيام دول فتية كالعبيدية والغزنوية لم يضرها تدهور الدولة العباسية . ولقد كان للدولة العبيدية نشاط فقهي مغاير في اصوله وفروعه فقه بغداد والشام والحجاز .

هذا - ولقد وضح لنا عدم صواب التقسيم القديم للادب .. وعلينا ان ننظر الى نشاة الفكروتطوره ((ككائن معنوى)) له ما للكائن المادى من نشاة وتطور معمراقبة حياة هذا الكائن فيبيئته الخاصة بما لها من ملابسات وظروف تختلف عن غيرها وان اثرت وتاثرت بما جاورها .

غاية ما في الامر .. ان نظرة الكاتب الى تاريخ الفقه تعتمد اساسا على دعامتين هامتين :

اولاهما : دراسة نشأة الفقه وتطوره باعتباره عائق معنوى له ما للكائن المادى ..

والثانية : دراسةالفقه فى كل مصر من الامصار على حده مع مراعاة التاثير والتاثر بالبلدان المجاورة .

اما بالنسبة للنقطة الاولى : فليست بالنظرة المبتكرة ولا الجديدة على فكرنا المعاصر ، فاذا ما كان الانسان ((يولد ويتالم ويموت)) كما قال اناتول فرانس ، فان القانون مثلا : يولد باصداره،ويتالم بتطبيقه وسريانه من حيث الزمان والمكان ، ويموت بالغائه.

اما مراحل حياة هذا الكائن المعنوي فهي كمراحل حياة الكائن الحي .. ونلمس ذلك في تقسيم استاذنا الدكتور محمد يوسف موسى للادوار التى مر بها الفقه فى مسيره الطويل : (١) دور النشأة :ايام حياة الرسول وانتهى بوفاته عام ١١ هـ . (٢) دور الشباب - فى عهد الصحابة وكبار التابعين واستمر الى ما بعد القرن الاول الهجرى (٣) دور النضج والكمال - وانتهى فى منتصف القرن الرابع الهجري وفيه كان التدوين والائمة الكبار . (٤) دور الشيخوخة والهرم : وهو عهد التقليد الذي لا يزال مستمرا حتى الان . (١٢) .

اما بالنسبة للنقطة الثانية : وهي دراسة تطور الفقه في كل بلد على حده . فقد اتبع استاذنا الشيخ فرج السنهورى هذه الخطة مع شيء من التصرف منذ زمن (١٣) . فقد قام بتقسيم الفقه الى اربعة عصور (١) عصر الرسول (٢) عصر الصحابة (٣) عصر كبار التابعين . وفي هذه العصور الثلاثة لم يحاول التفرقة بين بلد وبلد فليس ثمة خلاف يستدعى التفرقة والفقه ما زال في دور النشوء، او الشباب ، والتابعون وان تفرقوا في الامصار الا أنهم قريبو العهد بالرسول ولاحاديثه الكريمة دوي كدوي النحل في اذانهم والفترة التي انفردوا فيها قليلة لا تتجاوز نهايتها قبيل نهاية دولة بني أمية .

اما العصر الرابع - فقد اسماه استاذنا عصر فقهاء الامصار، دارسا فقهاء كل بلد على حدة ومشيرا الى ظهور المذاهب الجماعية والى تغير الظروف واختلاف الحاجات مما ادى الى اتساع نطاق الاحكام وكثرة الاقوال مع الاقبال على العلم .

وان كان الاستاذ امين الخولي قد جاء بالخطوط العريضة لفكرته، دون ان تمكنه طبيعة الكتاب من الخوض فى التفصيلات ، ففى اعتقادنا ان فيما ذكرناه عن استاذينا خير تفصيل .

اما بعد .. فهذه خطوطمتفرقة.. خطها قلم يافع تحت سطور سفر كبير ، وغاية ما نصبو اليه ان يغفر لنا - كبير الامناء - هذه الجرأة .

حلوان — محمد محمود عبد الرازق

هامش

١ - ترجمة المؤلف لنفسه .

٢ - الفصل الثامن :مالك في حياته الخاصة من ص ٢٠٤ : ص ٢٣٢.

٣ - عبد الرحمن بن خلدون تأليف الدكتور علي عبد الواحد في ص ٢٣٤ . من نشر مكتبة مصر .

٤ - يقول في توفيقه انه كان يفطر خبزا وزيتا ويتغدى لحما وهذا ظاهر من قول الاثر ((تهيىء له فطره ..)) ولا يحتاج الامر الى عناء ..ولا الى مجرد العرض .

٥ - كتاب لمالك في الفقة والحديث وفي تقديره قيل انه لم يظهر كتاب على وجه الارض بعد كتاب الله تعالى ((اصح من كتاب مالك)) . وينسب هذا القول للشافعي.وقد تحدث المؤلف عن الموطأ في الفصل الثالث عشر من ص ٤٠٧ الى ص ٤١١ وهو الفصل الذي افرده للحديث عن ((مالك المصنف)) .

٦ - هو ربيعه بن عبد الرحمن الملقب بربيعة الرأس لانه كان صاحب رأي في معضلات الامور . وليس الرأي بمعنى القياس .

٧ - آثره الشافعي عند الموازنة بينه وبين مالك وهو يرقد بحي الامامين في جنوبي القاهرة غير بعيد من الشافعي وهما ((الامامان)) في اطلاق الناس الان . وهو ((الامام الليثي)) في الاصطلاح العامي .

٨ - مالك :ترجمة محررة من ص ١٥٩ الى ص ١٦٨ .

٩ - ص ٣٩ من مجموعة المحاضرات التي القاها أستاذنا الشيخ فرج السنهوري على طلبة قسم الدكتوراه بكلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٥٧ - كتبت على الالة الكاتبة .

١٠ - تخرج الاستاذ امين الخولي من مدرسة القضاء الشرعي وكان اول دفعته ، وبعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذي بمقتضاه أنشئت اربع مفوضيات لمصر بالخارج ((انجلترا وفرنسا وايطاليا وامريكا)) . رأت الحكومة المصرية آنذاك ان تنهج نهج الدولة العباسية وتقيم اماما يرعى شؤون الدين في كل سفارة لها بالخارج وكان ان عين امين الخولي اماما بباريس ثم تغير اتجاهه الى روما .. وعند الغاء الامامات عام ١٩٢٧ عاد الى مدرسة القضاء الشرعي كأستاذ في هذه المرة ثم الى كلية اصول الدين فكلية الاداب ، فرغم اهتمامه بالاداب فهو في الاصل عالم من علماء الدين، فلا غرابة ان يجمع كتابه بين المجالين .

١١ - كتاب أملاه الشافعي على تلاميذه بمصر . وبه يعتبر الشافعي اول من كتب في اصول الفقه .

١٢ - المدخل لدراسة الفقه الاسلامي الطبعة الثانية عام ١٩٦١ نشر دار الفكر العربي من ص ٢٢ الى ص ٦٧ .

١٣ - مجموعة محاضراته السابق الاشارة اليها .

الحرية والتحرر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

رفض ريشارد رايت ان يلبي دعوة اميركا حين طلبت عند دخولها الحرب من الزعماء السود ان يتخلوا عن مطالبهم الخاصة من اجل المصلحة العامة ، مقدرا ان من واجبه الدفاع عن قضيته حتى اثناء الحرب ، وعلى كل حال ، فان ما تتطلبه الاخلاق هو الا يعمي المحارب هدفه الذي يقترحه على نفسه الى حد يسقط معه من جديد في تعصب الجد او الهوس . وينبغي للقضية التي يخدمها الا تنغلق على ذاتها ، فتخلق بذلك عنصر انفصال جديدا : ان عليه ان يسعى من خلال نضاله الخاص الى خدمة قضية الحرية العالمية .

وسرعان ما يرفع المضطهد احتجاجا واعتراضا ، فيقول : ها انتم ، بحجة الحرية ، تضطهدونني بدوري ، انكم تحرمونني من حريتي . وهذه هي الحجة التي كان يعارض بها انصار الرق الجنوبيون دعاة الغائه الشماليين، ونحن نعلم ان الشماليين كانوا مشبعين بمبادىء ديموقراطية مجردة للغاية حتى انهم لم يعترفوا لانفسهم بالحق في ان يرفضوا لمزارعي الجنوب حرية امتلاك الرقيق : وانما باسم حجة شكلية خالصة اندلعت حرب الانشقاق . ان مثل هذه الوساوس تبعث على الابتسام . بيد ان اميركا لا تزال الى اليوم تعترف ضمنيا ان قليلا وان كثيرا لبيض الولايات الجنوبية بحرية سحل السود . وهذه هي السفسطة عينها التي تتجلى ببراءة في صحف الحزب الجمهوري الحر ،وببراعة متفاوتة في مختلف الجرائد المحافظة . وحين يعد حزب من الاحزاب الطبقات الحاكمة بحماية حرياتها ، فهذا يعني بدقة انه يطالب لها بحرية استغلال الطبقة الشغيلة . ومثل هذه المطالبة لا تثير الاستنكار باسم عدالة مجردة : بل لان فيها تناقضا يخفيه سوء النية . ذلك ان حرية من الحريات لاتريد نفسها بأصالة الا اذا ارادت نفسها حركة لا متناهية عبر حرية الغير . وما ان تنطوي على نفسها ، حتى تنكر ذاتها لمصلحة موضوع من المواضيع تفضله على نفسها : اننا نعرف بما فيه الكفاية أي حرية يطالب بها الحزب الجمهوري الحر : انها الملكية والمتعة ، انه الرأسمال والرفاهية والامان الاجتماعي . وليس علينا ان نحترم الحرية الا حين تنذر نفسها للحرية ، لا حين تتيه وتهرب وتكذب على نفسها . ان حرية لا تعمل الا لنفي الحرية ، ينبغي ان تنفى . وليس صحيحا ان الاعتراف بحرية الغير يحد من حريتي الخاصة: فكوني حرا لا يعني انني استطيع ان افعل اي شيء كان، بل يعني ان استطيع تجاوز المعطى نحو مستقبل منفتح . ان وجود الغير كحرية يحدد موقفي بل انه شرط حريتي الخاصة بالذات . انني اضطهد اذا ما القي بي في السجن: لا اذا ما منعت من ان القي فيه بجاري .

وعلى هذا ، فان المضطهد نفسه واع لهذه السفسطة: فهو لا يجرؤ تقريبا على الاعتماد عليها ، كما انه بدلا من ان يطالب بحرية الاضطهاد بكل عريها ، يصور نفسه عن طواعية اكبر بانه المدافع عن بعض القيم . انه لا يحارب باسمه : بل باسم حضارة ، ومؤسسات ، وانصاب، وفضائل تحقق موضوعيا الموقف الذي يهدف الى الحفاظ عليه .

انه يصرح ان جميع هذه الاشياء جميلة وصالحة في ذاتها. انه يدافع عن ماض توشح بكرامة الكينونة الجامدة ضد مستقبل غير مضمون لم تتحقق بعد قيمه . وهذا ما تعبر عنه ماركة « محافظ » . ولما كان البعض محافظين على متحف او على ديوان ميداليات ، فان غيرهم يجعل من نفسه محافظا على العالم المعطى . انه يختار ما كان ضد ما لم يكن بعد ، منوها بالتضحيات التي سيؤدي اليها بالضرورة كل تغيير .

ومن المؤكد ان تجاوز الماضي نحو المستقبل يتطلب تضحيات دوما . وان نزعم اننا نحافظ ديالكتيكيا على حي قديم حين نهدمه لنبني على انقاضه بيوتا جديدة ، فهذا ليس الا من قبيل التلاعب بالالفاظ ، فما من دياليكتيك يستطيع ان يبعث من الموت مرفأ مارسيليا القديم . والماضي باعتباره غير متجاوز ، وبحضوره كماض من لحم ودم ، يتلاشى تلاشيا مطلقا . وكل ما يستطيع ان يزعمه تفاؤل عنيد هو ان الماضي بشكله الفريد والمتجمد هذا لايعنينا، واننا لانضحي بشيء اذ نضحي به . وهكذا يرى الكثير من الثورويين ان من الصحة رفض كل تعلق بالماضي ، والدعوة الى احتقار الانصاب والتقاليد . لقد قال صحفي يساري وهو يدوس بنفاد صبر في شارع من شوارع بومباي : « ماذا نفعل هنا ؟ اننا نضيع وقتنا » . وهذا الموقف يؤكد نفسه بنفسه . فلنشح بأوجهنا عن الماضي، فلا يبقى من أثر منه لا في الحاضر ولا في المستقبل . ولقد نسي اهل العصور الوسيطة العصور القديمة كل النسيان حتى لم يعد هناك من يتمنى منهم ان يعرفها . اننا نستطيع ان نعيش بدون يوناني ، وبدون لاتيني ، وبدون كاتدرائيات وبدون تاريخ. اجل. لكن هناك اشياء اخرى كثيرة نستطيع ان نعيش بدونها ايضا . فالانسان لا يهدف الى تقليص نفسه ، بل الى تنمية قدرته . وان نترك الماضي لظلام الاصطناع ، فهذه طريقة في تفريغ العالم من ساكنيه . وانني لارتاب في مذهب انساني لا يبالي بجهود البشر السابقين . واذا كان كشف الكينونة الذي حققه اسلافنا لا يؤثر علينا البتة ، فلم نهتم بالكشف الذي يتم اليوم ، ولم نتمنى بحرارة انجازات مستقبلة ؟ ان تأكيد الملكوت الانساني ، يعني تعرف الانسان في الماضي كما في الحاضر. ان انسانيي عصر النهضة يقدمون لنا مثلا عن المساعدة التي يستطيع ان يقدمها تأصل الجذور في الماضي الى حركة من حركات التحرر . ولا شك في ان دراسة اليوناني واللاتيني ليس لها هذه القوة الحية في كل عصر . لكن كوننا لنا ماض ، يمثل على كل الاحوال جزءا من شرط الانسان . ولو كان العالم وراءنا عاريا ، لما استطعنا البتة ان نلمح امامنا من شيء سوى صحراء قاتمة . ان علينا ان نحاول ، من خلال مشاريعنا الحية ، ان نستعيد لحسابنا تلك الحرية التي التزمت في الماضي وان ندمجها بالعالم الراهن .

لكننا نعرف ، من جهة اخرى ، انه اذا كان الماضي يعنينا، فليس ذلك باعتباره معطى خاما : بل باعتباره يملك دلالة انسانية . واذا كانت هذه الدلالة لا يمكن ان يعترف بها الا مشروع يرفض تركة الماضي ، اذن فينبغي ان ترفض هذه التركة ايضا : فمن العبث ان نبقى ضد الانسان على معطى ليس له من قيمة الا بمقدار ماتعبر حرية الانسان عن نفسها فيه . وثمة بلد انزلت فيه عبادة الماضي منزلة النظام : انه برتغال اليوم . لكن ذلك انما على حساب ازدراء متعمد للانسان . فعلى جميع التلال التي كانت

تقوم فوقها الخرائب ، بنى سالازار قصورا متألقة بتكاليف باهظة ، ولم يتردد في اجراء هذا الترميم في اوبيدوس على حساب الاعتمادات المخصصة لمستشفى الولادة ، مما ادى الى اغلاقه . وفي ضواحي كويمبرا حيث كان ينبغي بناء مستعمرة للاطفال ، انفق الكثير من المال لاعادة تشييد مختلف نماذج البيوت البرتغالية القديمة على نمط مصغر ، بحيث انه لم يمكن ايواء سوى اربعة اطفال في تلك القرية الممسوخة . وهو في كل مكان يشجع الرقص والغناء والاعياد المحلية وارتداء الازياء الاقليمية القديمة : في حين انه لا يفتح مدرسة واحدة ابدا . اننا نرى هنا عبث اختيار يفضل الشيء على الانسان الذي لا يستمد الشيء قيمته الا منه وحده . ان الرقص والغناء والازياء الاقليمية يمكن ان تكون مثيرة للانفعال لان هذه المبتكرات تمثل في الشروط القاسية التي كان يعيش فيها فلاحو الماضي الانجاز الوحيد الحر الذي كان مسموحا لهم به ، فقد كانوا ينسلخون عن طريق هذه المبتكرات عن عملهم المذل ، ويتجاوزون وضعهم ويؤكدون انفسهم كبشر تجاه دواب الركوب . ولهذه الاعياد معناها وقيمتها ، حيثما ما زالت موجودة تلقائيا ، وحيثما احتفظت بهذه الصفة . لكنها لم تعد الا مجرد نصب ممل ، بله تضليل بغيض ، بعد ان اعيد نسخها بأبهة كبيرة من اجل التأثير على سياح لا مبالين . وانها لسفسطة ان يريد الانسان الابقاء بالاكراه على اشياء تستمد كل قيمتها من محاولة البشر الهرب من اكراهاتهم عن طريقها . وعلى هذا ، فان جميع من يعارضون التطور الاجتماعي باحترام المزركشات القديمة ، والسجاد ، والطرابيش الفلاحية ، والبيوت الغريبة ، والعادات المحلية ، والنسج اليدوي ، واللغة القديمة ، الخ ، يعلمون كل العلم انهم يصدرون عن سوء نية : فهم انفسهم لا يتمسكون كثيرا بالواقع الراهن لهذه الاشياء ، وحياتهم نفسها ، في غالب الاحيان ، تدل اوضح دلالة على ذلك . يقينا ، انهم يتهمون بالغلاظة والخشونة كل من لا يعترف بالقيمة غير المشروطة للحبكة الالنسونية (١) . لكنهم يعرفون في الحقيقة ان هذه الاشياء ليست ثمينة في حد ذاتها بل لانها تعبير عن الحضارة التي تمثلها : انهم يطرون ويمدحون صبر وخنوع الايدي الشغيلة الشاخصة الى الابرة ، اطراءهم ومدحهم لاشغال الابرة نفسها . ولهذا فاننا نرفض اشغال الابرة ، لرفضنا الصبر والخنوع . ونحن نعلم ايضا ان النازيين كانوا يصنعون اغلفة كتب وعاكسات للنور جميلة للغاية من الجلد البشري .

وعلى هذا فان الاضطهاد لايستطيع البتة ان يبرر نفسه باسم المضمون الذي يدافع عنه ، والذي ينزله منزلة الصنم المعبود عن خبث نية . ان هذا المضمون يتطلب تجاوزه الخاص ، فيما اذا ربط بالذاتية التي تؤسسه . واننا لانحب الماضي في حقيقته الحية اذا ما تشبثنا بالابقاء على اشكاله الجامدة الموميائية . ان الماضي نداء ، وهو نداء نحو المستقبل الذي لا يستطيع احيانا انقاذه الا بهدمه . اما ان هذا الهدم تضحية ، فمن الكذب ان ننفي ذلك : فما دام الانسان يتمنى ان تكون هناك كينونة ، فانه لا يستطيع ان يتخلى بدون اسف عن اي شكل من اشكال الكينونة . لكن الاخلاق الاصيلة لا تعلم رفض التضحية ولا نفيها : اذ لا بد من تحملها .

ان المضطهد لايحاول فقط ان يبرر نفسه باعتباره محافظا . فهو كثيرا ما يفضل ان يتحدث عن انجازاته المستقبلة ، ويتكلم باسم المستقبل . ان الرأسمالية تطرح نفسها على انها أفضل نظام للانتاج . والمعمر هو الوحيد القادر على استثمار الثروات التي سيتركها الوطني دفينة الارض . ان الاضطهاد يحاول الدفاع عن نفسه باسم نفعيته . لكننا رأينا ان من اكاذيب روح الجد زعمه انه يعطي كلمة « نافع » معنى مطلقا . فما من شيء نافع ان لم يكن نافعا للانسان ، وما من شيء نافع للانسان اذا لم يكن هذا الاخير قادرا على تحديد غاياته الخاصة وقيمته ، اذا لم يكن حرا . ومما لا ريب فيه ان نظاما من انظمة الاضطهاد يستطيع ان يحقق انشاءات تفيد الانسان : لكنها لن تفيده الا يوم يصبح حرا في الاستفادة منها . ان اي فائدة من فوائد الاضطهاد ليست بفائدة واقعية ما دام ملكوت المضطهد قائما . اننا لا نستطيع لا في الماضي ولا في المستقبل ان نفضل شيئا على الانسان الذي يستطيع وحده ان يوجد سبب جميع الاشياء .

واخيرا فان المضطهد يتبجح في ان يظهر ان احترام الحرية لايسير ابدا بدون صعوبة ، بل ربما كان يستطيع ان يؤكد انه لا يمكن احترام جميع الحريات في آن واحد معا . لكن هذا يعني فقط ان على الانسان ان يقبل بتوتر النضال ، وان على تحرره ان يسعى بنشاط الى أن يستمر دون ان ينشد حالة مستحيلة من التوازن والراحة . وهذا لا يعني ان عليه ان يفضل سبات الرق على هذا الفتح اللامنقطع . ومهما تكن المشكلات التي تنطرح عليه ، والفشل الذي سيتوجب عليه ان يتحمله ، والمصاعب التي سيتخبط فيها ، فان عليه ان يرفض الاضطهاد بأي ثمن كان .

ترجمة : جورج طرابيشي

---

(١) : الالنسون : منطقة في فرنسا مشهورة بطريقة معينة في اشغال الابرة . « المترجم »

ما لا يموت

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

لقد كان الموت عندي ، نهاية باردة لا احس بها الا بمشقة وجهد ، ولكنه اليوم وبعد ان ماتت الانسانة التي احببتها طوال عام مضى ، فقد اضحى قريبا بحيث لايفارق القلب .. ولكم خفق القلب لمرآها ؟.. ولكم طرب لهمسات روحها ؟. لقد اصبح الموت يعيش في قلبي نفسه واخذ يشعرني انه ميت في جزء كبير منه ، ذلك الجزء الذي وعى عام الحب في كل دقيقة من دقائقه .

حاولت ان استرجع الذكريات يوما فيوما كما كنت افعل من ذي قبل .. فوجدت صعوبة في ذلك لانني كنت اصطدم بنبأ الوفاة الذي عم وجود تلك الانسانة التي احببت فلا أجدني قادرا ولو بالخيال على تحريك ذلك الجسد الحي اللدن المشبع بالرغبات ودم الحياة الفوار .. لقد جمدت الحياة في جسدها الشاب وصعدت روحها الى الاعالي ،واذا تخيلتها تتحرك ولو بصعوبة وجدتها ونصف ابتسامة تضيء وجهها ، حتى اذا كد الخيال وسيرها قليلا ، مشت في طريق مفروشة بالقبور الفارغة ، فهي معرضة مع كل خطوة لان تسقط في حفرة تنتظر الامتلاء.

***

الشتاء في الخارج ثقيل وحاد .. والريح تعبث بالاشجار العارية، ومن خلف النوافذ يلوح وجه الافق عابسا مكفهرا .. والغرفة تتسع تارة فتشمل ميدان حياة باكملها ، وتضيق تارة فتكون قبرا لمعرفة انسانية تأبى ان تموت ، وكل شيء في الدنيا يحس به القلب وتشعر به النفس لا يخلو من الالم اذا لم نستطع ان نمزجه بأيامنا مزجا دقيقا كما تمزج الطبيعة ملايين النجوم بالسماء المظلمة حتى يبدو الظلام محببا الى العين والقلب مادام قد امتزج بضياء النجوم المشعة .

كنت وانا افكر في نبأ الوفاة واستعرض الكثير من الذكريات اصطدم بواقع هذه الذكريات بعد ان ماتت الانسانة التي كانت سببا في ولادتها ذات عام .

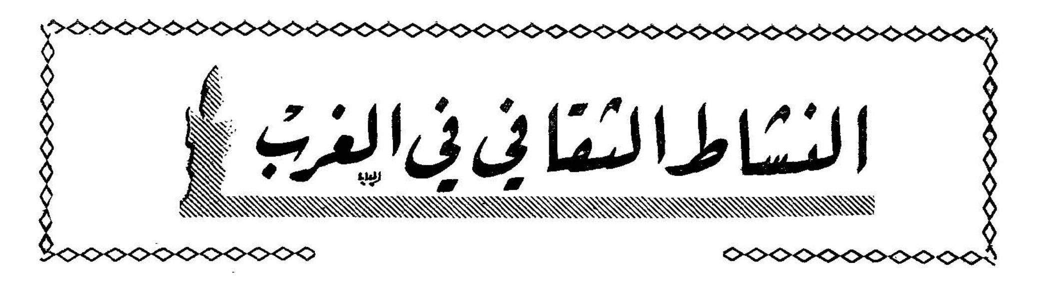
تأملت طويلا فيما تبقى لي بعد موتها .. انها ماتت .. واخذت احس بما مات في قلبي بموتها . ولكنها وهي تمضي الى قبرها تركت في نفسي شيئا واحدا لايموت .. اذ ليس مهما ان استرجع فيما بيني وبين نفسي ذكريات الايام التي امضيتها في صحبتها ـ وان كنت لا استطيع ذلك بعد موتها ـ ولكنني في كل وقت قادر على الشعور بان في القلب رغم كل شيء ذكرى شيء لايموت ..

عندما وصلت الى هذه المرحلة من حوار الشعور ، احسست بالراحة تغمرني .. كانت اشبه بدفء غامر بعد برد شديد .. واخذ افق الغرفة يرق ويلطف .. والطبيعة تبدو ومن خلف زجاج النوافذ مشرقة باسمة .. وزاد الجو لطفا ورقة عندما خيل الي انني ابصرت طيف ذلك الشيء الذي لايموت .

وانحدرت دمعة مضيئة على موت من احببت ، واحسست بدفء الوهج المنبعث من اعماق النفس بعد ان اهتديت الى ذلك الذي تركته في نفسي .. دون ان يطاله الموت ..

وادركت لاول مرة في حياتي ، ان العلاقات الانسانية هي معيار الحياة الحقيقي رغم ما يشوبها من الام .. اذ بدونها تبدو الحياة اجترارا ، وتفقد طعمها الحقيقي .

حلب — علي بدور



فرنسا

عودة لمبور ..

بعد انقطاع عن الانتاج دام سنوات عديدة ، يعود جورج لمبور G. LIMBOUR الى الظهور في رواية رائعة بعنوان « صيد السمك» تثير حماسة القراء والنقاد .

ويعرف القراء الفرنسيون من آثار لمبور « الحصان الابيض الشهير» الذي صدر عام ١٩٣٠ و « اشجار الفانيليا » ١٩٣٢ و « العصفور السارق » ١٩٣٩ و « بريدج السيدة ليان » عام ١٩٤٨ .

وقد تحدث ناقدان معروفان عن رواية « صيد الجواهر » بلهجة اعجاب كبير ، هما موريس نادو وغي دومور . وموضوع الرواية يقع في اسبانيا ، ونرى فيه طالبا اسبانيا من سلامنكا يغادر مدينته الجامعية وينهب ليصيد الجواهر على شاطىء المتوسط ، قريبا من قرطاجنة .وفي تلك المدينة يلتقي بفتاة حانة تستسلم له عند عودته ، ويتعرف على الشاطىء الى فتيات مدريديات والى صيادين لطفاء . وبعد ان يصطاد السمك « الذي يصفه وصفا مدهشا » يعود الى الشمال وهو يشعر بكآبة الحنين الى سعادة ضائعة .

ولا شك في ان هذا الملخص للرواية يعطي القاريء فكرة عن هزالها .ولكن روعة القصة كامنة في الصور ، وفي وصف الشباب والحياة والحب وصفا شاعريا بتنا لانجده كثيرا في آثار هذه الايام . ويقول غي دومور متحدثا عن مزايا ذلك الاسلوب : « انها شعر يبلغ غاية الطبيعية ، كما لو ان لمبور ، بدلا من ان يكون فرنسيا ، ينتسب الى احد هذه البلدان : لبنان او اسبانيا او ايطاليا حيث لاتزال ثمة لغة ليست هي لغة الجرائد ، وانما هي لغة تخلق في كل ساعة بلاغتها الخاصة المنسجمة مع الوان المناظر ، ومع نظرات الفتيات وعذوبتهن ، وكل مايهدم الكلمات . لغة شفافية نادرة (١) .

« ان القاريء حين يكف عن ان يكون سعيدا ، كبطل القصة ، يردد العبارة الاخيرة في هذه القصة الصافية : « وتولد السعادة من جديد على نغمات ناي من عنبر . »

***

منع « القاموس الجنسي »

منذ اشهر ظهر في دار منشورات بوفير بباريس « قاموس العلم الجنسي » وهو قاموس عظيم الاهمية ، وليس فيه اي نزعة للاثارة الجنسية او الدعارة ، وانما هو يحتوي على تحليل موجز لاهم الآثار العلمية المخصصة للجنس . وقد عهد بالمقالات الى اساتذة جامعيين او اختصاصيين ذوي شهرة عالية . ويحتوي القاموس كثيرا من اللوحات الفنية والبحوث الدينية او الفلسفية التي تجعل منه مرجعا لا غنى للمثقف عنه .

ولكن ادارة الرقابة التربوية في فرنسا قررت الا تضع هذا الكتاب في التداول ، بعد تقرير قدمته لها لجنة المراقبة ، واكدت انه ينبغي الا يقع في ايدي من هم دون الثامنة عشرة ، ولذلك لايمكن « ان يعرض للعيان » ولا ان يكون موضوع اية دعاية ... ثم صدر حكم يقضي على مكتبة ماسبرو بباريس بغرامة قدرها ثلاثون الف فرنك لانها سمحت لنسخة من هذا القاموس بان تظهر في واجهة لها مغلقة بالمفتاح !

واتخذت مكتبة ماسبرو وكيلا للدفاع عنها هو موريس غارسون الذي كتب دفاعا رائعا نشر في كتاب تحت عنوان « مرافعة ضد الرقابة » وهو يضم مجموعة من الوثائق التاريخية ويتمتع بقوة اقناع لابد ان يفيد منها كثيرا كل من كان مستعدا للدفاع عن حرية التعبير .

***

تقرير عن الفيلم الفرنسي

نشرت منظمة الاونيسكو تحقيقا عالميا عن « بطل الفيلم » يتناول بالتحليل سلوك ابطال الافلام في العالم ، في مختلف ابعاده . ويتبين من التقرير ان مايلفت النظر في الانتاج السينمائي الفرنسي « غلبة الموضوعات الغرامية او الجنسية غلبة ساحقة » . واهمية الموضوعات الجنسية تبلغ الى حد ان ثلث الابطال يقومون بالعمل الجنسي خلال الفيلم ...وبالمقابل لابد من الاشارة الى ندرة موضوعات المال ومشكلات العمل وغياب المثل والقيم « السياسية والدينية والفنية والاجتماعية الوطنية » والملاحظ ان الابطال جميعهم او معظمهم اغنياء جدا ، او اغنياء فقط .

ومن جهة آخري ، فان معظم الافلام الفرنسية تنتهي نهايات سعيدة اكثر منها شقية . وموت البطل المحبوب لايتلبس طابعا تمجيديا في الغالب .. وانما هو موت عار عن المعنى ، عبثي ، مثير للشفقة .

***

رواج « الرواية الجديدة »

اثبتت « الرواية الجديدة » ان قراءها يزدادون يوما بعد يوم .فقد اصدرت دار نشر « بلون » بباريس مجموعة جديدة بحجم كتاب الجيب نشرت فيها عددا من روايات المدرسة الروائية الجديدة ، ومنها رواية « المماحي » لالين روب غرييه التي باعت ٤٥ الف نسخة ورواية« التغيير» لميشال بوتور التي باعت الكمية نفسها . اما رواية مرغريت دورا « موديراتو كانتابيل » فقد باعت ٤٠ الفا ، واما روايات صموئيل بيكيت وكلود سيمون وبرنار بنجيه فتأتي بعد ذلك : ٣٠ الف نسخة لكل منها.

---

(١) راجع « فرانس اوبسرفاتور عدد ١٣ حزيران الماضي .

الاتحاد السوفياتي



ايتماتوف : جائزة لينين

* * *

منحت جائزة لينين للاداب هذا العام للكاتب السوفياتي جنكيز ايتماتوف الذي يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاما (١) .

وايتماتوف هو مؤلف رواية « جميلة » التي حظيت برواج كبير في معظم انحاء العالم ، واقبل على قراءتها الوف المطالعين الذين لايعتنقون مبادىء سياسية معينة. وقد كتب ايتماتوف كثيرا من القصص الكثيرة تضمها مجموعات « عين الجمل » و « المعلم الاول » و « شجرتي ذات الوشاح الاحمر » .

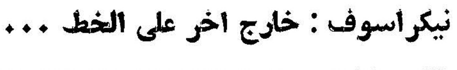
وقد تلقى ايتماتوف دراسته في معهد غوركي للاداب الذي يتلقى فيه معظم الادباء الجدد دروسهم .وقد كرس معظم قصصه للعمال الذين كان يعايشهم في قريته في اثناء الحرب ، حين عمل راعي غنم ، فتعلم روح التعاون والمحبة والمثل .

وقد نشرت مجلة« نوفي مير» (العالم الجديد) رواية ايتماتوف الاخيرة : « الحقل الامومي » التي تتناول موضوع الانسان والحرب ، وقد استوحاها من حديث سمعه ذات يوم من امرأة مسنة في القطار ، كانت قد فقدت بصرها وفقدت زوجها واولادها الثلاثة في الحرب . وكانت تتحدث عن الحرب بغضب كبير والم عظيم خلفه في نفسها فقد اسرتها التي قاومت الفاشستية الالمانية ، ولكنها مع ذلك لم تفقد ايمانها بالانسان والحياة . وتتخذ القصة شكل حوار بين « الانسان » و « الارض » وقد دعاها « الحقل الامومي » لان الارض هي «حقل حياتنا الحقيقي ، وحقل التاريخ والاسرة والعمل والشعب » وهي التي ينبغي ان تتحرر من خطر الحرب وان يحتفظ بها لازدهار الربيع وسعادة البشرية .

ويعكف ايتماتوف الان على كتابة رواية جديدة عن رجل من قريته يعيش منذ عشرين عاما ملقى في سريره ، ولكنه مع ذلك مايزال يحب الحياة .

ــ اريد ان اروي حياته ، ولكني لا اريد ان اثير الشفقة عليه ، بل اريد ان اثير الكراهية للحرب على الارض . هذا ما افكر به حاليا ... بلادي وعملها وحبها وانتصاراتها وفشلها ، الحياة كلها باختصار . وبصفتي مراسلا « للبرافدا » اقضي ثلاثة ايام من الاسبوع في السفر.. طيارات ، سيارات ، قطارات ، ارى الحياة في كل مكان . انها تغلي، وتسير قدما الى الامام فلا يكاد الانسان يدركها . يجب علي طوال الوقت ان ارى وافكر ..

(١) راجع « اخبار موسكو » عدد ٢٩ حزيران الماضي .



نيكراسوف : خارج اخر على الخط ...



في الشهر الماضي اعلنت جريدة « البرافدا » نبأ طرد الروائي السوفياتي فكتور نيكراسوف من صفوف الحزب الشيوعي . وقد اخذ على نيكراسوف انه في كتابه الاخير « على جانبي الاوقيانوس» كان شديد « الرحمة » تجاه الولايات المتحدة . وجاء نبأ الطرد هذا بعد ايام من تصريح خروتشيف: « يجب على الحزب ان يتحرر من امثال هؤلاء » في الوقت الذي كان فيه رئيس الوزارة السوفياتية يبدي بعض « التسامح » نحو النحات « التجريدي » نايزفستني والشاعرين افتوشنكو وفوزنيسنسكي.

فلماذا ضرب نيكراسوف وعفي عن الشبان « اللانقياديين » ؟ يبدو ان هناك عدة اسباب (١). هناك اولا روايات هذا الكاتب الذي يبلغ الحادية والخمسين من عمره (وقد ترجمت اثنتان منها « في خنادق ستالينغراد » و « كيرا » الى الفرنسية) وهي لم تثر الحماس او المناقشات الضارية التي رافقت ، لدى الشبيبة السوفياتية ، ظهور اثار افتوشنكو ورفاقه . واذن ، فمن الممكن اعتبار نيكراسوف كبش المحرقة امام « الانذار » الذي كان الحزب يريد طرحه في وجه الذين تركوا خط « الواقعية الاشتراكية » .

ثم ان نيكراسوف ، بخلاف افتوشنكو وفوزنيسنسكي ونيازفستني، قد رفض أن يقوم بأي«نقد ذاتي » فبدا بذلك« اقل قابلية للاسترجاع».

ومع ذلك فان من يقرأ « على جانبي الاوقيانوس » يشعر ان الرجل الذي امامه لايريد فقط « الحقيقة كلها » عن العهد الستاليني ، ولكنه كذلك شيوعي حقيقي من طينة صلبة صلابة فريدة . وهذا الكتاب يكشف لنا كاتبا يتمنى ان يرى الاتحاد السوفياتي وهو يستعيد ويضطلع بجميع المحاولات الفنية الهامة من العالم الغربي .

وليس ذلك بدافع الفن للفن ، وانما لكي تكتسب الاشتراكية السوفياتية الوسائل التي تخلق حقا المجتمع البشري المستجيب افضل الاستجابة لمتطلبات العالم المعاصر .

لهذا السبب نرى نكراسوف في « على جانبي الاوقيانوس » يشكو في سخرية احيانا وفي لهجة مرارة احيانا اخرى وبكل بساطة غالب الاحيان ، ان ترفض السلطات السوفياتية السماح بعرض افلام برغمان وانطونيوني ، ويعترف بانه استشعر الخجل ، منذ سنوات ، امام بعض محدثيه الغربيين لجهله حتى اسمي كافكا وجويس ، ويصف بالكذب الفقرة المخصصة في دائرة المعارف السوفياتية لسالفادور دالي والتي تنعته بأنه «مغني الحرب الذرية وداعيتها» ويأسف لتباطؤ حكومة الاتحاد السوفياتي في الاستفادة من خدمات المهندس لوكوربوزييه الخ ...

ان جميع هذه الملاحظات تشكل بالطبع نقدا مباشرا « للخط » الايديولوجي الذي يتبعه الحزب الشيوعي السوفياتي منذ سنوات عديدة والذي يدعو اليه في دقة متزايدة منذ بضعة اشهر .

ومن هنا كان السبب الثالث للقسوة الخاصة التي واجه الحزب بها نيكراسوف ، فبينما يبدو افتوشنكو وفوزنيسنسكي شابين ليس آثارهما (وهي في جوهرها شعرية) « في الخط » ولكنها لاتضعه موضع الاتهام ، وحتى ولو كانت « السيرة الذاتية الباكرة » لافتوشنكو تشكل قبل كل شيء نقدا للماضي ، فان نيكراسوف يقترح تغييرات حسية محددة في سياسة الحزب الايديولوجية ، انه « اكثر عصرية » ــ وهي عبارة تتخذ في فم خروتشوف معنى مرذولا ــ اكثر عصرية من اهرنبورغ، وهو في « على جانبي الاوقيانوس » قد ظهر اشد عزما من الكاتب

(١) راجع مقال جاك ميشيل في عدد ٤ تموز من « فرانس اوبسرفاتور»

الكوزموبوليتي العجوز على مكافحة سياسة العزلة الادبية التي ينتهجها الاتحاد السوفياتي .

وواضح ان الموضوع ـ المفتاح في خطاب خروتشوف الذي القاه يوم ٢١ حزيران الماضي في اللجنة المركزية ـ وهو الذي لم ينشر الا يوم ٢٩ منه ـ كان موضوع توكيد هذه السياسة الانعزالية . ولما كان اللجوء الى الوسائل العسكرية غير وارد ، في رأي رئيس الحكومة السوفياتية، ولما كان التنافس الاقتصادي مكسوبا سلفا للاتحاد السوفياتي ، فالخطر الوحيد الذي سيثقل بعد على الاتحاد السوفياتي انما هو نشر الايديولوجية البورجوازية . وقد اشار الى ان على الحزب ، تجاه هذا الخطر ، ان ينصب كتلة موحدة لا صدع فيها حتى لايتمكن « ملح » ايديولوجي الغرب من التسرب . وعلى هذا الاساس ، فان الكاتب الشيوعي نيكراسوف الذي يخطىء حين لا يؤمن بفضائل « خط ماجينو » الايديولوجي لخروتشوف لايستطيع الا ان يبعد عن الحزب .

* * *

قصيدة تخرج للنور

نشرت جريدة « الازفستيــــا » الناطقة الرسمية بلسان الحكومـة السوفياتية ، في عددها الصادر يوم السبت ١٧ اب الحالي قصيدة للشاعر الكسندر تفاردوفسكـي استغرقت صفحتين كاملتين مـن الجريدة . وعنوان القصيـدة « تركين في العالم الاخر » وهـي التي احدثت ضجة كبيرة فـي الاتحاد السوفياتي وخارج حدوده.

والمعروف ان تفاردوفسكي قـد اشتهر منذ عدة اعوام بانه « غير انقيادي » لاسيما وانه هو الـذي نشر مذكرات اهرنبورغ وقصص سولجانتسين وكتبا اخرى اثـارت كثيرا من النقد والمناقشة .

وكان تفاردوفسكي قد نشر عام ١٩٤٦ كتابا ملحميا تمجيدا للجندي الروسي فاسيلي تركين الذي نجد اسمه في جميع دواوين الشعـر السوفياتية الحربية . ومنذ عامين تقريبا ، بدأ الناس في موسكـو ولينينغراد يتداولون نص قصيدة لاتحمل توقيعا ، وهي تروي كيف ان فاسيلي تركين ، الذي قتل في المعركة ، قد نفذ الى العالم الاخر ، عالم شبيه بعالم كافكا ، تسود فيه بيروقراطية حجتها الوحيدة للبقـاء هي ان تخلد نفسها . وفي هذا العالم تكتب لوائح اسماء ، وتمـلأ استمارات اسئلة ، وتعقد اجتماعات ادبية ، بالرغم من ان جميع الادباء قد ماتوا منذ زمن طويل . ولا يستطيع تركين ان يألف هذا العالم العجيب فينجح في الهرب .

هذا الاثر الانتقادي ، نشرته في شهر يناير الماضي مجلة المهاجريـن الروس في ميونيخ « موستي » ، ولكنها لم تذكر اسم مؤلفه ، كمـا ان بعض الصحف قد تلقته .

وحدث ان الرئيس خروتشوف قد استقبل يوم ١٣ اب الحالـي ، وهو في منزله في كاغرا ، على شاطىء البحر الاسود ، فريقا من الكتـاب الاجانب والسوفيات كانوا قد شاركوا في مؤتمر الرابطة الادبيـة الاوروبية بلينينغراد .

وقرأ تفاردوفسكي قصيدته « فاسيلي تركين في العالم الاخر » . وقد قدر رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي هذا الاثر الادبي تقديرا كبيرا بدلا من ان ينزعج منه . وقد ضحك وصفق . وبعد يومين ، اتاحـت « الازفستيا » التي يرأس تحريرها « ادجوباي » صهر خروتشوف ، اتاحت لجميع القراء السوفيات ان يعرفوا اخيرا هذا النص الذي لم يكن حتى ذلك التاريخ الا في متناول فريق محدود من الشعـراء بموسكـو .

انكلترا



كتاب جديد رائع للاوري

* * *

في ليل ٢٨ ـ ٢٩ حزيـران ١٩٥٧ مات مالكولم لاوري M. Lowry وهو في الثامنة والاربعين من عمره ، محترقـا بالكحول ، وشبه مجهول . وفي بضعة اعوام اصبح في شهرة معلميه : ملفيل وجويس . وكان الظن انه صاحب كتاب واحد « تحت البركان » وهو رواية السكر المفرط التي مزج فيها جميـع الاساطير وجميع العلوم ليؤلف نوعا « المهزلة الالهية السكرى » . علـى ان كل عام كان يكشف بعد موته جزءا من اثر ادبي كبير . وفي العـام الماضي نشر للاوري كتاب « اسمع صوتنا ، ايها السيد » وفيه ظهـر وجه ودي لطيف ، يكاد يكون ملائكيا ، لمن كان يظن الناس انه ملعون .

وها هي كلية « الاداب الجديدة » تنشر له اليوم « لونار كوستيك» Lunar Caustic التي تأتي زمنيا قبل « تحت البركان » اي بين الرحلة الاولى التي قام بها لاوري البريء ومكوثه في المكسيك حيث اصبح سكيرا مزمنا ، وحيث اكتشف « دخول الجحيم » .

و «لونار كوستيك» كتاب جهنمي بطله سكير كبير ، هو المؤلف نفسه. والذين ألفوا لاوري سيعرفون المؤلف بسهولة تحت ملامح ذلك الاسكتلندي التائه بين احواض السفن في نيويورك ، في حالة ذهول شديد ، والذي يحجر عليه في مستشفى للامراض النفسية ، فيحسب نفسه احيانـا سفينة ، واحيانا جوقة جاز ، ثم يحسب نفسه اخيرا هنري بلانتاجنيه، بطل الرواية !

والواقع أن مالكولم لاوري انتهى به المطاف عام ١٩٣٤ في مستشفى بلدي في نيويورك لازالة التسمم الخمري . وكان قد تطوع في الثامنة عشرة من عمره كبحار فتسكع على شواطىء سيبيريا ، واصيب برصاصة في الصين وتردد على مواخير جزر الانتيل قبل ان يعود الى اوروبا فـي سفينة محملة بالنمور والفهود والفيلة ، تذكر بسفينة نوح . وبعـد دراسات باهرة في كامبردج ، عاد الى الابحار في النروج واسبانيا وكندا واخيرا الولايات المتحدة حيث عمل ميكانيكيا وعازف بيانو وكاتب سيناريو وكان يقتفي آثار ملفيل وجويس الابيض .

وافترق عن زوجته الاولى وتاه من حانة الى حانة ببسمته الطفولية بسمة المروبص . « الرجل الذي يخرج من قبو قريب من احواض السفن، وفي جيبه زجاجة ويسكي » هذا هو السطر الاول من « لونار كوستيك » التي تنتهي بانه « ينكمش على نفسه في اظلم زاوية من الحانة ، لاتدركه العيون » هوذا لاوري ، ولونار كوستيك هي « فصله في جهنم » او بالاصح محطته الاخيرة على طريق البركان حيث يسهر « تيفيه » ، العفريت ذو المئة رأس ، على مدخل الجحيم .

وحبكة « لونار كوستيك » بسيطة جدا : مسافر ثمل يترنح على احواض السفن النيويوركية وينتهي به الامر الى اقناع مستشفى الامراض النفسية بقبوله نزيلا . وهناك عقد صداقة مع رجلين ، وعند خروجه اعاد له البواب ، مع ثيابه ، زجاجة الويسكي التي وضعها لديه عند الدخول. حس فكاهي يميز كتابة لاوري ، وهو واقعي ورمزي في وقت واحد .

ويحدس القارىء ان بلانتاجنيه هذا لم يدخل المستشفى ليزيل سموم الخمر . الن يكون الشفاء من الزجاجة حركة اليأس الاخيرة بالنسبة لمن يصرح « برغبته في ان يعدل ، لا عن الخمر فحسب ، بل عن العالم بالاجمال ؟ » ولئن دخل المستشفى ، أليس ذلك بالاحرى خوفا من العزلة والوحدة ، ولكي يتخذ له اصدقاء سكر حيث يكون على يقين من ان يجد شاربين حقيقيين ، لا متسكعي حانات مبتذلين ؟

اليس ذلك خصوصا بدافع الحاجة الى الراحة قبل الرحلة الطويلة ؟ ان الكتاب كله هو مستراح في عاطفة لاوري المهووسة ، لان السفن السكرى لاتلقى مراسيها لمدة طويلة . انه هو يدخل المستشفى كما تدخل سفينة ورشة ، قبل ان تستأنف رحلتها .

وليس من قبيل الصدفة ان تكون نوافذ المستشفى مشرفة على مصب النهر النيويوركي ، وان يقضي بلانتاجنيه ورفيقاه وقتهم في التطلع الى السفن وهي تهبط نحو البحر الذي هو ، عند لاوري كما عند ملفيل ، مسرح الصيد الروحي الكبير . ولما كان يحسب نفسه ، وهو في الهلسنة الكحولية ، سفينة من السفن ، فنحن نرى جيدا انه سينطلق هو ايضا بحثا عن حوته الابيض ، وانه انما يستعيد انفاسه للصيد الفظيع الذي سيدوم اربعة عشر عاما ـ وهو الوقت الذي ستستغرقه كتابة « تحت البركان » .

ان جميع الموضوعات وجميع الصور المعروفة لدى لاوري موجودة بذورا في هذا الكتاب ، وكذلك اوهامه وانتظاره اليائس لنوع من الخلاص الذي يبحث عنه بصورة عكسية . وهنا الاسلوب نفسه ، وذلك السحر اللغوي ، وتلك السيادة الفريزية التي تتيح للاوري دائما ان ينظم سكره ... ان لونار كوستيك عمل تائه ومسيطر عليه في الوقت نفسه ، دوار دقيق .

ذلك اننا ينبغي الا نؤخذ بالظواهر ، فان لاوري السكير حين يلقي على العالم نظرة الميدوزي ، فهو ليس ضحية هلسناته ، وانما هو يقودها. انه نعبير رؤيته للعالم ، تعبير نوع من الحكمة السكرى حيث « تترنح الارض نفسها » وحيث تكون « النجوم نفسها اشكالا مسيخة لهذيان الرب » .

ولئن عاد سكير لونار كوستيك الى الزجاجة عودة استهزاء ،فليس ذلك من اجل الفرار . وانما بدافع الامل بان ينسجم مع الخلق الالهي الاثيلي . ان الخمر هو الوسيط الحقيقي الوحيد الكشوف في هذا الكتاب المريع الذي ينتهي كما بدأ : في عزلة صاحب الرؤى الذي فقدكل تبرير للوجود في العالم فطلب من المنطق الخيالي ان يكون وطنه الحقيقي.

ان عظمة مالكولم لاوري تكمن في هذه الوحدة الرائعة التي يحسها السكير وصانع المعجزات وفي تلك الوحدة ، وحدة المأساة البشرية والكشف الرمزي .

رواية هكسلي الاخيرة

* * *

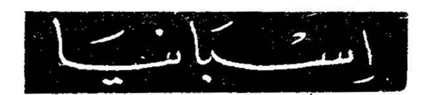
صدر اخيرا لالدوس هكسلي روايه « جزيرة » التي يدخل القارىء فيها الى الحضارة الطوباوية التي هي مثله الاعلى .

وكانت قد صدرت في السنوات الماضية عدة بحوث ودراسات تتحدث عن هكسلي وتطوره .. من داعية للسلام الى داعية للبوذية وما الى ذلك .

ويعرف القارىء من روايته السابقة « احسن العوالم » كيف ان هكسلي يحتقر الحضارة الالية القائمة في الغرب ، ويقدم صورة كاريكاتورية عنها .

اما روايته الاخيرة فتجري في جزيرة خيالية ، تقع فيما بين سيلان واندونيسيا ، وغرق فيها صحفي بريطاني يتقاضى اجرته من احد ملوك البترول ... هذا البترول الذي يكتشف في الجزيرة فيكون سببا في ضياعها .

وتبدو الرواية رواية افكار قبل كل شيء ، ولكنها سيئة التطور الروائي . اما افكارها فليست هي الافكار العميقة التي عودنا هكسلي عليها في روايته « كونترابوان » .



متحف بيكاسو



من المنتظر ان يفتتح « متحف بيكاسو » في برشلونه ، في الخريف القادم . ومن المعروف ان السلطة الاسبانية كانت قد توجهت الى بيكاسو ، في حركة تمليها روح تحررية جديدة،تستأذنه في اقامة متحف لآثاره في مدريد. ولكن بيكاسو رفض ، وقبل باقامة هذا المتحف في برشلونة . وتساءل الناس : لماذا في برشلونة ؟ ايكون ذلك بدافع الامانة لشبابه الذي قضاه في تلك المدينة ؟ ام لان حركة التجديد في الرسم الاسباني انطلقت مجددا من هناك ؟

مهما يكن من امر ، فستعرض في هذا المتحف كثير من لوحات بيكاسو ولا سيما مجموعة جيم سابارتيس اقدم اصدقائه وكذلك لوحات اهداها الفنان نفسه الى بلدية المدينة من قبل ، واكثرها قديم ، وفيها يبدو تأثر بيكاسو بالفترة التي قضاها في باريس وبلوحات تولوز لوتريك خاصته . وهناك ايضا لوحات من « الفترة الزرقاء » مع صورة تلك المرأة التي يخيل الينا انها من رسم غريكو واولئك المهرجين واسر المشعوذين .

والمتحف نفسه رائع ، وهو اقدم قصر في برشلونة ، ويقوم وسط شوارع ضيقة لاتعبرها السيارات . ولا شك ان بيكاسو سيسر لمرآه بالغ السرور ... هذا اذا قبل العودة الى اسبانيا !

قضايا الادب والادباء

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

مانغوس انزانزبرجر ؟ كان الخطباء يتتابعون بالقاءخطب جاهزة ، ولكن الحوار لم يكن لينعقد ، كانت كل كلمة تثير سوء تفاهم: ما هي «الواقعية» ؟ ما هي «النزعةالانسانية»؟ ما هو « المستقبل » ؟

ثم ظهر في اليوم الثالث للمؤتمر انالمواقف أخذت تبدو اقل بساطة واقرب الى الصحة ، على غرار ما يحدث في تلك الاشكال من المقابلات التي يعول فيها علىالاتصالات الشخصية خارج الاجتماعات اكثر مما يعول على الخطب امام المنبر . ولن اذهب في هذا الى القول اننا ازلنا جميع اشكال سوء التفاهم ، ولكن الاسئلة حلت على الاقل محل التوكيدات ، وظهرت خلف النظريات عادات التفكيروطرائق الشعور ، و « المواقف » التي كانت تبرر هذا المنطق او ذاك . صحيح اننا لم نحل اية مشكلة ، ولكن المؤتمر اتاح لنا ان نطرحها طرحا افضل .

لنأخذ مثلا كلمة « مسؤولية » التي كانت تتردد في كل خطاب من خطب كتاب الشرق . ان الكاتب ، في نظر السوفيات ، مسؤول اولا امام قرائه ، وعليه الا ينفصل عنهم ، بل عليه على العكس ان يبحث عما هو مشترك معهم . ان الادب تبادل : فانا اتحدث بالنيابة عن الذين لا يملكون وسائل الحديث ، اتحدث بدلا عنهم ، ومن اجلهم . يقول سيمونوف : ان الكاتب ربان ، وجدارة الربان تكمن في ان يعنى بركابه ، ولكن روب غرييه يرد بان الرواية ليست وسيلة نقل . ان الربان يعرف اين يتوجه ، اما الروائي فلا يعرف . والكاتب لا يكتب ليوكد قيما معترفا بها من قبل ، وانما يكتب ليكتشف قيما جديدة . ومسؤولية الكاتب تقوم على مستوى هذا الالتماس : انه مسؤول عن وسائله التعبيرية ، وعن العالم الخيالي الذي تلده هذه الاشكال ، فاذا كانت افتراضاته صحيحة ، فستتحقق عاجلا او اجلا ، وعلى الجمهور ان يتابع .

وهذا خلاف مبدئي يترجم عن اختلاف في البنية، كما قال سارتر في خطابه الختامي القيم . ان بين الكاتب السوفياتي وجمهوره اتصالا ثابتا ، وقيمة الاثر تقاس بالصدى الذي تخلفه . كانت روائية سوفياتية بيع من اخر كتاب لها مئتا الف نسخة في بضعة اسابيع ، تقول لي انها قد تلقت اربعمئة رسالة من القراء . ان الكاتب البورجوازي الذي يجهل من هو جمهوره واين ومتىوكيف يبنغه ، يكتب اولا لنفسه . اما التتويج بـ «كتاب الجيب» فهو مخصص للذين سبق ان ملأوا شروط متطلباتالطباعة العادية والذين يتحدثون ـ اذن ـ بلغة البورجوازية، لا باللغة التي تجهلها الجماهير مبدئيا . وهكذا يكونالتفكير، في الجهتين منصبا على « المستقبل » .

غير أن يقين احد الفريقين ، وثقتهم المطمئنة بالقيم الانسانية وبالاشكال التي تبدو اصلح من سواها للتعبير عنهذه القيم (الرواية التقليدية ، هذه « الاداة الطيبة » التي يمتدحها السوفيات بلا ضجر) يوشكان ان يقوداهم الى تصور انقيادي للعالم : فالمستقبل مرئي على ضوء الماضي . ولكن الوعي الحاد الذي ينعم به الفريق الاخر (الغربي) بالنسبة لدور الادب النقدي (كان بيوفانييقول ان الرواية وسيلة معرفة واكتشاف . فما يهمني هو ان اضيف شيئا او أهدم شيئا) تنتصب قبالته وحدة اوعزلة ليست اقل خطرا ، لان الاديب لا يكتب حقا « لكي يكتب »، ومحاولة الكشف الادبي تدين نفسها بالاختناق اذا هي فضلت وسائل الاتصال على الاتصال نفسه ، وتركت للشكل مهمة ان يحدد المضمون ، اذا هي لم تشهد باستمرار على ارادة التبادل والمشاركة .

تلك هي حقائق اولية . وأهمية اجتماع كاجتماع لنينغراد تكمن في ان تكتشفها في نضارتها ، اذا صح التعبير . وان تكتشف ايضا ان كل عبارة ، كما هو الشأن في كل معارضة حية ، تحمل في ذاتها نقيضها ، العدو الحميم الذييستطيع ان ينقذها . حين حاولت ناتالي ساروت ان تشرح للسوفيات الفرق الذي تراه بين المرئي واللامرئي ، بين السلوك الخارجي ، العمومي ، المعقلن، ومن ثم اللاحقيقي ، وبين الحركات الداخليةالتي تكمن خلفه والتي تشكل حقيقته المظلمة المترنحة ، قوبلت بتلطف لا يخلو من ارتياب .

ان تلك الحركات لا تهم اناسا لقنوا ان اللامعقولية دليل بورجوازي وهم يصبون الى تغيير الانسان اكثر مما يصبون الى معرفته . ولكن كان يكفي الاستماع الى أكسيونوف او غرانين لندرك ان هذا التغيير ، اذا فهم على حقيقته ، سيتطلب هو بالذات اشكالا جديدة للتعبير ، وسيقود الى طرز جديد من الاحساس ، وسيطرح على الكاتب مشكلات لن تستطيع اية صيغة ان تحلها بدلا منه.

وكما ان « الرواية الجديدة » لا تحظى باجماع التقدير في الغرب (ان امثال انغوس ويلسون وروجيه كايوا يشعرون ، على نحو ما ، انهم اقرب الى « النزعة الانسانية » الروسية منهم الى المحاولات التي يبذلها شكل ادبي مفرط في تجريبيته) فان واقعية الشرق لا يفهمها انصارها بطريقة واحدة . فروائيو الامم « الوسط » اكثر احساسا بالتأثير الغربي . وقد كان بوسع « تيبور ديري » الذي دفع غاليا ثمن حقه في التحدث ، أن يؤكد منذ

اليوم الاول للمؤتمر اخلاصه للاشتراكية ، وان يلاحظ ، من جهة اخرى، ان كل اثر اصيل هو «سلسلة من الاسئلة» و « مجموعة من الشكوك المتغلب عليها » ، وان يتساءل عن الفكرة الساذجة التي يحملها جمهور يحدد انتظاره المتطاب سلفا مضمون الاثر الادبي.

ان خلاف القديم والحديث لم ينته حتى في الاتحاد السوفياتي الذي لا يجادل احد في مهمة الكاتب الاجتماعية فيه ، والذي يحتل فيه الاهتمام بالقارىء المقام الاول . بل يبدو ان المجددين يزدادون عزما على الانتهاء من التراكيب الاسلوبية البالية ، حتى ولو كانوا اشد حذرا في التعبير . وبالرغم من ان نفاد الصبر يبدو اكبر لدى الشبيبة ، فليس يمكننا القول ان الانفصال يفرق حقا بين جيلين.

ومما له مغزى كبير ان تكون احدى الخطب التي حظيت باهتمام كبير ، وكانت ادعى الى التفاؤل ، هي خطبة ايليا اهرنبورغ الذي نقد نقدا عنيفا منذ اشهر . فان اهرنبورغ قد عارض معارضة شديدة رأي فيدين بكبار الرواد الغربيين ، بروست وجويس وفوكنر ، واشار الى ان « أزمة » الرواية لم تكن ظاهرة جديدة ، وانما لعلها تعزى الى طبيعة الرواية بان تضع نفسها موضع السؤال ، وان الادب بحاجة الى ربابنة تجربة الى جانب ربابنة الخط . وهي حجة استعملها بعد ذلك تغاردوفسكي مدير تحرير « نوفي مير » الذي سبق ان اكتشف افضل كتّاب الجيل الجديد ، ولا سيما الكسندر سولجانتسين. لقد قال تغاردوفسكي منتقدا روب ــ غرييه : « ان الاعتقاد بان الكاتب يكتب ليعرف لماذا هو يكتب انما هو لغو » . ولكنه جوابا على سيمونوف اكد بقوة ان الكاتب ليس باستطاعته ان يقتدي بنماذج ناجزة جاهزة . لان « ما اكتبه، انا الوحيد الذي يستطيع ان يكتبه. وحتى تولستوي نفسه لن يستطيع ذلك » .

ما الذي نستنتجه من تبادل هذه الاراء ؟ ان الود الذي كاد يسود اليوم الاخير للؤتمر يفسح مجال الامل بان توسع لقاءات جديدة منطقة التوافق . وسيكون ساذجا بالطبع ان ننتظر تغيرا في مواقف احد الفريقين ، ولكن يمكن على الاقل ان تلين وتفيد من هذه الخميرة التي لا يغني عنها شيء والتي تتيحها معرفة افضل بالاخرين. ولقد كان سارتر في المؤتمر الصحفي الذي عقده في موسكو يعرف التعايش الايديولوجي على انه « صراع عنيف » . وينبغي لهذا الصراع ان ينتهي ، في رأيه ، بانتصار الاشتراكية ــ ولكن اشتراكية يكون الغرب قد أغناها وغيرها بمساندته .

وانا لست على يقين بان كثيرين من كتاب الغرب يقدمون على هذه التضحية. ثم ان من الصعوبة بمكان أن نتنبأ كيف ستتطور الاشتراكية نفسها . ومهما يكن من امر ، فان افضل وسيلة لوقف هذا التطور ان يراد استعجالها بمعالجة القضايا التي يطرحها المجتمع السوفياتي على كتابه معالجة مستخفة . ان الفن الذي نفهمه نشاطا مستقلا لا يزال ، وسيظل مدة طويلة ، وسيلة تربية بالنسبة اليهم . فينبغي اذن ان نقر حذرهم من أدبنا ، ولكن ينبغي ان نحاول ايضا تبديد هذا الحذر ، بان نسلك سلوكا بريئا من كل تعال يسير . ان العلامات المبشرة ليست معدومة : كان فيدين قد أدان فوكنر ، اما الان فان سكان موسكو يقرأون كتابه الاخير « البيت » في المترو . وغدا سيقرأون « الطاعون » بالرغم من حكم النفي الذي اصدره اراغون على كامو . وستظهر قريبا ترجمة لكافكا ، وقد نشرت مجلة سوفياتية (تحت تعليق متحفظ جدا ، بالطبع) مقتطفات من روايات ساروت وبوتور وروب غرييه.

ولئن شئنا ان تنمو هذه الحركة ، التي ما تزال حيية ، فلنحرص على الا تكون ذات اتجاه واحد . انني لا أعود من لنينغراد وقد اعتنقت الواقعية الاجتماعية ، وانما أعود مقتنعا بان توحد الكاتب الغربي هو ألم موقت، أشد وعيا بقيمة محاولاتنا ولكن ايضا بحدودها . ان روب غرييه على حق اذ يقول ان « الرواية الجديدة » تسجل خطوة الى الامام في تطور الفن الروائي ، ولكنه على خطأ حين يصورها على انها رواية متحررة ، تفتح المجال لعالم يجهل المأساة .

ذلك ان هذا التقدم هو ايضا انطواء ، فهو اذن ألم . ان الجمالات اللبيرانتية التي نجدها في « الغيرة » و « الخالدة » والتفاصيل الدقيقة الراعشة التي تنطوي عليها « صورة رجل مجهول » او « ثمار ذهبية » انما ندفع ثمنها جفافا يبدو للسوفيات بمثابة رفض ، ويكمن سره في طبيعة مجتمعنا . وانا لا اعرف كيف سينتهي هذا المجتمع ، ولكني على يقين من ان « عصر الشك » سيزول معه .

* * *

وبعد ، فقد قدمنا ترجمة كاملة ليتاح للقارىء العربي ان يأخذ فكرة واضحة عن مؤتمر لنينغراد وعن أعماله كما ظهرت في رأي الادباء السوفيات ، ورأي الادباء الغربيين، على حد سواء.

عايدة مطرجي ادريس



قصص العدد الماضي ...

بقلم : محمود شقير

يحوي العدد الماضي من الاداب ست قصص ، ثلاثا مترجمة ،وثلاثا عربية ، وانني اذ اعتذر ـ لظروف خاصة ـ عن الخوض في القصص المترجمة ، لايفوتني ان اتقدم بالشكر والعرفان للجهود المخلصة التي بذلت في تعريبها ، مما يقود الى انفتاح العقلية العربية على اداب الامم الاخرى ، ويدرأ عن المثقف العربي خطر التقوقع والانطوائية ، اما الان ، فهيا بنا نرى ماذا قدمت اقلام الثلاثة الاخرين .

((الطائر الابيض)) قصة : نديم خشفة

ذات يوم احرق ((ابو رحمو)) قطا لانه سرق له طيرا .. هذا مايقوله نديم خشفه ، تصوروا ، يحكم على القط حرقا حتى الموت ،ولست اسوق ذلك لاستمطر دموع الترحم على رماد الجثة المحروقة ، وانما لابين مدى الاعتساف والافتعال اللذين يعتوران بناء القصة .. والقصة باختصار ترتفع على كاهل البطل ((عمر)) الذي يمتلك عصابة طيور يطيرها كل صباح لتحلق في الجو ، فتعود اليه وقد اغوت بعض طيور غريبة ، فيتولى عمر جلب هذه الطيور في سوق الجمعة .. اما ابو رحمو ذلك السكير العابث الذي يحرق القطط دون شفقة ، فهو جار البطل ، يمتهن نفس مهنته ، لكن عمر يمتلك طيرا ابيض .. وياله من طير .. ((طير تحرسه الملائكة ، فلا يخشى على سرب يقوده هلكة ولا فتكا)) لذا لن نستغرب هيام عمر بهذا الطير الى حد يفوق التصور .. فحينما يطير في الجو يتمنى عمر بكل بهلوانية ان ((ينبت له جناح مكان يديه هاتين)) .. تصوروا ، جناح واحد ليحلق به في اثر طائره الابيض ليقبله ثم يمسح على زغبه الدافيء وهو يحدق في عينيه ... ماشاء الله ، كل هذه الغرائب يريد لها ان تتم في الجو ، وليت الكاتب وفر على نفسه هذه الرومانسية المفتعلة ، واعطى بطله خواطر مناسبة ومعقولة على الاقل ، كأن يتلهف الى تقبيل طائره حالما يهبط عائدا الى الارض . مهما يكن ، تستمر الاحداث في تدحرج ثقيل ، ويعود السرب بعد تحليق .. ويتفقد البطل طيوره ، فيعثر على طائرين غريبين ، لكنه يفتقد طيره الذي تحرسه الملائكة ، فلا يقع له على اثر ، ولكي يفتن نديم خشفه في عرض الاحداث ، فان بطله ((يكشف الحصير عن ارض القفص وقد خيل اليه الجزع انه قد يجد الطير تحته ، فلم يجد احدا)) .صدقوني ان هذا ليس افتراء ، فالبطل لم يجد احدا ، وواضح انه يقصد ب ((احدا)) الطائر المحروس ، ومن ثم تتنامى الاحداث في تشابك معقد غريب لا يخطر على بال احد . فالطائران الغريبان من طيور الجار ((ابو رحمو)) ... اما الطائر الابيض ، فيعلم عمر انه قابع في احد اقفاص هذا الجار، ومع ذلك فالجار يرفض ان يعطي البطل طائره ، بالرغم من انه ((أطمعه بالمال ، واعطاه طيريه اللذين غنمهما منه)) لكن الجار ـ لعنه الله ((يلوي اعناق الطيرين بيده ويرميهما في وجهه)) .. قد يكون هذا السلوك غير مستغرب من جار يحرق القطط ، لكن مايدهش في الامر اقدام البطل على دفع المال لمجرد الحصول على حقه الشرعي .. ولعله واضح مدى الاسفاف والابتذالية في بناء القصة ، فالكاتب يعمد الى الافتئات على الواقع يشوهه ويزيفه ليقود بطله على جثث مركومة من الاحداث المزيفة التي يرفضها الواقع الحياتي الخام ، وبديهي ان الفن لا يعتمد تحويل الواقع الى لا واقع ، انما العكس .. تحويل اللاواقع الى واقع تستسيغه النفوس ، وقد لفت انتباهي ذلك التهافت الذريع على اقتناص الصور المنفرة والالفاظ الناشزة التي تغتال أي ايحاء ايجابي .. مثل ذلك ((هرب النعاس من المداخن وقد احمرت عيناه)).. ((فاذا النور قد بنى اعشاشه في زوايا الظل)) .. اما محنة المحن ،فهي ترفع الكاتب عن وصف الغروب وهبوط الليل بمنطق معقول ، واذ يتخلى عن ذلك فانه يفجعنا بأوصاف بهلوانية مضحكة ، يقول ((اطلت الشمس على الافق فراعها هذه الهاوية من الغيب التي تريد ان تبتلعها فاصفر لونها ، وتمطى الظلام بكهفه الشرقي)) .. ثمة اشياء اخرى .. اذ ينبغي للقاص ان ينتقي مايلائم غرضه من احداث الواقع وفق عملية اصطفاء فني دقيق .. يصطفي الاحداث ، ليقف البناء الفني للقصة وحدة متماسكة لايعروها التخلخل .. ويصطفي الجو الملائم الذي يمكن ان يعتبر بمثابة خلفية تصطبغ بها الاحداث .. وحتى الكلمات يجب ان يصطفيها بدقة وحذر .. واما نصيب هذه القصة من الاصطفاء ، فهو مغموط للغاية ومهزوز .. وقد رأينا تهافت البناء فيها .. أما الجو ، فأية ايحاءات يمكن ان يلون بها نفسياتنا ؟؟ الايحاءات في القصة متنافرة يجهضها ولوع الكاتب بالتحذلقات اللفوية المقيتة .. فبينما الشمس تسري في دم البطل ، نجد في اللحظة ذاتها ان الشوق يزهر في صدره .. وبينما تلفح وجهه حرارة الشمس نلفي الريح تعبث بالخرقة .. هذا بينما تتخذ المسامير هيئة عجائز تتقي الشمس بمظال سود قديمة ..كل هذه الاوصاف المتناقضة تنثال في لحظة زمانية محصورة لا تسمح بمثل هذا التبعثر والتناقض .. أما كلمات الكاتب فهي نهب الثرثرة الخاوية التي لا طائل تحتها والتشتت والتعميم وضعف التراكيب الاسلوبية. مثال الثرثرة ، تلك الخواطر الزائفة التي تصطرع في وعي البطل، ويمكن القاريء آن يعود اليها ليتبين ما تزخر به من خواء وجهل بكيفيةاستعمال المنولوج الداخلي .. هذا بالاضافة الى تلك الثرثرة التي تحاول ان تلبس حلة الفلسفة ((يؤثر ان تكون مزينة بصور الطيور والعصافير ليأتلف ذلك مع مهنته ، ويبتعد عن النفاق فلا يخالف ظاهره باطنهوسره علانيته)) .. أما التشتت فمثاله ((قبعة ملونة مما يصنعه المسجونون يقطعون به سنين الملل الناعس)) ولست أرى أية ضرورة لذكر المسجونين رغم انهم صانعو القبعات ، الا اذا كان الكاتب يخشى ان يطالبوهالاعتراف بفضلهم !.. وأما التعميم فمثاله ((الطيور تنقر صدرها الابيض)) ..أين الاحمر والاسود واللازوردي وغيرها من الوان الطيور . مثل اخر ((كما يعز على حامل الراية ان يرمي بها الى الارض ولو خذله الجند))..ومن قالان كل حامل راية لا بد ان يكون جعفرا الطيار .. واما ضعف التراكيبالاسلوبية فمثاله ((ثم ارسل ما أفضل منها على جانبه)) و ((بطنه يرتج من أمامه)) كلمة اخيرة ، وهي أن القصة ـ رغم دموع البطل ـ تبقى مجرد أحداث جامدة تعجز عنايصال أية عاطفة او احساس الى نفسية القاريء ، فلا تترك في وجدانه أي انطباع حالما يفرغ من قراءتها.

« غدا تمطر السماء » قصة : احمد الشاعر

بطل هذه القصة عامل معدم يدعى « ابو فريد » ، وحينما نتعرف عليه في بداية القصة نلفيه انسانا عاديا بسيطا لا تتجاوز أحلامه مجرد الحصول على كيلوغرام من الفاصولياء .. لكن العامل الساذج ينقلب في نهاية القصة ، على يد أحمد الشاعر ، الى عالم ديموغرافي يتفكر في المشاكل الناجمة عن ازدياد سكان العالم .. وكأن الكاتب قد ادرك ما تعانيه قصته من فقر دموي تنعدم معه حرارة المعالجة الفنية ، فراح يسفح الحوادث الدامية لكأنه يقدمها قرابين شفاعة واستعطاف .. فهو يفاجئنا في اول القصة بحادثة فجة يبدو التكلف والافتعال فيها بشكل ملموس .. اذ يموت ابن أحد العمال نتيجة اصطدام سيارة ، ولكن ارتباط البناء العام للقصة بهذا الجزء منها يكاد يكون واهيا جدا .. كما اننا لا نشعر بأي تعاطف او مشاركة وجدانية مع هذا المنكوب الذي لا نعرف عنه أي بعد انساني يمكن ان يثير فينا عاطفة حقيقية ، رغم ان الكاتب أهدر دموع الحزن من مآقي العيون أنهارا وقنوات. ولنعد الى البطل « ابو فريد » .. انه الان في طريقه الى « الخضرجي » كي يبيعه كيلوغرام فاصولياء .. وحينما يدخل الدكان ، يعمد الكاتب الى حشر منظر تفوح منه رائحة الاقحام اللامجدي .. اذ يقول ابو فريد او يهمس ، لست ادري « ما هذا الشكل المقرف بلحيته الكثة وشعره الطويل المنفوش » وقد كان بوسع الكاتب ان يدلل على سوء حالة البطل المادية المنعكسة اثارها على هيئته ، بصورة الطف واكثر فتنة من هذه الصورة الكريهة ، الجليدية الكلمات .. ومن ثم يعقد الكاتب حوارا بين الزبون والتاجر ، ليخلص من هذا الحوار الى نتيجة هي أن التاجر لئيم فظ خال من الرأفة ، وكأنني بالكاتب يريد ان يرمي تبعات البؤس والشقاء الانساني كلها على عاتق هذا التاجر ، لكنه فشل في ضبط نفسية التاجر ورسمها بشكل يتفق وما كان يقصد اليه نتيجة لخلطه الشوش

– في السرد .. واريد أن أضيف بأن الكاتب فشل في معالجة هذه المشكلة الاجتماعية ، لانه لم يغص الى اعماقها ليكشف بثراء عما يفجر في نفوسنا طاقات من المشاركة الصادقة ، وانما آثر البقاء على السطح بتصيد الاحداث من هنا وهناك .. يحشرها بعضا الى بعض ، تتنزى منها اصداء باهتة مفلوشة . حسنا ، ينكفيء البطل الى بيته .. وعلى طريق العودة يستحيل بفضل احمد الشاعر الى مالثوس اخر .. فمن يصدق أن انسانا ساذجا تخطر في ذهنه تأملات مثل « لماذا تزوج ما دام لا يستطيع أن يؤمن اللقمة لصغاره ، ولماذا انجب هذا العدد الضخم من الجياع دائما .. هل طلب اليه زيادة سكان العالم .. ولماذا اختاره الله لاداء هذه المهمة الشاقة ؟ وتصور انه لو انجب كل متزوج توأما كل أحد عشر شهرا لاضطر سكان الارض للنوم وقوفا » لله دره من بطل .. كيف لا ، وعقليته تتسع لمثل هذه الافكار والتساؤلات.. لكنني لن اصدق ما حييت أن شخصا ساذجا كأبي فريد تكون لديه ادنى فكرة عن العلاقة بين التضخم السكاني والخير المكاني للارض .. لذا، أقرر ان الكاتب صب في رأس بطله ما يحفظه من مقولات ديموغرافية، ومن ثم ، استحال البطل الى دمية ميته لا تتمتع باية حياة يعبث بها الكاتب وينلهى كما يحلو له.. ويشحنها بأية قضية يود ان يبرزها.. لكن انعدام الصدق الفني في اعطاء البطل حقه المشروع من الحياة يتجلى في مقاطع اخرى امر وادهى .. فهنالك جوقة فلاسفة بكاملها تتحاور في رأس البطل « أنت كافر .. مشرك بالله لا تعرف للفضيلة ولا للقيم الانسانية معنى » ويرد عليه اخر « لا تتدخل في اشياء لا تعنيك ، انك دائما مثالي قذر ، ثم دعني اسألك ، ما ثمن هذه القيم التي تتحدث عنها ، هل تشتريها بكيلو فاصولياء ؟ » أرأيتم تجلي الفلسفة وتقرير مصير الفضيلة والقيم ، كل هذه المسائل العويصة تصطرع في رأس ابو فريد اثر فشله في الحصول على كيلوفاصولياء .. ليته حصل على مأربه وانطلق عائدا الى بيته في نشوة وسرور اذن لما أقرفنا بهذه السفسطة المضوغة !

« البطل » قصة : ضياء الشرقاوي

هذا المغترب العجيب في القاهرة ، وأقصد به بطل القصة ، مهووس مغرق في رومانسية مراهقة الى حد زائد .. يتمنى ان يصبح شخصية عظيمة تقوم لها الدنيا وتقعد ، لكنه لا يلبث ان يغص بواقعه الحقيقي ، فيجتر خواطره في سأم قاتل « كل القارات المجهولة قد اكتشفت ، وكل القمم التي تحدت ارادة الانسان قد قهرت .. اوه ، كأننا اصبحنا في عالم لم يعد للانسان فيه قيمة تذكر » .. لكن الرغبة المجنونة لتأكيد الذات تثور في اعماقه مرة اخرى ، فيقصد ابن عمه يخبره في كبرياء بأنه سيترك العمل ، والحق أن الشرقاوي قد رصد ذلك الموقف بعمق وثراء ، مما جعله يمور بالحيوية وعمق العاطفة ، ويتميز عن باقي اجزاء القصة بصدق الاداء والابتعاد عن المبالغات المغلوطة المزيفة .. ويعود البطل ليمارس مهنته في مكان اخر ، فيجد البطولة كلها متمثلة في ممارسة ذلك العمل .. ما السبب ؟؟ يفند الشرقاوي ذلك بقوله : احساسه بانه يحمل مسؤولية ما . ويضيف بأنه ظل ينتشي بتلك البطولة لسنوات قليلة . ما السبب ؟؟ المسؤولية أيضا .. لكن الشرقاوي هذه المرة يقوم بكل هوجائية على مناقضة الواقع الانساني من أساسه .. فانسان العصر الحديث يعاني من مرض المسؤولية أشد معاناة .. ويستحيل الواجب المناط به كصخرة صماء يجرجرها من خلفه ، تجرعه غصص الملل والضجر، أما ان ينتشي انسان بتحمل المسؤولية طوال سنوات ، فهذا عين الزور والبهتان فبينما يتهرب الانسان المعاصر من ثقل المسؤولية ، ونراه يلوذ الى طرق فرعية يقتل بها سأم المسؤولية اذا ما حكم عليه بها، نلفي بطل الشرقاوي يصرح بكل غباء أنه لا بد أن يفتش عن مسؤولية ما يحملها على عاتقه ليشعر بالنشوة والسعادة ، وليس غريبا على مثل هذا البطل ان يصرح بكل بهلوانية انه قرر الزواج فقط ليتحمل المسؤولية ، وليرتشف اكواب السعادة اثر تحمل مسؤولية الزواج التي ربما يحسب أنها لا تدر الا خمرا وعسلا ..

القدس — **محمود شقير**



الجمهورية العربية المتحدة

عودة ((الرسالة)) و ((الثقافة))

لمراسل ((الآداب)) في القاهرة

***

اخيرا عادت الى الظهور مجلة الرسالة ومجلة الثقافة ، وذلك بعد ان توقفت المجلتان حوالي عشر سنوات ، وكان ذلك في بداية الثورة .

وكانت ظروف توقف المجلتين في ذلك الحين عديدة ، وكان على رأس هذه الظروف ان عصرا ادبيا جديدا بدأ في شكل تيار عنيف ، وكان هذا العصر يختلف فيكثير من الامور عن المفاهيم الادبية والفكرية التي تحملها الرسالة والثقافة ، لقد كان العصر الجديد عصرا يميل الى الادب الواقعي الذي يهتم بمشاكل المجتمع وبالصراع الاجتماعي ، وكان الفكر الجديد يميل الى هذا الجانب نفسه ... كان فكرا يبحث عن جذور المشكلة الاجتماعية والعلاج الذي يمكن ان يقدمه لهذه المشكلة .

ولعل هذا الموقف يتضح اذا ماعدنا الى واقع تلك المرحلة .. في السنة الاولى للثورة او ما قبلها بقليل ، لقد بدأت جميع الاجهزة القديمة نفسها تشعر بالمشكلة شعورا حادا ، فحزب الوفد ((الذي تحول قبل الثورة الى حزب اقطاعي وبورجوازي في نفس الوقت)) ظهر فيه جناح يساري عنيف يطالب بالتغيير الاجتماعي ويطالب بنظرة شاملة جدية الى مشاكل الطبقات الشعبية ((ومن اعلام هذا الاتجاه اليساري الدكتور مندور والمرحوم الدكتور عزيز فهمي بل والدكتور طه حسين نفسه الذي تبنى بقوة قضية مجانية التعليم ورفع شعار العلم كالماء والهواء)) .

بل ان الاحزاب الرجعية مثل الاخوان المسلمين ظهر فيها تيار يساري ايضا ، وكان هذا التيار يحاول بقوة ان يؤكد النزعة الاشتراكية والثورية في الدين الاسلامي ، وفي هذه الفترة ايضا ظهر كاتب مثل خالد محمد خالد ... الذي ولد - ككاتب - في ضجة ضخمة عالية ، لانه اتجه بكتاباته الى تحطيم الاوضاع التي كانت قائمة في ذلك الوقت وعلى رأسها الاقطاع والافكار الرجعية التي تسانده .

هذه أمثلة ليست هي كل الامثلة التي ظهرت في واقعنا الفكري في تلك المرحلة ، والتي هزت الاوضاع القديمة هزا عنيفا ، وأثرت على جمهور القراء تأثيرا قويا ، فبدأ يتطلع الى عالم جديد ونماذج جديدة من الفكر والفن والادب .

انها مجرد نماذج من الواقع الجديد الذي ظهر ومهد لاغلاق الرسالة والثقافة سنة ١٩٥٢ ، فقد كانت هاتان المجلتان بعيدتين عن تمثيل أي فكر ثوري من هذا النوع ... لقد كانتا مجلتين محافظتين تمثلان الفكر المستقر الهادىء ... الفكر المحافظ .

وفي خلال هذه البدايات العنيفة قامت الثورة وبدأت تواجه عمليا وبقوة مشكلة المجتمع ... حيث اتجهت بحزم وبلا تردد الى القضاء على الاوضاع القديمة الفاسدة .

وفي هذا الجو توقفت الرسالة والثقافة . وكان من الواضح ان المجلتين قد فقدتا قدرتهما على التلاؤم مع الواقع الجديد .

فقد ظهرت المجلتان في عصر خاص وقامتا بدور خاص. وكانت ابرز معالم هذا الدور : احياء الثقافة القديمة ودراستها دراسة عصرية ، وقد قامت المجلتان في الحقيقة بدور كبير في احياء الكلاسيكية وتخليصها من الغبار المتراكم فوقها ، فقد ساهمت المجلتان في دراسة الادب القديم والفلسفة القديمة ، بل وساهمت المجلتان مساهمة فعالة في دراسة الدين الاسلامي دراسة عصرية تخضع لمناهج علم النفس وعلوم التاريخ والاجتماع وغير ذلك من المناهج الجديدة ، وقامت المجلتان بخلق نوع من الصلة بين الثقافة الغربية والثقافة العربية ، واستوعبت المجلتان ايضا حركة الشعر الرومانسي الى جانب حرصهما التام على الشعر التقليدي في شكله ومضمونه .

وخلاصة الدور الذي قامت به المجلتان هو احياء الكلاسيكية والحرص على تقاليدها الفكرية واللغوية ثم الاهتمام اهتماما ((عاما)) بالثقافة الغربية والاشكال الجديدة في الادب مثل القصة والمسرحية .

وقد ادت المجلتان دورهما الكبير في هذه الحدود ... وعلى الاخص مجلة الرسالة التي كانت اطول عمرا واكثر تاثيرا .

والمجلتان تعودان الى الحياة اليوم وبعد عشر سنوات من التوقف وخلال هذه السنوات حدثت تغيرات في الفكر والادب ، واصبحت وظيفة المجلة الادبية مختلفة تماما عن وظيفة المجلة التي كانت منذ عشر سنوات . فهل راعت المجلتان هذه الحقيقة ؟... هل كان هناك حساب لاختلاف الزمن واختلاف الظروف ؟

الحق ان المجلتين في حاجة الى مزيد من الجهد لكي يكونا تعبيرا حقيقيا عن المرحلة الادبية والفكرية الراهنة .

ففي السنوات الاخيرة حدثت هذه التغيرات الهامة التي لايمكن الابتعاد عنها او عدم الاعتراف بها :

اولا : ظهر الاهتمام الواسع بالادب الشعبي والفنون الشعبية ، واصبح في كلية الاداب كرسي للادب الشعبي ((يشغله الان الدكتور عبد الحميد يونس)) ، واصبح للدراسات الشعبية اهمية كبرى في هذه المرحلة من تطورنا الفكري ، بل اكثر من هذا ظهر عندنا عدد كبير من الشعراء الذين يكتبون بالعامية كتابات على غاية من الاهمية ، كل ذلك يقتضي الاهتمام بالادب الشعبي ودراسته ونشر نماذجه الجديدة .

ثانيا : اصبح للدولة نفسها - بعد الثورة - اتجاه فكري واضح ، فهي دولة اشتراكية عربية ، ولذلك فان الاهتمام بالدراسات الاشتراكية والعربية يجب ان يكون واضحا كل الوضوح ، فالاشتراكية هي النظرية التي نسير على ضوئها ، كما ان الاتجاه العربي اصبح اصيلا في خط سير الدولة .

والمفروض ان تكون الدراسات التي تظهر في مجلاتنا موجهة - بوعي وفهم عميق - توجيها اشتراكيا ، سواء في اختيار الموضوع او في المنهج ، فيجب على سبيل المثال ان تكون الدراسات الخاصة بتاريخنا القديم قائمة على أساس جديد ، فالذين يدرسون الحروب الصليبية مثلا على انها حروب دينية فقط يقعون في خطأ كبير ، لانهم ينظرون الى هذه الحروب من الخارج ، وينظرون اليها نظرة شكلية ، فالمسألة في حقيقتها كانت اعمق بكثير من هذا المظهر ، لقد كان للصراع جوانبه الاقتصادية ، وجوانبه الحضارية ، وجوانبه السياسية وهكذا يجب ان تكون النظرة الى التاريخ في كل جوانبه وحتى تاريخ الاسلام يجب الا تقتصر بحال من الاحوال على الجانب الديني ، فالاسلام نفسه كان دينا وكان في نفس الوقت ثورة اجتماعية واقتصادية ، ويجب ان نفهم

هذه الجوانب ، ويجب ان ندرسها بوضوح ، لان الوقوف عند الجانب الديني فقط ، يجعلنا نفقد الكثير من الحوافز الحية التي يمكننا ان نخرج بها اذا ماعدنا الى تاريخنا ونحن مزودون بنظرة اشتراكية ومنهج اشتراكي .

اما من الناحية العربية ، فمن الواضح ان « التجربة العربية » بشكل عام لم تلق حتى الان الدراسة الكافية ، والتي يجب ان نقوم بها على اوسع نطاق .

فتاريخ العرب الحديث تاريخ منفصل عن بعضه ، ولا يكاد ابناء المغرب العربي يعرفون تاريخ المشرق العربي ، والعكس ايضا صحيح ،كما ان التاريخ العربي الحديث على وجه الخصوص تاريخ مجزأ منفصل عن بعضه فهناك تاريخ مستقل لمصر ، وتاريخ مستقل للشام وتاريخ ثالث للعراق ، وهذا التاريخ المنفصل المجزأ يجب ان يعاد النظر اليه ... ولا بد ان يكون هناك منهج لدراسته كوحدة كاملة متصلة لا منفصلة ، فلقد كان هذا الانفصال في دراسة التاريخ ناتجا عن الانفصال القائم بين اجزاء الوطن العربي ، وناتجا عن اتساع هوة الانفصال بين هذه الاجزاء . اما الان فقد اصبح الاتجاه الصحيح واضحا ، وهو اتجاه الوحدة الكاملة الاصيلة ، مما يتطلب دراسة تاريخنا العربي على ضوء جديد .

ثالثا : اصبحت هناك اتجاهات جديدة في الادب والفن ، وازدهرت اشكال جديدة فيهما .. واصبح من المطلوب ان تعكس المجلات الجديدة - اذا ارادت ان تكون معبرة عن حياتنا الادبية - هذا الواقع . فالشعر الجديد اصبح قضية اساسية من قضايا حياتنا الادبية الجديدة ،وأي اهمال او تجاهل لهذه الحركة الشعرية معناه الاهمال والتجاهل لجانب اساسي هام من جوانب حياتنا الادبية ، فقد اصبح من الواضح اليوم ان الشعر الجديد هو التيار الفني الرئيسي الذي تدور حوله الحركة الشعرية كلها .

اما الالوان الجديدة التي ازدهرت في حياتنا الادبية فيقف المسرح على رأسها ، لقد كان المسرح قبل الثورة فنا محدود التأثير والاتساع ، اما الان فقد اصبح فنا جماهيريا الى ابعد مدى ، واصبح عندنا فئة من كتاب المسرح يعتبرون من طليعة الادباء ويقفون في مقدمة الجيل الجديد ، كذلك اصبح التلفزيون واصبحت الاذاعة من الوسائل الفنية التي تستخدمها فئة كبيرة من الكتاب ، وتتأثر بها نسبة عالية من الجمهور .

كل هذه الاشكال الفنية تحتاج الى متابعتها ودراستها ، وتحتاج الى الوان جديدة من النقد الذي يعرف اصولها ومشاكلها ليستطيع ان يناقشها ويكون له فيها رأي .

هذه الامور الثلاثة هي امثلة للتغيرات التي حدثت في حياتنا الفكرية والفنية والادبية خلال السنوات العشر الاخيرة . وهي التغيرات التي كان المفروض على مجلة الرسالة ومجلة الثقافة ان تعكساها عندما صدرا من جديد .

فليس بالامكان اليوم ان نقبل هاتين المجلتين على صورتهما القديمة تماما ، وعلى منهجهما القديم .

فهل حدث التغير المطلوب في هاتين المجلتين ؟

الحقيقة انه لم يحدث الا على نطاق ضيق . فليس في المجلتين من الناحية السياسية مثلا دراسات عن المشاكل العربية التي يعيشها العرب اليوم ، ليس هناك دراسات عن الاكراد ، او عن التعريب في الجزائر ، او عن التنظيمات الثورية التي يجب ان ندرسها وتهتم بها مثل جبهة التحرير الجزائرية او غيرها من المنظمات ، ليس هناك دراسات لبرامج الثورات المختلفة ، فهناك ميثاق ثورة ٢٣ يوليو وهناك برنامج طرابلس وهو ميثاق ثورة الجزائر ... لم يحدث ان اهتمت المجلتان بدراسة مثل هذه المشاكل او النصوص السياسية القائمة في الوطن العربي .

ومن الناحية الاخرى نجد ان المجلتين توصدان ابوابهما بشكل واضح في وجه الشعر الجديد ، كذلك لايوجد اي اتجاه في المجلتين لدراسة الادب الشعبي او نشر نماذج منه والعناية بتقديم هذه النماذج وتفسيرها ، اما من ناحية الاشكال الفنية الجديدة فالاهتمام - في المجلتين - بالمسرح مثلا محدود ، رغم ان مسارحنا قد تضاعفت خلال السنوات العشر اربع مرات تقريبا ، ورغم كثرة المسرحيات التي تقدمها هذه المسارح ، اما التلفزيون والراديو فلم تقترب احدى المجلتين تقريبا من اي دراسة تتصل بهما .

قد تكون ظروف الحياة الادبية في بعض الجوانب صعبة ... فنحن نجد مثلا قلة نقاد السينما والمسرح والتلفزيون والراديو . ولكن هذا لايجوز ان يقف عقبة في سبيل تطور المجلتين حتى يكونا تعبيرا حقيقيا او قريبا من الحقيقة عن حياتنا الادبية والفنية والفكرية الجديدة .

يجب ان يكون هناك منهج تسير عليه المجلتان ، على ان تستكمل المجلتان بمرور الوقت ماينقصهما في سبيل تطبيق هذا المنهج تماما ، ويجب ان يكون هذا المنهج مدروسا دقيقا واضحا ... يجب ان يكون نابعا من حاجاتنا الفكرية والادبية والفنية الجديدة ، والا فان المجلتين ستبتعدان عن واقعنا الادبي ، وتعجزان عن ان تكونا المرآة للحياة الادبية الجديدة كما كانتا في الماضي مرآة للعقل العربي خلال ربع القرن السابق على ثورة ٢٣ يوليو تقريبا .

المسرح العربي والسينما

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٢ ـ

اخر اذ اعتبر معضلة المسرح والسينما جزءا من معضلة الحياة العربية حياة كانت مفككة هزيلة تنهشها اظافر الاستعمار والفرقة والاستغلال والرجعية المتاجرة . فلا عجب اذن ان تكون صورة هذه الحياة ، والتعبير الفني عنها ، على ما بينا . اما صورة الحاضر فانها تبدو لي من وراء الافق براقة لامعة تبشر بالخير العميم ، فمصر الثورة تنهض في السياسة والاقتصاد والاجتماع وذلك يستتبع نهضة في الاداب والفنون . والجمهورية العربية تظهر الى الوجود مجسمة امال العرب مكملة ما كان لهم من مجد انتهى بانقضاء العصر الاموي ، تحدوها الروح الفدائية المتوثبة وتهدي خطاها القيادة القوية الرشيدة ، فالتفاعل لا بد حادث والتغير لا بد واقع ، وانا لمنتظرون .

وبعد ، فقد تحدثنا عن الاداة وعيوبها وعن خير الطرق لشحذها واعدادها فكيف نوجه هذه الاداة لخدمة المجتمع القومي الذي نعيش فيه .

أجدني هنا في موقف حرج . فنقادنا اليوم ينادون بالالتزام في الادب والفن ، اي توجيههما لخدمة المجتمع والقضايا القومية بطريقة مباشرة . وليسمح لي السادة النقاد ان اخالفهم في فهمي لمعنى الالتزام . وقبل ان يسارع البعض الى رميي بالتهم المختلفة ، ليس اقلها الخروج عن اجماع القوم احب ان ابادر الى طرح رأيي في هذا الموضوع:

اولا ـ ان فكرة الفن للفن التي يهاجمها نقادنا اليوم، لها في تاريخ النقد ظروف وملابسات ... فقد كانت رد فعل لميوعة الحركة الرومنطيقية وتحولها الى غناء محموم عن الذات . فانبرى أدباء البرناس حينئذ يدافعون عن صفاء الادب ونصاعته ، فاهابوا بالادباء ان يعودوا الى الصورة الشعرية المتقنة ، ونادوا ان الفن للفن ، وقالوا ليس الفن للتغني بالذات والانطواء على النفس بل هو للفن اي للصورة الفنية .

ثانيا ـ أرى ان الاديب ملتزم بطبيعة وجوده ، فهو انسان حي يعيش في مجتمع امده ويمده دائما باسباب التأثر والانفعال . وهو بحسه الصادق العميق وبموهبته الفذة في التعبير ، يعكس لنا صورة احاسيسه في نفسه، هذه النفس التي تقع دوما تحت التأثير المتلاحق الملح للبيئة اي المجتمع ومؤسساته ومشكلاته . فكل اديب ملتزم بالقوة . وعمل الظروف الطارئة والمؤثرات التي تتعاوده من الخارج ،والثورات الاجتماعية والهزات السياسية ان تخرج بهذه « القوة » الى حيز « الفعل » .

ثالثا ـ ليس هنالك اديب برجوازي واديب برجعاجي او اديب رجعي واديب متحرر او اديب قومي او اديب اقليمي . هنالك اديب صادق وحسب . ومعنى ذلك ان هنالك موهبة قوية واحساسا عميقا وقدرة فذة على التعبير بصدق واخلاص . وهذه الصفات او هذه القوى هي التي تؤهل صاحبها لحمل لقب الاديب . ومعنى ذلك انه ليس عندنا سوى تصنيفين لحملة الاقلام ـ اديب ، ولا اديب . فالاديب ملتزم بطبعه لانه يحس بالحياة على نحو عميق ، اعمق من احساس الشخص العادي ، ويعبر عن هذا الاحساس بنحو دقيق صادق ملهم مؤثر . وهذان العاملان : العمق في الاحساس والصدق في التعبير، هما خط الالتزام الادبي ، اذ بهما تتسع امداء حياة القارىء والمتذوق ، وتتضاعف اختياراته . وحسب الادب هذه الرسالة الشريفة يؤديها بامانة واخلاص . لان اتساع مدى حياة القارىء يعينه على ان يفهم الحياة فهما صحيحا صادقا مهذبا . ومن يفهم الحياة على وجهها الصحيح ، يعمل لاستبقائها في احسن حالاتها . واستبقاء الحياة في احسن حالاتها يعني اسعاد النفس واسعاد الغير وخدمة الانسان ، في اعمق معاني انسانيته ، سواء اكان هذا مواطنا ترتبط مصلحتي المباشرة السريعة بمصلحته ام اي انسان اخر تربطني به وشيجة الانسانية. فالاديب الرصين الصادق هو فهم جديد لمعنى الحياة ، وما اكثر معانيها ، فهو اذن سلاح جديد في يد الانسان يساعده على الاحتفاظ بحياته وحياة غيره في احسن صورها ، ويفل به اخطر سلاح مهما افتن دعاة الشر في اختراع اسلحة الفتك والتدمير . هي سلاح السلام وناصره حين تعز اسلحة السلام ويقل ناصروه . الا فلنعمل جميعا متعاونين لخلق الاديب الصادق وتوفير اسباب الاعداد والراحة له ، ولنتركه بعد ذلك يكتب بما يوحيه اليه احساسه الصادق العميق بالحياة فانه لاشك مؤد هذه الخدمة الجلى التي ننتظرها منه ، مادام حي الضمير متيقظ الوجدان يعيش بين احياء شرفاء ، ويستمد وحيه من حياة كريمة خيرة . والويل له بعد ذلك ان انحرف، فان الف سلاح وسلاحا ستشهر في وجهه ، ليس اقلها سلاح محاسبة الضمير . وهل سلاح اقوى من الضمير ؟

محمد يوسف نجم

والقبلية النقدية ايضا

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٤ ـ

جناها الاباء القساة على أولادهم المساكين ، وأنها مصيبة تعالج بالبـر والاحسان :

فكونك في هذي الحياة مصيبة يعزيك عنها أن تبر وتحسنا

على أنه يرى أن أبا العلاء ينفرد من بين شعراء العرب قاطبة بميزة واضحة لا سبيل الى نكرانها وهي أنه أقربهم في مستوى الفكر والثقافة الى فكر الغرب في العصور الحديثة ، وكأن فكره الجوال قد نقله من عصره الى أفق الفكر الاوروبي الحديث .

وفي مقام التدليل على هذه القضية يقول : « ومـن يدمن قراءة المعري يلحظ أوجه الشبه بينه وبين أمثال « شوبنهـاور وليوبـاردي وفيننجر وأناتول فرانس وكارلايل » وغيرهم من أعلام الفكر الغـربي، بل ان هناك مشابهة قوية بينه وبين شكسبير نفسه ، وفي اعتقادي ان هذه المشابهة البارزة لم تجيء عفوا ، وقد يمكن الاستعانة على فهمهـا بشيء يسير من التحليل التاريخي ، ولا ريب أن في كل عبقري جانبين، أحدهما عالمي والاخر زمني محلي ، والجانب الاول متصل بمزاجه الخاص ونفسه الدخيلة المطوية في ظلمات الخفاء . والجانب الثاني متصـل بأحوال العصر وخاضع للتفسير والبحث ، وأرى أن هناك شبها من وجوه كثيرة بين عصر المعري والقرن التاسع عشر ، وكذلك مشابهة عامة فـي المزاج الاصيل والطوية الكامنة بين المعري والكثيرين من كبار مفـكري الغرب ، والتئام هذين السببين قد زاد الشبه العام توكيدا ، وجعـله من الوضوح بحيث يسهل لمسه من غير كبير كلفة » .

وفيما يختص بالعصر ذهب علي أدهم الى انه من أرقى عصـور النضج الفكري للحضارة الاسلامية ، برغم اضطرابه الشديد من الناحية السياسية ، والمعروف ان العصور التي تتراخى فيها الروابط الاجتماعية وتتفكك الوحدة هي عصور الضعف في حين أن العصور التي تقوى فيها تلك الصلات ويكون المجتمع أشبه بوحدة عضوية هي عصور القوة ، وقد تكون عصور القوة والوحدة راكدة من الوجهة الفكرية والعلمية مجدبـة من الروح الفنية ، وقد تكون عصور الانحلال والضعف زاهية بالحيـاة الفكرية مشرقة بالاثار الفنية ، ومن هنا فان عصر المعري في جملته مـن عصور الضعف التي غلب فيها الشك اليقين ، وتحللت فيها العصبيـات وفترت المبادىء ، وضعفت فكرة « السلطة العامة المحترمة » وامتهنـت في شخص الخليفة العباسي أكبر ممثليها وتهيأت الافكار لشيء من حرية الفكر ، وانما مهد لها السبيل ضعف التعصب وانطفاء جذوة اليقيـن وانتشار الشك وتناول كل شيء بالبحث والنقد ، وكذلك في القـرن التاسع عشر كان العصر مكفهر الافق قد تخلخلت فيه اركان المجتمـع بسبب الهزة التي أحدثتها الثورة الفرنسية وهدمها للنـظم القديمـة ومحاربتها الاراء العتيقة ومحاولتها القضاء على التقاليد ، وكان الانسان واقفا بين بناء اجتماعي متهدم ، وبناء لم تتم بعد اقامته ، وكان الموقف موقف شك وحيرة وتساؤل ولهفة يكثر في أمثاله الفلاسفـة المتشككون والمتطيرون ، ويظهر من ناحية اخرى دعاة الاصلاح وبناة النظام الجـديد يبشرون بالعصر المقبل ويجددون اليقين الواهي ، وامثال هذه الاوقـات صالحة للفكر مثيرة له ، لانه يجد في اضطرابها وفوضاها مجالا للنمـاء والاتساع ، ويأمن خطر العدوان على حريته واقتحام حرمه ، لان فرصة التفكك والانحلال تهيىء له اسباب الحرية وتمكنه من تصفح الخـواطر المختلفة والقيام بسياحته في عالم الافكار المتناقضة والمذاهب المختلفة، وليس في وسع مفكر مثل نيتشه او شوبنهاور او رينان ان يعبر عـن نفسه التعبير الكامل في عصر مثل عصر لويس الرابع عشر او العصور الوسطى ، وما كان ليسمح عصر مثل عصر عبد الملك بن مروان او عصـر الرشيد بوجود المتنبي أو أبي العلاء ، وهذا من أشد ما ينعاه الفرديون على أنصار الاشتراكية لانها تحاول باحكام الروابط الاجتماعية أن تصب الناس جميعا في قوالب متشابهة وتقضي على التنوعات الفردية واختلاف ألوان الامزجة .

على أن أبا العلاء ـ في رأي الاستاذ أدهم ـ نهم الفكر شغـوف بتعرف كل شيء مطبوعا على تلك العالمية الخاصة بالعبقريين، وهـذا الاتساع النفسي من شأنه ان يوجه النظر الى التاريخ ويغري بالتعمق في تأمل حوادثه وعرض صوره ، ومن ثم كان للثقافة التاريخية دخـل كبير في تكوين كبار شعراء العالم ، وفي أشعار هوميـروس وفرجيل وروايات شكسبير وجيتي وشيلر وبيرون شواهد نواطق بذلك ، ومن كان في عمق أبي العلاء فلا مفر له من ان يطالع قصة الخليقة ويجول في تاريخ الانسانية ليسرد اخبارها وينص عبرها ويتأمل ما انتابها من مختلـف الاطوار ومتنوع الحالات ، وقد وجد أبو العلاء في التاريخ مجالا رحيبـا لتطيره ومنفذا لسخريته ، وكان يشعر بغزارة معرفته التاريخية ويقول:

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من أخبارهم طرف

وبالاضافة الى ذلك فان أبا العلاء كان رجلا حائرا شاكا منفـردا بنفسه ماهرا في التنقيب على مواطن الضعف في الانسانية ، نزاعـا بفطرته الى التطير ، من الواضح اللازم ان تسمع في فلسفته التاريخية صدى يأسه وترى أثر تململه وتسخطه ، وقد كان أبو العـلاء شديـد الفردية في احساسه يصادم المجتمع بفرديته الاوحدية الشاذة ولا يرضى النزول من برجه العاجي للانغماس في تيار الجماعة وانما الدنيا ملعـب وهو متفرج لا لاعب كما في قوله :

والارض رقعة ألعاب مقسمـة منها سهول وأجبـال وحزان

وهو من ثم لا يرى في التاريخ الا الفرد المحدود القدرة يصـاول الدهر فيغلب ، والمجتمع في نظره كتلة من الافراد لا وحـدة عضوية ، وهؤلاء الافراد لم يجتمعوا في ظل فكرة روحية أو بباعث سام ، وانمـا أرغمهم على الاجتماع الطماعية والحيوانية :

ما أشبه الناس بالانعام ضمهـم الى البسيطة مصطاف ومرتبع..

وعلى هذا المستوى من الفهم في تحليل العصر ومزاج أبي العـلاء يدلف مفكرنا الى اختلاف المؤرخين في تفسير التاريخ واستكناه حقيقته المتوارية وراء مظاهره ، ويرى انه اختلاف واسع ، ولهم فيه مذاهـب مختلفة ، وأشد تلك المذاهب تناقضا مذهبان :

أحدهما يلوذ به المتطيرون وهو مذهب الحركة الدائرة ويمثـله القدماء بالافعى التي تأكل ذنبها ، وانصار هذا المذهب ينكرون الوحـدة الاجتماعية والتقدم التدريجي الشامل ولا يعتقدون أن هناك غاية منصوبة تتجه اليها الانسانية ، ويرون المجتمع والانسانية عامة شراذم من الافراد تستحثها المطالب المادية وتسوقها الحاجة الى الاجتماع استجابة لتلك الرغائب والحاجات ، وحينما تكون الظروف موافقة تتكون نواة أمة، وكل هذه الامم خاضعة لقانون الحركة الدائرة ، فهي تمر في أدوار متتابعـة من الحكومة الملكية الى الحكومة الارستقراطية ومنها الى الديموقراطيـة وهذه تسلمها الى الفوضى ، ومن الفوضى تنحدر الى الحكم المطـلق وهكذا دواليك .

والانسان في رأي أنصار هذا المذهب موكول للصدف العمياء مهجور في هذا الكون المريب ، تلعب به الغرائز وتعبث به الاهواء وتغريه الاطماع والشهوات فلا يجد من أمرها فكاكا ولا يملك لها دفعا . وفي هذا يقول ابو العلاء :

تورعوا يا بني حواء عن كذب فما لكم عند رب صاغكم خطر

كما أنهم يرون أنه ليس هناك عناية الهية مشرفة على هذا الكـون تربق الضوء في حياة الانسان وتأخذ بيده في هذه الاوحال والارجاس والعوائر ، فما قيمة الاعمال والجهود وما أثرها في عالم كهذا العالم ؟.

ومن اصحاب هذا الرأي فريق ضعفت في نفوسهم الحاسة الاخلاقية وتمت الغلبة لعقولهم على عواطفهم فشأنهم في مداورة الايام واقتنـاص الفرص وعبادة القوى المادية والاتجار بالمبادىء والتقلب في أقذار الحياة تقلب السمكة في البحر . وفريق اخر من ذوي النفوس الخيرة والقلوب الكبيرة قد راعتهم هذه الفكرة وملأت نفوسهم مرارة وألما فهم يبشـرون باليأس والتزهيد في الحياة ويندبون حظ الانسانية ويقفون على اطلال الحضارات يبكون مصائر الامم ، وفلسفتهم حزينة مجللة بالسواد ملأى بصور الفناء ، والانتصار في نظر أصحاب هذه الفلسفة نذير الهزيمة، والحياة دليل الموت والضوء رسول الظلام ، وهم يسخرون من أنفسهـم ومن الطبيعة والكون ومن الله نفسه وأنبيائه ورسله ، وكأن الطبيعة التي

ضنت عليهم بروح الامل والسرور الخالص قد حبتهم بالنصيب الاوفر من ملكة السخرية والاستهزاء والزراية .

والمذهب الثاني يؤمن بالتضامن الاجتماعي وقانون التقدم ويرى ان الانسانية سائرة الى الكمال ، وهي تستخلص ذلك مننزعة الاجتماع الفريزية في الانسان ومن وحدة النوع الانساني واتفاق الفرض الذي ترمي اليه الانسانية وتتجه نحوه جهودهما المشتركة ، وهي ترى انخير كفيل بتحقيق أمل الانسانية هو انتقال الحق من جيل الى جيل، وذلك النزوع الى الكمال الذي يهون التضحية ويوحي الاديان ويعمر القلوب بالايمان .

ويفخر كلا المذهبين بطائفة من الاسماء البارزة في تاريخ الفكر الغربي ، فمن انصار المذهب الاول مكيافيلي وشوبنهاور الذي يقول « ما دامت الحياة أبدية فان فكرة التقدم لا محالة باطلة » وكارليل ، ومن القائلين بالتقدم بيكون وديكارت وميشليه وأوجست كنت.

وأبو العلاء في نظره للتاريخ ينتسب الى المذهب الاول فهو ينكر التقدم ولا يرى جديدا تحت الشمس فيقول عن الناس :

يسعون في المنهج المسلوك قد سبقوا ... الى الذي هو عند الغر مخترع
أبكار هذه المعاني ثيبات حجا ... في كل عصر لها جان ومفترع

وهو لا يهتف للمنتصر وانما يحذره عاقبة كعاقبة المغلوب فيقول له:

لا تفرحن بدولة أوتيتها ... ان المدال عليه مثل الدائل

وينذر من احتوت يده على شيء بأنه سيفقده لان :

من يُعط شيئا يستلبه ومن ينم ... جنح الظلام فانه سيؤرق

وقد أجرى أناتول فرانس على فم المؤرخ الكهل في تحدثه الى ملك فارس المحتضر في احدى محاورات كتاب اراء جيروم كوانيار كلمة هي خلاصة فلسفته التاريخية وهي قوله في تلخيص البشر « انهم ولدوا وتألموا وماتوا » .

ويرى الاستاذ أدهم أن هذه الكلمة نفسها يصح أن تكون موجز رأي أبي العلاء الذي يقول :

خلقنا لشيء غيرِ باد وانما ... نعيش قليلا ثم يدركنا الهلك

بل قد انحدر به اليأس الى ابعد من ذلك حيث فقدت الاشياء في نظره حقيقتها واشتبهت عليه مميزاتها وصفاتها :

فنحن في غير شيء والبقاء جرى ... مجرى الردى ونظير المأتم العرس

ويختم هذا الفصل في فلسفة التاريخ لدى أبي العلاء المعري بقوله: « وهذه هي أعمق قرارات اليأس ، ولكنها ايضا الذروة العالية التي ارتفع اليها المعري في عالم المفكرين المتطيرين واستحق بها أن يكون الامام الثبت والحجة والثقة في وصف علل الحياة وأدواء النفوس ، ولئن كان يسئمك من أبي العلاء جهامة الحزن الذي لا تزدهيه أعاجيب الحياة ولا تطربه أنغامها فقد يسليك منه تبسم الساخر المتهانف الذي لا يعفي شيئا من سخريته ولا يغفل لحظة عن تهانفه » .

وبهذا العمق في الفهم والاصالة في التفكير والعبقرية الخالقة وقف عند تولستوي وشوبنهاور في فلسفتهما للتاريخ ، واستطاع ان يجعلنا نحس التاريخ ونلمسه ونصافحه كانه حي يتحرك من خلال فلسفة هؤلاء الاعلام في عالم الفكر والفلسفة والادب على حد سواء ..

ومن ثم نرى ان ما كتبه عنه العقاد بصدد الفلسفة والتاريخ صادق فيه كل الصدق ، ولا سيما حينما يقول انه يمزج التاريخ والفلسفة معا بفطنة الاديب . ومن هنا كذلك ساغ للاستاذ أدهم أن يطلق على كتابه « بين الفلسفة والادب » لان فصوله – كما يقول – عليها مسحة من الفلسفة ، وبها نفحة من الادب..

وفي اعتقادنا ان رأي العقاد لم يأت على كل جوانب الاستاذ أدهم، لانه عني فيما عني به بالفلسفة والادب معا وكتب عن التقائهما حول شاعرية المعري وفلسفته وغيره من الشعراء ، كما عني بدراسة العبقرية وانواعها ، مما يجعلنا نقول بحق عن الرجل انه مفكر وناقد معا ، استطاع ان يدرس القضايا الفكرية بحصافة الناقد وذوقه المرهف وأصالته .

ومن يتعمق في دراسة أدهم للفلسفة والادب يرى ان الرجل يذهب الى انه من غرائب العظماء الجديرة بالنظر والاعتبار والتي قد تظهر لاول وهلة عادية مألوفة جمعهم بين أشياء مختلفة الاعراق متناقضة كل التناقض .

وفي مجال التطبيق على هذه النظرية يبين أن التئام النزعة الفلسفية بالسليقة الشعرية في أبي العلاء ، والتئام النزعة العلمية بالموهبة الفنية في مثل جيتي وابسن من هذا القبيل . وذلك لان الفلسفة غير الشعر ، والشعر نقيض الفلسفة ، وكلاهما قائم على استعدادات في النفس متغايرة ، وقل مثل ذلك في الملكة الفنية والاستعداد العلمي ، فان الفن الذي دأبه ان ينظر الى الاشياء مجتمعة في كليتها غير العلم الذي يعمد الى التحليل وصدع ألفة الاشياء ، ومجراهما في طبيعة الانسان مختلف .

ويوضح هذه الحقيقة اكثر بالنسبة لابي العلاء وغيره من الشعراء فيمحو كل شبهة تعلق بذهن القارىء حينما يذهب الى أن أبا العلاء ليس فيلسوفا من باب التوسع والمجاز ، أو لانه أخذ بطرف من الفلسفة، وانما هو فيلسوف بالمعنى الشامل الحديث للكلمة الذي يفهمه منها أمثال الاساتذة وندلباند ، وهفدنج ، وفوابيه ، وغيرهم من كبار مؤرخي الفلسفة في العصور الحديثة ، وهو يدخل الى حظيرة الفلاسفة بمثل البطاقة التي دخل بها امثال نيتشه وكارلايل وكولدرج وغيرهم من عظماء الكتاب والمؤرخين والشعراء الذين تغلبت عليهم افكار خاصة ظاهرة المعالم في مناحي تفكيرهم وان لم يقيموا على اساسها مذهبا فلسفيا منتظما محبوك الاطراف متجاوب الاقسام مثل مذهب شوبنهاور وهيجل وغيرهما من أصحاب الابنية الفلسفية الضخمة ..

ويرى أدهم أن لابي العلاء افكارا خاصة مبتكرة عن الاداب والاخلاق وآراء في المرأة والتاريخ والاجتماع والحياة وكلها ظاهرة الحدود، مطردة الاحكام لا ينى يرددها ترديد العابد تسبيحاته ، ووراء هذه المجموعة من الخواطر المنثورة المنظومة فكرة عامة يفزع اليها ويحف برايتها، وهذه الفكرة العامة خفاقة في كل ربوعه الفكرية ، ويسميها أدهم مذهبا فلسفيا وموقفا خاصا تجاه الحياة .

على أن الاستاذ أدهم ينظر الى هذه الطوائف من الخواطر والافكار التي تموج بها صفحات دواوين أبي العلاء منفصلة عن الصور الفنية والقوالب الشعرية ، وقد تجاوز المعري منطقة الشاعر الى منطقة الفيلسوف ، فهو من الحين الى الحين يصارع مشكلات الفكر الابدية ، ويجاهد معضلات الحياة المستعصية بجأش ربيط من غير ونية ولا فتور، ويحاول ان يفض أغلاقها ، ويزيح النقاب عن سرها ، وتكاد تشعر بلهفة نفسه ، وتصلصل جوفه من شدة الظمأ الى جرعة من المورد الذي يرد كل المفكرين ظمأى متقلصي الشفاه ، لا ينقع لهم غليلا ولا يشفي لهم نفسا ، ولم تبرد من لوعته الشبوبة في هذا الجهاد الشاق أضاليل الاماني وكواذب الاحلام ، ولم تصرفه عن مطلبه العسير صوارف الحياة ومشاغل العيش ، وهو يحتال في رياضته هذه المشكلات ببراعة فنية مدهشة جديرة بأساتذة الفن وأعلام الادب ، ويكاد يذهلك في شعره التفكير الفليسفي عن الوحي الشعري لولا ما يتالق خلال اشعاره من بارقات الخيال الملون القوي وما يدفئها من حرارة المشاعر الحادة المستيقظة، وما يتطاير فيها من تلك الكلمات المجنحة التي لا تثب الا من مقول كبار الشعراء .

ومن ثم فان أبا العلاء في نظر أدهم شاعر كبير ، لان الشاعر الكبير في مفهوم مفكرنا هو الذي يغرينا بالتساؤل عند ما نقف حياله عن فلسفته وطريقة نقده للحياة ، كما جرت العادة أن يرصع الفيلسوف كتاباته بشواهد مستمدة من الشعر يدعم بها حجته ويبرر موقفه، فالشاعر اذن يقتبس من أنوار الفيلسوف ، والفيلسوف يختلس من أشعة الشاعر، وهما لا ينسيان هذا النسب العالي والاخاء الروحي في أشد أوقات الخلاف والعداء .

وحينما يتحدث أدهم عن رسالة الشاعر يذهب أنه ليست وظيفته أن يتناول الحق مباشرة وانما وظيفته ان يتناوله من الجانب الحسي وينضو الجمال ويمزجه بحياة الانسان وعواطفه وأهوائه ومراغبه ، وليست المكانة الاولى في الشعر لما قاله الشاعر في ذاته وانما لكيفية

قوله وأسلوب ادائه . وليس الشاعر هو الرصاص الوزان الذي يرصف الالفاظ رصفا ، وينحت التراكيب ويوقع التفاعيل ويتخير القوافي الرنانة ، فهذا وزان نظام لا اكثر ولا اقل مهما تسامى أو أسف ، وانما الشاعر الحق هو الذي يعبر عن أعمق الحقائق ويلمس خفايا القلوب ويطوف بنا في مشارق النفس ومغاورها ليرشدنا الى افاق فكرية فسيحة ويركز اعلامه فوق مطالعها وثنياتها . والشاعر الحق كذلك هو من كان بطبيعته اكثر استيعابا لمؤثرات الكون المحيطة به وبخاصة تلك المؤثرات التي يرتضي تصويرها الفن ، وهو يجمع الى ذلك موهبته الموسيقية والتنغيم والسيطرة على اللغة وتسخيرها في أداء أغراضه والترجمة عما يقوم بنفسه من التأثيرات وما يدور فيها من شتى الخوالج، والشاعر الكبير الذي يعبر عن روح العصر ، ويصف شتى جوانب النفس الانسانية، وتلتقي في نفسه البواعث المختلفة والتيارات المتناوحة، يلزم له مجهود ضخم ، وعلى الطبيعة ان تجزل له المواهب السنية، ولا مفر من أن يزاد الى تلك الحساسية اللطيفة والطبيعة المزودة بالانغام عقل كبير يضيء الظلما تويكشف المخبآت تشد من قوائمه في أكثر الاحايين ثقافة عالية وعلم وافر ، وأمثال هؤلاء الشعراء قلائل في كل الامم ، بخيل بهم الزمن ، وأبو العلاء من هؤلاء القلائل .

ولعل النزعة الفلسفية جارت في أبي العلاء على السليقة الشعرية، وفي المعركة التي نشبت بين عقله وعواطفه تغلب العقل في كثير من المواقف واستعلى على العاطفة وقد دفع ابو العلاء ثمنا غاليا لذلك ، ولولا انتهاجه هذه الخطة واسرافه على نفسه فيها اسرافا أساء الى شاعريته لكان شعره أجرى الى مسالك النفس وأشد حوكا في الطباع ، ولقد أجاب أبو العلاء داعي الفلسفة ولم يلب داعي الشعر لما قطع الاتصال المباشر بينه وبين الحياة والمجتمع وظل في عقر داره يحلل أفكاره ، ويشرّح عواطفه، ولا يتعرض لحلو التجارب ومرها ، ولا يعاني مد الحياة وجزرها ، والوقوف على الشاطىء وعدم المغامرة في اللجج ومجانبة التقلب في أدوار الامل والخيبة والارتفاع والهبوط مسلك قد يلائم طبيعة الفلاسفة المتنسكين والعباد الزاهدين ، ولكنه مفسدة أي مفسدة للشاعر ابن الطبيعة المدلل وصفيها المحبب ، وقد غض هذا المسلك من روعة خيال المعري وشوه من جمال شعره ، وثارت شاعريته الاصيلة لنفسها من نزعة التجريد والانطلاق وراء الحق الفلسفي فصار أطول الناس مصابرة وأشدهم جلدا على القراءة لا يستطيع أن يمضي في قراءة صفحات معدودة من اللزوميات دون أن يحمل على نفسه ويعنفها .

وفي تصورنا ان الاستاذ ادهم في هذا المنهج الفكري النقدي لفلسفة الادب انما يبتدع منهجا جديدا على فكرنا ونقدنا العربي، وان كان قد سبق ببعض أبحاث لبعض المفكرين العرب في هذا الاتجاه، فانها لا تعدو أن تكون محاولات فضلا عن أن تكون منهجا .

معيار العبقرية :

ودليلنا على عبقرية الاستاذ أدهم الذي لا ينقصه أي باحث ولو كان من أولئك الذين يزعمون أن الضمان الوحيد لسريان أي دعوى تجديدية يقوم على غمط الرواد حقهم ، والضرب صفحا عن أعمالهم.

دليلنا على عبقريته ما كتبه عن معيار البطولة في كتابه « صقر قريش » اذ أنه ذهب فيه الى ان المتأمل في تاريخ الانسانية في هذه الارض – زورق الحياة الصغير الذي ينساب بنا في علم من اللانهائيات جياش العباب يهول صمته ولا يسبر عمقه – يجد أن الحركة التاريخية السائرة من انبلاج فجر الحضارة تتجه الى غاية مجهولة ، وقد تكون تلك الغاية من فوق متناول الافهام ومن وراء خطرات الاوهام، ولكننا نحس وجودها ونستشف أثرها من وراء فوضى الحوادث واختلاط الظواهر ، وحول اثبات تلك الغاية ، وتلمسها واستيضاحها أو انكارها وطمس معالمها تدور أرجاء معارك فكرية بين المدارس المختلفة من المفكرين.

على أنه يذهب في هذه الغاية الى أنها ظاهرة السمة في الحركة التاريخية ينم عنها ذلك التدرج والانتقال الدائم في النظم والاوضاع الاجتماعية ، وقد تصدى كثيرون من أعلام الفلاسفة لاثبات هذا الترقي الملموح في التاريخ وفي طليعتهم « فيكو » و « هردر » و « هيجل » ، والحق أن ترقي الانسانية من نظام الفردية الى نظام الاسرة فالقبلية فالملكية ثم ظهور السلطة الدينية ومجيء عهد القوات الكبرى في العصور الحديثة يدل على ان هناك تدرجا دائما وراء تلك الاستحالات في الاوضاع الاجتماعية وان الحضارة تتجه الى غاية تشترك الامم المختلفة في سوق جموع الانسانية اليها . ويمضي أدهم مبينا أن الافكار هي أداة السيطرة في هذه الدنيا ، وهي اللب والصميم لكل تلك التغيرات الخارجية ، وهذا ما يؤكده الاستقراء التاريخي ، ومن ثم فان كل دور من هذه الادوار التي مرت بها الانسانية نتيجة لظهور فكرة العصر ، او روح العصر . وهذه « الفكرة » تظهر في مستهل امرها غامضة ملتبسة يحفها ضباب من الغموض وتفر من المنطق والتحليل ، ثم تنجلي عنها سحب الغموض وتزول شيئا فشيئا حتى تظهر الفكرة جلية واضحة، ثم يدركها العفاء والبلى فتذبل وتذوي وتقوم على اثارها فكرة جديدة. فتاريخ الانسانية اذن سلسلة من الافكار التي توالت على الدنيا وارتسمت في صفحة الحياة البشرية ، واكثر معارك التاريخ وأيامه كانت لتغليب فكرة من هذه الافكار على الاخرى .

ثم يدلف الاستاذ أدهم الى الحديث عن الطريق الذي تسلكه الفكرة ، ويرى في ذلك أنها تتخذ لظهورها طريقين : أحدهما الجماعات والاخر الافراد ابطال التاريخ ، وهي تظهر في الجماعات بشكل دافع يستحثهم على الهجرة والانتقال مثل رحلات قبائل البدو السامية من جوف شبه جزيرة العرب الى حوض دجلة والفرات ، وظهور حضارة بابل وأشور نتيجة لذلك ، والذي يسوق الجماعات في تلك الاحوال هو الغريزة التاريخية التي تدفعهم من حيث لا يشعرون وهم يخالون انفسهم متجهين الى غرضهم الخاص المعين ، وغرضهم الخاص هذا في الاعم الاغلب قليل الشأن ضئيل الى جانب الغرض الكبير الذي ترمي اليه الغريزة التاريخية ، وهذا الغرض لا ينكشف خفيه الا بعد زمن..

أما الطريق الاخر لظهور الفكرة فيتمثل في الايحاء الى الافراد الذين نسميهم أبطال التاريخ واتخاذهم روادا للفكرة وطلائع لها ، وهم أشبه بآلات في يد الفكرة ، يعملون على تحقيقها من خلال سعيهم الى مجدهم الشخصي ، وهم يؤدون للانسانية خدمات من وراء افاق تفكيرهم

تسوقهم الى النهوض بها الفريزة التاريخية التي تستغل قوة طموحهم لبلوغ مآربها وادراك غاياتها كما تنتفع غريزة حفظ النوع من اذكاء عاطفة الحب وتتخذها وسيلة من وسائلها ، فالغريزة التاريخية تبتعث طموح العظيم لتحقيق الفكرة ، والغريزة النوعية تهيج عاطفة الحب لابقاء النوع ، فالعظيم والمحب كلاهما مخدوع مسوق الى تنفيذ غايات لا تبرز في ساحات تفكيره .

ولكي يستدل على صدق نظريته يضرب مثلا بعبد الرحمن الداخل انه لما كان يجاهد لتسنم عرش الاندلس لم يكن يعلم انه سيكون احد المؤتمنين على ميراث الحضارة وانه لولا تلك الاسرة التي أسسها لكانت الدنيا غير ما هي عليه ، وأن أرض الاندلس ستلقى على يد خلفائه أسعد أيامها وأزهى حضارتها .

والمقياس الذي يقيس به عظمة هؤلاء الرجال هو انهم أدوا مطالب عصرهم وحققوا الفكرة التي كانت تضطرب في أحشاء الزمن، وهم يمتازون بخضوعهم لعاطفة مستعلية عليهم غلابة على نفوسهم ، وحول القوة التي تفيضها هذه العاطفة وتصبها على الفكرة الهابطة على العصر تتركز أكثر الحركات التاريخية ، وتأخذ هذه العاطفة عليهم مسالك نفوسهم فلا يستوطئون راحة ولا ينعمون بسعادة وهي السر في الجهود الجبارة التي يبذلونها ونراها نحن من فوق طاقة البشر وخارجة عن دائرة الامكان .

ويختم حديثه في هذه القضية مبينا أنه من دواعي اعجابنا بهؤلاء العظماء اضطلاعهم بأعباء عصورهم ، ومما يثير حبنا لهم وعطفنا عليهم أن نهاية حياة أكثرهم كانت أشبه بالمأساة ، فان الفكرة تنبذهم بعد تحقيقها فيموت أحدهم في روعة شبابه أو يبقى ليهجره أصدقاؤه وتنقطع الاسباب بينه وبين انصاره ، وتحفه طائفة من الخواطر السوداء والافكار المزعجة حتى ينشب فيه مخلب الموت مثل عبد الرحمن الداخل .

على أنه يدرس في كتابه « ألوان من أدب الغرب » العبقرية الاسبانية ، فيذهب الى أن اسبانيا لم تقدم للثقافة الاوروبية في عالم النظريات والمبادىء ما يقعدها في الصف الاول من غيرها من البلدان الاوروبية . وذلك بالرغم من أنه نبغ في اسبانيا بعض العلماء والفلاسفة ولكن اسبانيا لم تخرج عبقرية من الطراز الاول في العلوم او الفلسفة ، ولم تظهر في جنوب جبال البرانس حركة فلسفية ملحوظة او نهضة علمية مأثورة ، .

ويعتمد في تعليل ذلك على بعض مفكري الاسبان الذين ذهبوا الى أن السبب في ذلك تغلغل الفردية في نفوس الاسبانيين، لان تلك الفردية المتمادية تعوق تحول الافكار الشخصية الى مذاهب اجتماعية او حركات فلسفية .

كما أن اسبانيا لم تقدم شيئا يذكر للتفكير المجرد والبحث العلمي، ذلك لان العقل الاسباني بطبيعته قليل الاقبال على التجريدات، ولا يستسيغ في سهولة ويسر التفكير النقي الخالص ، ودأبه في الفن او الادب ان يجعلهما وسيلة للحياة ، لان الحياة في رأيه أكبر وأجل من الفن والادب ، وهو يعتمد على الاستجابة للقلب الانساني مباشرة أكثر مما يعتمد على الاسلوب ومذهب الانشاء ، وفرط حبه للحياة يغريه بتجاهل الفضيلة ويبعده عن التعصب لها ، لان الفضيلة جزء من الحياة ، والجزء مهما عظم شأنه أقل من الكل ، ولا يستحق من أجل ذلك رعاية خاصة، ولذا لا تلمح في الروايات التي جادت بها العبقرية الاسبانية تفضيلا لاحد الاشخاص على الاخرين ، والجميع عندهم كما يقول المثل الاسباني « أبناء الله » وهذه النزاهة الادبية بادية في كل الاثار العظيمة عند الاسبانيين في الادب والفن ، تطالعها في كل صفحة من صفحات « دون كيشوت » وتلمسها في كل صورة من صور فيلاسكيه .

والادب الاسباني ـ في نظر مفكرنا ـ يحاول أن يصف الانسان من حيث هو انسان مكون من لحم ودم وأعصاب وعظام ، ولا يطيق أن يحيله « فكرة » باقية، أو يصيره « قالبا » . والفرق بين عبقرية « سرفانتيز » وعبقرية «جيتي» أن « سرفانتيز » كان يعتمد على الحياة وحدها ، أما « جيتي » فانه كان يسترشد بفلسفات وموازين أدبية وقواعد فنية يستمد منها ، ويستقي من منهلها .

ويمضي الاستاذ أدهم في حديثه عن العبقرية الاسبانية مدعيا أنه في الوقت الذي تنزع فيه أوروبا في تفكيرها الى الموضوعية ، وترغم الانسان على ان ينيم أهواءه ، وينسرح من ذاتيته ، ليستطيع العقل ان يفهم الاشياء فهما سليما ، ويكون لها صورة صحيحة ، فان اسبانيا في الوقت نفسه تنظر الى الانسان بقضه وقضيضه على انه محور فلسفتها وأساس فنها وأدبها .

ومن ثم فان العبقرية الاسبانية ـ كما يراها أدهم ـ ضيقة المدى، ولكنها عميقة مثرية ، وفكرة الموت لها في الادب الاسباني شأن كبير، لان الادب عندهم يدور حول الانسان، وهذا الانسان الفرد هو تاج الخليقة وخلاصة الوجود ، ولكن الموت يثل عرشه ويهدم ايوانه .

على ان اسبانيا تخون فرديتها وتنسى رسالتها اذا كانت تقبل فكرة بقاء الانسان في نوعه او في أعماله ، لان تصور « الشعب » والاجيال القادمة في رأي العقلية الاسبانية تجريدات لا حقيقة لها ، وانما الانسان « الفرد » هو الحقيقة ، وهو الذي ينتزعه الموت ، ويطويه الفناء ، فشدة شعور العبقرية الاسبانية لا تستسلم لفكرة الموت ففي اعماقها كنوز من النشاط والهمة والعزيمة الماضية كافية للتغلب على الالم ومكافحة اليأس ، ومن هذا النبع العميق للحياة تنبجس في نفسها الصوفية.

كما أن القوة الخالقة في الادب الاسباني أقوى وأوضح من القوة الناقدة ، والادب الاسباني في تطوره يتبع العبقرية القومية ويخضع لها، ويرفض كل املاء عقلي أو قاعدة مفروضة ، ويستهدي بغريزة الشعب التي تحدوه على تأمل الواقع وتفسيره تفسيرا مباشرا، وهذا هو سبب طرافة الادب الاسباني واستقلاله .

واخالنا بعد هذا التجوال السريع في بعض كتب الاستاذ علي أدهم لا كلها، لان الكتابة عن كتبه ودراساته كلها أمر يخرج عن الطاقة في مقالة ، ويخرج ببحثنا عن قصده ، لاننا بصدد البحث عن موضوع لا عن اشخاص ، وانما الذي سوغ لنا الحديث عن ادهم والمعداوي ماعاناه هذان الناقدان من ظلم وغمط واهمال .

ومن ثم فاننا قد خرجنا من هذا التجوال بمناهج في فلسفة التاريخ والادب والعبقرية ولم نتحدث عن أدهم الناقد بالرغم من دراساته النقدية الكثيرة التي تربى على خمسين دراسة مفصلة عن شعراء وادباء وموضوعات كلها جديدة من حيث النظرة والتفكير.

ومن يتتبع اثار أدهم النقدية فانه لا شك يخرج بمبادىء ونظريات تكون اتجاها « أدهميا » في النقد ، على هذا المستوى من التفكير في الفلسفة والتاريخ والادب بأجناسه كلها . وكم كان بودنا أن نعرج عليها لنرد على من خالفنا في المعداوي بأن أدهم مفكر أكثر منه ناقدا، غير ان ودنا ليس بنافع ولا شافع ازاء ضيق المقام ، وسنحيله على مؤلفات أدهم في النقد العربي التطبيقي ليقرأها بنفسه منفردا ونحن نثق فيما يخرج به بعد ذلك ، لانه سيصافحنا معتذرا عما بدر منه في شأن روادنا الاعلام .

وعلى الرغم من ضيق المقام فاننا نرى أن هذا القسم من القبلية النقدية بحاجة الى الحديث أيضا عن المبدعين من الشعراء والقصاصين وغيرهم بطريق الاجمال .

وفي هذا الصدد فانني أدلف الى الحديث عن كاتب قرأت نتاجه الروائي في طفولتي فقرأت له « مليم الاكبر ، وويك عنتر ، وملك من شعاع » ومع ذلك فقد انقطعت عني أخباره ولم أدر أين يكون هذا الكاتب الذي ملك علي شغاف قلبي يومئذ .. يوم قرأت ومتعت نفسي به .. أين صاحب هذه المؤلفات .. أين عادل كامل .. الذي انقطع عن الكتابة ولم يتعد بعد مرحلة شبابه الادبي .. لماذا لم يواصل الكتابة كصديقه في السراء والضراء نجيب محفوظ ..

انه يحكي لنا في مقدمة مليم الاكبر عن كبده المقروحة من جراء ما يحدث في الحقل الادبي ويتمثل بقول الشاعر :

ولي كبد مقروحة من يبيعني ... بها كبدا ليست بذات قروح

ولقد تقرحت كبده من لجان الجوائز الادبية وغيرها ، وما يعانيه من البيئة الادبية بصفة عامة ، ومما يكتب في المجلات الادبية بصفة خاصة . ومن هنا فاننا لنراه يكتب مقدمة نقدية لرواية « مليم الاكبر » في مائة وثمانية وعشرين صحيفة تفيض بالمرارة والالم ، مما يعانيه الفن والفنانون مع من نصبوا من أنفسهم مهيمنين على النشاط الادبي والثقافي في بلدنا .

ولقد عالج في هذه المقدمة جميع المشاكل النقدية التي كانت تثار وقتذاك في عام ١٩٤٤ ، وهو العام الذي أصدر فيه « مليم الاكبر » واتسمت معالجته لهاتيك المشاكل بالسخرية التي برع فيها صاحبنا، اذ رد على كل مأخذ من المآخذ التي كانت تصوب الى القصص والشعر، وهي مقدمة كان بودنا أن يتعرف عليها القراء ، ولكن ضيق المقام الذي أصبحت اضيق به كل الضيق هو الذي جعلني أقول عنها ما يقوله الدارس لها في نهاية دراسته حينما يتحدث عن الاثر الذي تركته في نفسه ، فهي من عمل فنان يعالج مشاكل النقد ترفده في ذلك الروافد الطبيعية للناقد الحق ، وهي الاصالة والتجربة والثقافة والضمير الادبي.

أما من حيث طاقته الابداعية في قصصه فيحدثنا عنه الاستاذ سيد قطب في كتابه كتب وشخصيات حينما نقد « مليم الاكبر » .

« ان قصة مليم الاكبر هي قصة الصراع بين الطبقات مصبوبة في قالب فني ، فهي على هذا من أدب « الوعي الاجتماعي » الذي يدعو اليه جمهور من المفكرين فيجميع أنحاء العالم .. وليس معنى انها من أدب الوعي الاجتماعي أنها تفقد بذلك السمة الفنية الاصيلة، لان المؤلف يبدو في قصته هذه صاحب موهبة فنية لا سبيل الى الشك فيها ، موهبة العرض ، والتنسيق ، ورسم الملامح والشخصيات وادارة الحوادث والمفاجآت .. فهي من هذه الناحية تستوفي صفات القصة الجيدة على وجه العموم . ثم هي تحمل طابع مؤلفها بوضوح في نواحي النقص فيها ونواحي الكمال ، فالمؤلف صاحب طريقة مطبوعة وأسلوب مرسوم ، وهذا يقرر وجوده الفني في عالم القصة بلا جدال » .

والاستاذ قطب هو الناقد الذي اعترف له نجيب محفوظ فيالحفلة التي أقيمت لتكريمه ببلوغه الخمسين من عمره ، اعترف له محفوظ بأنه والمعداوي يرجع اليهما تقدمه في الفن ، لانهما كانا يتناولان اعماله الادبية بالنقد والدراسة المستأنية الفاحصة ، فعرفاه قيمته الادبية والفكرية ، واطلعاه على نفسه .

واذا صح ان عادل كامل زميل لنجيب محفوظ وصديق ، من حيث الملاقة الانسانية والاتجاه الادبي ، واذا صح ان قطبا تناول اعمال عادل كامل وقال فيه ما قال ، كما تناول اعمال نجيب محفوظ .. اذا صح هذا وذاك أفلا نكون على حق بأن عادل كامل قيمة أدبية معطلة.. وما الذي جعله يأنف من حياتنا الادبية والفكرية حتى يطلقها طلاقا بائنا لا رجعة فيه ، ويعمد الى احتراف التجارة كما قيل لي ..

أغلب الظن أن القبلية النقدية لا يمكن ان تصنع أسوأ مما صنعت مع صاحب المليم الاكبر وملك من شعاع وويك عنتر . ومن ثم فانانقطاعه عن العالم الادبي له مبرراتهالتي أومن بها كل الايمان.. والتي آمل لوطني أن يبرأ منها ومن مرتكبيها الحمقى.

والقبلية النقدية في صميمها وأسوئها هي التي تدفع بنقاد القبائل ألا يتعرضون بالدراسة الجادة المفيدة لمن لا ينتمي اليهم.

وللتدليل على ذلك نذكر بعض الروائيين لنسائل انفسنا عنالدراسة التي تعرضت لاعمالهم الادبية ..

طاهر الطناجي :

ماذا اصابت قصصه من عناية النقاد ، معروف انالرجل ينتج في عالم القصة والتاريخ والشعر ، بل لقد طلب منه العقاد في المصور الصادر في ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٧ أن يعطي للقصة والتاريخ بعض وقته ليبدع .. فأين هو من دراسات نقادنا الاجلاء . ولماذا لم يدرس .. لانه لا ينتمي ..

محمد عبد الحليم عبد الله :

قصاص بارع يترك الاعمال الادبية تمضي الى نفوس القراء وعقولهم دون ما جلبة أو ضوضاء ، ولا يعرف القارىء متى صدرت روايته ولكنه لا يتركها اذا ما لمحها دون اقتنائها ، ولكن رواياته لم تلق من الدراسة النقدية ما تستحقه فيعالم النقد.. ولماذا ؟ لانه لا ينتمي..

محمد عطا :

قصاص بارع له من انتاجه الوافر ما يقعده في مصاف الرواد في عالم القصة ذات الوعي الوطني ، وناقد بارع ، له مؤلفات في النقد لها أصالتها وقيمتها الادبية ، وكتابه « الحركة العاقلة » يشير الى منهج في النقد يدعو الى الايجابية فيعالم الفن والادب ، لا الى السلبية التي دعت اليها تعادلية توفيق الحكيم ، وبالرغم من أصالة محمد عطا في قصصه ونقده ومنهجه ، فان ناقدا لم ييمم وجهه صوب هذا الانتاج الفخم .. واذا سألت عن السبب لقيل لك انه لا ينتمي ..

نجيب كيلاني :

روائي له من الاصالة ما اجتاز بمبدعاته جوائز وزارة التربية وغيرها ، وما جعلت رواياته تقرر على مدارس وزارة التربية ، سلنفسك ان شئت .. أين نجيب في عالم الدراسات النقدية .. يجيبك العاقلون .. انه لا ينتمي ..

واذا ما اجتزنا عالم الرواية والنقد الى عالم الشعر لصدمتنا حقائق مرة تحمل افكارا صدئة واحساسا قبليا باليا ، لان هناك من يدعون التجديد ، ومن يدعون قيادة الحركة التجديدية ، وهؤلاء يريدون للحركة بطبيعة الحال ان تسود .. وكيف .؟؟ لا طريق اذن الا بأن يضربوا صفحا عن أي شعر يقال على غير طريقتهم ، واذا ما تعرضناقد لهذا الشعر الذي يخرج عن اطار الحركة التجديدية فللتندر به، أو لاظهار أستاذية شاب على ذلك الشاعر بعد الموازنة المنحرفة عنالقصد..

وتأسيسا على هذا سننظر مع القارىء في أعمال بعض الشعراء كأمثلة لغيرهم لم يلقوا من العناية ما يلقاه شاب ناشىء في السن والشعر معا ..

محمود حسن اسماعيل :

شاعر جبار مزود بطاقة شعرية لها من القدرة على ان تحيل كل تجربة الى احساس شعري ضخم ، ومن هنا سماه الدكتور مندور « وحش الشعر » له عدة دواوين سعدت بها العربية في ميدان الشعر، والتهمها المتأدبون التهاما ، وغزت أسواقنا الادبية بمعناها الواسع، ومع ذلك ، فان أحدا من النقاد لم يهتد الى دواوينه لانهم يلبسون على أعينهم غطاء كثيفا ، كان يسميه الاقدمون « طاقية الاخفاء » وذلك لكي يحولوا بين أعينهم وبين رؤية شعره ..

العوضي الوكيل :

له سبعة دواوين كلها جيد ، ولهباب اختص بريادته تناول به شعراء العربية ومفكريها بالشعر النقدي ، حيث رسم فيه الشخصيات التي تناولها وأعطى فيها حكما نقديا ، وهو باب فريد أدخله العوضي الوكيل في أدبنا ونقدنا على سواء تحت عنوان « رسوم وشخصيات » ومع ذلك يبدو أن النقاد في اجازة عن تناول هذا العمل الرائع ، لانه لا ينتمي ..

عبد الرحمن صدقي :

فنان محلق في سماء الشاعرية ، وناقد فني يجاري أعلام الفن العالميين ، له دراسات تتسم بالذوق والتمييز ، ومع ذلك فان نقدا لم يوجه الى شاعريته يستحق الذكر ، ولا الى دراساته بالرغم من انها تربى على عشر ، ولماذا أيها النقاد ؟؟. لانه لا ينتمي ..